

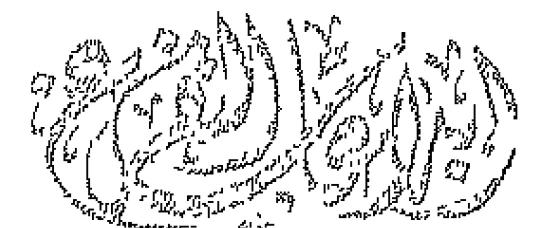
رواية

انفجار جمجمة

إدريس على

المجلس الأعلى للثقافة





العام: د. أحمـد مجاهد

لتحرير الفنى: مكرم شحاته

جار جمجمة

لى

ثانية ، ٢٠٠٠

لأعلى للثقافة

الجبلاية، دار الأوبرا، القاهرة

ريدى: ١١٢١١

٧٣٥٢٣٩٦

٧٣٥٨٠٨

رونى:

egypt council @ yaho

اع: ١٥٠٩٨/٢٠٠٠

دولى: 977-305-257-5

جلس الأعلى للآثار

والإخراج للفنان

رزق اللـه



إبداعات التفرغ

[١]

رواية

انفجار جمجمة

إدريس على

تنويه

أحداث هذه الرواية ليس لها علاقة بأمور أو وقائع مشابهة جرت فى هذه المدينة أو تلك ، ولا قراءة لحوادث نشرت فى الصحف أو تناقلتها وكالات الأنباء ، لأنها من نسج الخيال، وأى تشابه بين أسماء أبطال الرواية ، وأسماء أخرى معروفة أو مغمورة ، هى من قبيل الصدفة .. وزمن وقوع الأحداث فى توقيت معين ، ليس له أى دلالة أو تعمد مقصود ... سوى أن أى أحداث ، لابد أن تقع فى زمن ما .. ولذا وجب التنويه .

**

«الرواية الفائزة بجائزة أفضل كتاب لعام ١٩٩٨ فى معرض القاهرة الدولى الحادى والثلاثين للكتاب»

مقدمة

هذه الرواية انفجار بكل معنى الكلمة ، من انفجار الدم إلى الميل عن الحق والانحراف وارتكاب الخطأ . وهى ليست « انفجار جمجمة » فحسب ، بل هى أيضاً انفجار فى مجال الرواية العربية ، فى جرأتها فى الحكى الذى تمتزج فيه دماء الجثة بجغرافية مصر من المدينة إلى الريف ومن الريف إلى الصحارى . ولقد كان توفيق الحكيم يكتب كمحقق يبحث بين الفلاحين عن المجرم وسماع اعترافاته أو كسب ثقة الشهود ليدلوا بشهادتهم . وبعد حوالى ربع قرن كتبت روايتى الجبل وفيها استطاع المحقق أن يحصل على اعترافات وأن يسجل شهادات ، لكنه كان – مثل توفيق الحكيم – محققاً قادماً من المدينة كغريب عن أهل الجبل . هنا فى « انفجار جمجمة » شهادة عن الجريمة ، والجثة ترفض المحقق وتتهم كل المحققين ، ويعلن صاحب الشهادة عن ضعفه وقوته ، وسوء سلوكه ونصاعة صدقه، وهو يجوب مصر من أقصاها لا يتردد فى الاعتراف بخطاياه متحدياً الذين يحاصرون أو يراقبون . واعترافاته انفجارات تنطلق فيها الكلمات شظايا جارحة ، لكن ما الذى تنتظره من انفجار هو أحد ملامح هذا العصر . إن المشاهد تتتابع فى إيقاع سريع ، والحوار حاد يفضح ما تسمعه فى أعرق الأزقة والدروب، وينقل إليك صدمة الانفجار التى تختلف تماماً عن الانفجارات التى تعودت أن تقرأ عنها فى الصحف أو تشاهد لقطات لها على شاشة التليفزيون . ولا شك أن الأستاذ إدريس على كان وهو يكتب هذه الرواية يتحدانا ، فقد بجس نفسه فانبجست ليختبرنا ويختبر رؤيتنا لبلادنا . ولا شك أنها تختلف من عدة وجوه عن رؤيتى لكن يظل انفجاره ملمحا رئيسيا من ملامح أيامنا ووجودنا سواء فى مصر أو العالم . ولن أتراجع أمام هذا التحدى لأنه صريح وقوى وصادق ، وهو رغم وقاحته وأحياناً بذاءته يكشف عن موهبة وأصالة. وكم أتمنى أن نواجه هذا التحدى بالعناق ونقدم هذه الرواية إلى القارئ الذى تبحث عنه ، وهو قارئ جديد وصاحب الأغلبية التى لا تقرأ لأنها ما زالت تنتظر كاتباً مثل إدريس على يكتب عنها لها .

إننا لا نستطيع أن نتجاهل هذه الرواية ولا نستطيع أن نقتلها بالرقابة ، لأن الطريق الصحيح لمواجهة الصدق فى أنفسنا هو الترحيب بهذا الانفجار الذى يهدم أحياناً ولكنه ضرورى عندما نفكر فى مشروعات البناء !

فتحي غانم

الجزء الأول

الهمج

لا تكن متفوقاً فى عالم منحط ،
ستكون مثل بقعة عسل
وسط عالم من الذباب .. ستفنى
ويبقى الذباب .

محمد الماغوط

عن جريدة « أخبار الأدب »

(١)

قبل الفجر بقليل ، على غير المألوف ، يقتحم أحلامك ، كوابيس نومك ، موتك المؤقت ، عـزلتك .. رنين هاتفى مـتـواصل ، ملح . تنزعج ، تتـقلب بتكاسل ، تتثائـب ، تنتبه ، تستعيد نفسك .. والرنين لا يكف. تنظر للهاتف بضيق ، تمد يدك متردداً ، ترفع السماعة متوجسا ، يخدش أذنك صوت أجش مجهول تسمعه لأول مرة ، يعيدك لعالم الحركة الصاخبة دون إرادتك ، كل أصدقائك المشاكسين تحفظ نبرات أصواتهم ، ألو .. ألو .. من ! من المتحدث ؟ تعيد التساؤل مرتين .. لعلك تكتشفه ، فربما أخطأ صاحبه الرقم ، المرجح أنه صديق يلون صوته ليخدعك ، لا يفصح ، تقلق ، تعتدل ، تركز، تسلم مصيرك لحاسة السمع ..

- أريد الأستاذ بلال ؟
- من المتحدث ؟
- حضرتك ؟
- من أنت ؟
- فاعل خير ؟
- أعرف من تكون أولاً ؟
- أسمعنى لو سمحت ؟
- اتفضل ..
- قبضوا على شادى .
- من شادى ؟
- صديقك .. الصحفى اللبنانى .

- قبضوا عليه ؟!

- ضربوه .. أهانوه .. رموه خارج الحدود .

- ماذا تقول ؟

- كاد يموت بين أيديهم .

- أنت تهلوس .

- الدور عليك يا بطل .

- كن شجاعاً واكشف أوراقك .

- احترس .

- تحذير هذا أم تهديد ؟

- اعتبرنى صديقاً .

- لا أخاف .

- لِمْ نفسك أفضل .

تقوم، تغادر فراشك . تغادرك السكينة ، تفتح النافذة ، ظلام بين الفجر الوشيك والليل المقيم . ترنو حزينا على مدينة الصمت والمآذن والأهرامات وأبى الهول المسخ. تطل ، تستغيث بالفجر .. ولا فجر ، وكأن الظلام قاعدة وأساس ، والنهار مجرد حالة عارضة ، تدخن على الريق ، تنفخ دخانك فى وجه الفراغ . تدور فى غرفتك كالتائه . تشرب براندى على معدة خاوية . الخواء . تحاول استعادة توازنك . تعيد تقدير الموقف ؛ هذا هاتف كان يرن ، هذه شقتك ، هذا أنت بكامل لياقتك وصحوتك ، سمعك سليم وقد حادثك شخص ما ، حاورك صوت بشرى ما زال يملؤك ، لخبط سلوكك .. صوت جاد ، حازم ، خشن خشونة الواقع ، وما سمعته ليس مزاحاً ولا لهواً أو مجرد وخزة ، فمن يكون المتحدث ؟ لأى سلطة ينتمى؟ لحساب أى شيطان يعمل ؟ تنشط ذاكرتك .. تحاول الوصول جاهداً إلى صاحب صوت ما قبل الفجر ، توقيت مقلق . صوت همجى . تهديد سافر . تستعيد كل النبرات ، حتى من لقيتهم صدفة لأنك حسن الإنصات جيد الالتقاط ؛ أصوات الأصدقاء ، الأقارب ، الحاقدين ، ضباط حرس الدولة ، حراس الأشباح

شياطين المدينة ... فلا تسعفك الذاكرة . أنت والبراندى والفجر الذى تأخر وَالتوتر . تشرب . تدخن . تتنقل بين أشيائك المبعثرة . تصطدم بكتبك تشوطها بعصبية ، تدخل دورة المياه وتفشل ، تتجه للمطبخ ولا تأكل . تفتح الثلاجة وتقفل بابها بعنف ، تجلس فلا تستريح ، تستنجد بالمذياع .. فلا تسمع سوى شوشرة ، صفير ، تراتيل ، ابتهالات ، ثمة مؤذن يبشر بأن الصلاة خير من النوم.. فتغلق باب الريح لأنك حين تنام تشعر بالخير ، الطمأنينة، الأمان ، الراحة ، تنفصل عنهم لحظتها من خيرهم القليل وشرهم الوفير ، والآن.. اقتحموا فراشك ، سرقوا لحظتك الجميلة . أفسدوا ليلك ، انتزعوك ، قذفوا بك للأرق ، للتوتر، للبراندى الذى يتسرب إلى دمك نارا فتشتعل ، تلتهب .. تحترق .. ولا أحد سينجدك حتى تتفحم ، لأن أهل المدينة ، فى هذا التوقيت ، بين مستسلم لغيبوبة النوم وأحلام فجر لا يهل ، وساجد يبتهل للسماء أملا فى جنة ما بعد الحياة ، وساهر منتش يداعب سرة راقصة ، أو جندى فقير أمى يمسك ببندقية محشوة ويجهل عدوه الذى سيرديه ، سيضرب من يدنو حتى لو كان معتوها أو ضالا أو جائعا سرق غطاء بالوعة ، وبين لص كبير حصل على عدد كاف من الأهداف فى الوقت الأصلى ، وثرى ينتقل بين محطات العالم عبر الدش وجهاز الفاكس يتكتك بجواره ، ينتقل منه وإليه . ونشال صغير يركض فى الدقائق الأخيرة من الوقت بدل الضائع .. يحاول ، يسابق الزمن ، قد يفوز بهدف يتيم من ضربة جزاء مشكوك فيها أو تسلل لم ينتبه إليه الحكم عن عمد والجماهير تزأر: « ..كوسة .. كوسة » يرجمون الجميع بالطوب ، يشعلون ورق الجرائد من الغضب.. لكن المباراة حسمت ، فلا زئير يعدل القرار ، ولا حريق يسترد ما ضاع.. فى آخر دقيقة فاز . حظ .. ربك يريدها هكذا .. عندك مانع ؟ لم يبق أمامك سوى البراندى تشربه وتشتعل ، دخانك يتصاعد . يعبئ غرفتك . تسعل، تبص من نافذتك ، تود لو تصرخ . شادى بالذات ؟ المسألة مقلقة ، لن ترتاح حتى تتيقن . والفجر يدخل بحياء ، فهل يتراجع ؟ ينكص ويظل الظلام قدرا ؟ شادى بالتحديد؟ تتصل بشقته .. رنين ولا مجيب . أحيانا ينام كالقتيل ولا يرد . أحيانا يبيت حيث قضى سهرته . تتصل بحارس المجلة .. لا يفيدك . تتصل بعشرات الأصدقاء تنتزعهم من سراديب الهرب الليلى ، تقلقهم بهواجسهك ، تسألهم وأنت تسعل ، تتساقط منك الحروف . شادى أين ؟ شادى عبد السلام

صاحب المومياء؟ يا ابنى صح النوم .. هذا مات من زمان . يا أخى لأ .. شادى اللبنانى . صباح الفل يا جدع .. أنت شارب ؟ وحياتك لا علم لى بمن تسألنى عنه : «ياحبيبى جمع .. شادى مين ؟ بيشتغل إيه ؟ وبعدين يعنى بذمتك دا وقته ؟ نم وكف عن فوضويتك » . يسخرون منك ومن سؤالك المبهم . يعودون للنوم وأحلام الهروب .. ولن تستريح . تلجأ لدفتر تليفوناتك .. تتوقف عند رقم لم تستخدمه أبدا .. رقم حين تراه تركبك عفاريت الدنيا . وحتى الآن تجهل سبب احتفاظك به مع أنه يسبب لك أرتكاريا ، لكنك الآن مضطر.. صاحبه يملك مفاتيح المدينة.. يعرف أنك على نار . مرات تدير القرص ، تتراجع . يدك ترتعش ، جسدك كله يتراقص . هذا الرقم أين موقعه ؟ فى بيته أم هناك فى البناء الذى بجوار الميدان ؟ تتهور ، تهاتفه . استضافك مرات فى قبوه الهمجى .. حاول كسرك وأنت حديد ، حاصرك ، ضايقك وأنت صامد . حاول شراءك وكسب ودك باسم الوطن ولديك مفهوم للوطن يختلف ، منحك رقم هاتفه السرى، انتظرك واثقا فخيبت أمله . سموت ، تمسكت بوطنك الذى تحلم به ، والآن تلجأ إليه تحت ضغط الموقف والتوتر لإنقاذ شادى من مخلبه ، تنقذه ولتقم القيامة بعد ذلك ..

– آلو ..

– أهلا يا بطل ..

– صباح الفل يا باشا .

– أخيرا !

– أسف لإزعاجك يا باشا .

– كم ساعتك ياه .. بالتأكيد لديك خبر مهم .

– إنما أسالك عن شادى ؟

– شادى ؟

– أرجوك . دعه وخذنى مكانه .

– فدية يعنى ..؟ !

– أرجوك ..

- موضوعه خرج من يدى .

- يعنى سعادتك ..

- أمره يمس سلامة الوطن .

- ياه ..

- لا تتدخل ..

ليس هذا ما كان يتوقعه . أعطاك رقمه السرى لتقدم إليه الرقاب وليس لإنقاذها . أن تقلق رجلا بهذا الحجم ، فى فجر مدينة كهذه لتستفسر عن شادى .. جذون . يسألك منزعجا أنت شارب ؟ ويسألك متوجسا عن أهمية شادى بالنسبة لك ؟ ويؤكد لك جهله التام بملابسات هذا الموضوع ، لأن جهة أخرى ، أكبر ، أهم ، هى التى تتبعته واقتنصته . ويسألك : متى تشرفه وتشرب معه فنجان قهوة مع الدردشة الخفيفة كأصدقاء ؟ مكتبه مفتوح لك .. وأهلا بك وسهلا . وأنت لا تصدقه .. تقف معه عند شادى ، تسأله بحدة تحت تأثير البراندى : ماذا فعل ؟ وماذا فعلتم به ؟ يمتص حدتك ، يؤكد للمرة الثانية بسعة صدر أن موضوعه خارج نطاقه .. يتعلق بسلامة وأمن الوطن . والوطن على العين والرأس يحيا الوطن . بلادى .. بلادى .. لك حبى وفؤادى ، لكن بماذا هدد شادى سلامة المحروسة ! تود لو تسأله عن مفهوم الوطن ؟ تود لو تسأله عن أمور تحيرك ، تقلقك ، تشوش عليك ، لكنك تتحاشاه تخاف من الانزلاق وقول ما لا يجوز لرجل قناص للكلمات . تغتم ، تسكت ، يستمر بينكما الصمت . أنت بدأت المكالمة ولن تقدر على إنهائها ، يقول لك بثقة لا حدود لها : عموما .. أسعدتنى بصوتك وإنى انتظرك .. وستأتى .. وتصبح على خير . وأنت لن تذهب إليه لأنك تعرف جيدا ما يريد وتفضل قبوه الخانق عن مكتبه الأنيق ، لأنك مخلوق للغضب والمناكفة . لأنك بلال . يحرضك البراندى فتثور ، تسبه ، ملعون أبوه وأبو الـ .. لأنك تعشق وطنا آخر غير الذى شيدوه بالأغانى ، الأناشيد ، الأكاذيب ، الصوت الواحد ، الزعيم المعجزة . وطنا جديدا جميلا لا يستند على ما كان ، يعطى ظهره لأهرامات الرق وشواهد الفاتحين ، وطنا ليس به شارع سليم الأول وطومان باى وكل همج التاريخ . وطنا يسع الجميع ، لا فضل فيه لأحد على آخر . ويستفزونك حين يغنون : «المصريين أهمه .. فى الدنيا أحسن أمة .. » طيب .. ولماذا

التطبيل ؟! بهذا السؤال المحرج تتوجه لمن يناقشك . تسأل : أين الأدلة ؟ لأنه يصعب اختزال الوطن فى ملاعب الكرة ، ويستحيل الدمج بين أمن عدة أفراد وأمن الوطن كله .. لهذا تبتعد عن رجل يريد منك الجلوس فى زهرة البستان والأتيليه والانضمام لحزبى التجمع والناصرى . تنقل له .. فينكل بهم ، يشتتهم.. أهذا هو الوطن ؟! لكنك ستظل تبحث عن وطنك الخيالى حتى تفنى ، مثلما فنى قبلك مئات الحالمين وسيلحق بك المئات . لكن شادى .. أين هو ؟ كلهم يهونون عليك الموضوع ، مجرد ترحيل لانتهاء الإقامة ، أو لنشره خبرا محظورا .. أو الشك فى مصادر تمويل المجلة . مسائل بعيدة عنك . وأنت موسوس ، تعاودك الهواجس .. فتتسرب الزجاجة كلها إلى جوفك ، تكوى معدتك الخاوية والكون كله أمامك خواء ، سراب فوضى ومبان غامضة محاطة بالحراس والأسلاك والكلاب المدربة . أكف تصفع . أقفية تتلقى . تعطى إنذارا للأفواه فتسكت ، خمرة على الريق يا متخلف ؟ هذا انتحار .. موت مع سبق الإصرار ولا بديل أمامك .. فالشبح الهمجى يطاردك ، ينغص عليك ، يدفعك لشرب حتى ماء النار ، والذى «يدلعه » العامة ويسمونه « هوب هوب أو كنفر » . تشرب كل ما يشرب ويغيب حتى تنساه ، لكنه ماثل أمامك يكون حيث تكون وكأنه الإله الذى يقدسونه فى كل مكان وزمان ، يطاردك يحرك الجميع ضدك . يحاول تدميرك.. سحقك .. دفعك لحافة الجنون فتشق هدومك ، هدوءك ، تشد شعرك ، تنازله ، تندفع نحوه كالثور الهائج وتصطدم بالفراغ . لا أحد . لاشيء . لأنه شبح همجى ، جبان ، لا تعرف له عنوانا ولا اسما ولا موقعا . والليل ينسحب ، تزقزق العصافير ، تطير ، تتنقل بين الأشجار والفضاء الفسيح ، تحلم ، تتمنى لو كنت عصفورا من نوع فريد ، تطير ، لا تنالك نبال الأطفال أو بنادق الهواة المترفين ، تطير لا تلحق بك الجوارح .. ثم تسكن آخر الليل فوق غصن شجرة محصنة ضد الأفاعى . ياه .. طيران متواصل من بلد لآخر دون عوائق ، لا قوانين لا حدود أو موانع تكبلك ، تضغط عليك ، تزهق روحك ، الفضاء الرحب الفسيح كله لك . لا مناورات ومطاردات تحولك إلى ملف فى سجلات مبانى القمع ، وملفك حافل بما كتبته وأنت متوهج وما قلته وأنت سكران ، وهذا الشبح المجنون لن يخلصك منه سوى الرجل صاحب الرقم السرى . تزوره ، تشرب قهوته ، تحكى له القصة بدقة سيشملك برعايته وحمايته ويعطيك كارنيهاً خاصاً تدخله فى عين أكبر رأس

وتتسيد عليهم كلهم ، مصالحك كلها ستمشى وتفتح لك الأبواب . فتهرب من شبح وهمى لشبح حقيقى يطلق عليك لقب عميل ، مرشد ، مصدر معلومات ، سيأخذ منك كل شيء .. حتى وطنك الجميل الذى حلمت به وحاربت من أجله ، ثم يرميك يوماً ملوثا، فاقدا لقيمتك .. مشوها . وأنت لن تفعل هذا حتى لو طاردك ألف شبح ، حتى لو تكتلت عليك الدنيا كلها ، لأنك قيمة، موقف ، رمز ، لو سقطت ، هوت بعدك المدن واستسلمت لهمج الداخل ، والهمج الذين على أبواب رفح ، والهمج الذين يحلبون البقرة ، لكن الشبح يعوقك ، يستنزفك لا يدع لك وقتا تواصل فيه كتاباتك النارية وحروبك ، وأنت تجهل سبب مطاردته ولا تعرف من أى موقع ينطلق ؟ وعلى أى جهاز جهنمى يسيطر ؟ وقد استبعدت تماماً ذلك الإله الوثنى الذى معبده هناك فى الميدان الشهير لأنه شجاع يتعامل معك وجها لوجه ، لكن فى مدينتك معابد كثيرة وآلهة بلا حصر ، مبان سرية وعلنية، تدخل أحدها ماشيا .. تخرج منها فى نعش لو خرجت ، كلها تختفى خلف لافته أمن الوطن ، وتحسد أبا قردان لأنه المخلوق الوحيد فى وطنك الذى يحظى بالحماية والشعبية حتى لو تبرز على السيارات الواقفة بجوار حديقة الحيوان . ولأنك لست أبا قردان المقدس ، فالشبح وراءك وراءك ، لو عرفته ربما تستريح ، تفاوضه ما دمنا فى عصر المفاوضات والتنازلات ، ولكنك تجهل من يكون ؟ وللمرة الألف تراجع أسماء السادة اسما اسما : المشاهير ، النجوم ، الذين لهم نفوذ ، ألهة المعابد الوثنية ، الوزراء ، القادة ، المحافظين ، رؤساء المدن ، أعضاء المجالس الذين عندهم حصانة فى الدنيا والآخرة . أبدا ليس بينهم من عطلت مصالحه بقلمك أو فضحته فجرجروه للمحاكم ، قلمك الذى يتمنون قصفه وقصفك . وحتى أمك كانت تناديك بمقصوف الرقبة ، تضربك ، تحبسك تشد شعرها من الغيظ ، تصرخ تلم عليك الجيران : « يعنى أعمل فيك إيه ؟ أولع فيك؟ أسيب لك البيت ؟ مالك ومال الناس ؟ ما تسيب الناس فى حالهم .. هو أنا ناقصاك .. والله لأقصف رقبتك يا ابن ستين كلب » تبرك فوقك ، فتخبط رأسك بالبلاط .. تكاد تقتلك ، فيخلصك منها الجيران وينصحونك بسماع كلامها ، وبألا تسبب لها المشاكل . منذ طفولتك ورقبتك مطلوبة حتى من أمك . من يومك وأنت شقى تحب الاشتباك ولا تتركهم لحالهم . وكنت تفعل هذا مع نوع معين من الناس ، النوع الهمجى . وأنت ما تزال غلاماً اكتشفتهم ووقفت فى طريقهم ،

رأيت اللبان وهو يضيف الماء للبن ففضحته ، فجرى وراءك وضربك وشكاك لأمك فضربتك ، وشكاك لأبيك فعلقك ومدك وأدمى قدميك .. لكنك فضحته وكشفته .. فتنبه الناس وبارت بضاعته . وكان الباعة وأصحاب الدكاكين وطوب الأرض يشكونك لها « الحقى ابنك يا أم بلال . حوشى ابنك بلال . ابعدى ابنك يا أم بلال » وهي تسب بلالاً واليوم الأسود الذى ولدت فيه بلالاً ، تضربك بقسوة وتسألك بحنق « عاوز إيه من الناس ؟ فهمنى علشان أفهم .. يا هتموتنى ناقصة عمر يا هتجننى .. عاوز إيه؟ » فتقول لها موضحا وشارحا : أمى .. رأيت كذا وكذا. لكنها لم تفهمك ، ولا غيرها فهمك . تحبسك لكى ترتاح من شقاوتك فتغافلها وتنط من الشباك ، تذهب إليهم ، تقوم بغاراتك الجرئية ، رأيت زوجة بائع الكفتة الذى فى أول الحارة تطارد القطط وتضعها فى شوال أكثر من مرة ، فراقبتها وعرفت السر ولما رأيت أهل الحى يتزاحمون حول عربته طلباً لكفتته الرخيصة اللذيذة جريت تصرخ : لحم قطط.. لحم قطط .. فركض البائع خلفك بالساطور وكاد يذبحك لولا سرعتك وهروبك واختفاؤك عند خالتك لمدة شهر ، لأنه حلف بالطلاق ودين النبى أن يقتلك لو ظهرت فى الشارع ، ولم يصدق أحد كلامك ، استمروا يتزاحمون ، يأكلون كالعادة ، حتى قبضوا عليه ، وطلعت كذاباً لأنها لم تكن لحم قطط .. وأنما كلاب. ورأيت بواب المستوصف وهو يغرى ابن جيرانك بالحلوى ويصحبه للداخل فتسللت وراءه ورأيته يسحبه لدورة المياه فوقفت حائراً مندهشاً لا تدرى معنى ما يدور حتى سمعت الولد .. يتأوه صارخاً : أى .. أى يا ماما . فأسرعت مستنجداً بالناس فى حالة فزع : « الحقوا .. الحقوا .. عم على بيموت الواد فى الكابنيه » .. كبسوا عليه ضربوه بالشباشب ، بالعصى ، بصقوا عليه ، جرسوه ، وأمك ثارت ، تفلت عليك ، شتمتك « يا فضحى يا ابن الوسخة.. ماشى تدور على الوساخة » . لكنك كنت سعيداً منشرحاً لإنقاذك الولد قبل أن يذبحه الرجل ويسلقه ، أو يفرمه ويبيع لحمه لمحلات الكفته . وكان أصحاب الدكاكين يتحاشونك ، يطردونك لا يبيعون لك لأنك تدقق ، تراقب الميزان تشم الأشياء المعفنة ، تردها لهم . وبائع الجاز كان يريك الجالون قبل سكبه فى وعائك قائلاً : « شايف .. للآخر آهه .. ما أنت وش المشاكل» . وكان عشماوى أفندى المدرس فى الإلزامية يقف بعيداً عن الأولاد ولا يقبلهم أو يربت على خدودهم لما يلمحك متنبهاً ، فهو يخشاك منذ ضربته قلما عندما أمسك

حمامتك . والجارات كن يصمتن حين يجدنك واقفاً ، يقلن لبعض محذرات : «بس يا وليه يا هايجه.. لحسن الواد دا .. فضايحى .. » . وكانت أكبر مشكلة قابلتك وبسببها كادت العاصفة تطيح بالأسرة كلها يوم رأيت أباك يتسلل لغرفة الجارة التى زوجها فى السجن ، فقلت لأمك : « الحقى يا ماما .. دا بابا باين عليه اتجوز مرات الراجل الحرامى » . وأمك كانت عاقلة.. حكيمة ، لم ترفع بالصوت ، وإنما ظلت واقفة.. تنتظر حتى خرج أبوك وهو يسوى ملابسه ويمسح عرقه فبصقت على الأرض .. وشتمته بصوت خفيض : « إخص عليك راجل واطى » . ثم جمعت ملابسها وذهبت عند أهلها ، مصممة على الانفصال .. فصالحها بغويشة ذهب . والمرأة الأخرى خجلت ، انتقلت لبيت آخر . وأبوك عرف بعد ذلك اسم المتسبب فأخذ ينتهز أى فرصة ويضربك حتى الهلاك ، فتحملت قسوته لأنه صار مخلصاً لأمك الطيبة المسالمة التى تكره المشاكل وتتمنى لنفسها وللناس الستر .. وتحبك على طريقتها . وأنت تناكفها وتسألها عن أشياء كثيرة تود معرفتها بإلحاح وكشف الستار عنها ، أمور تحدث وتحيرك ، أشياء يفعلها الناس ولا تجد لها تبريراً يقنعك ، فترد عليك بإجابات صغيرة لا تريحك : « ربنا قال كده ، وربنا عاوز كده ، وربنا يحلها ، وربنا يفرجها وربنا يهد القوى ، يوه بقى .. فلقتنى .. مش عارفة .. هى كده وخلاص .. » . وتخيلت ربنا هذا رجلاً كبيراً ضخماً جباراً مخيفا حسب ما صورته لك بردودها الساذجة . ومرة سألتها عن كنه هذا الشىء الذى تصنعه بالسكر والليمون ولا يؤكل وتدسه بعيداً عنك .. وتصورته مخصصاً لأبيك وحده مثل الحمام المحشى ليلة الخميس ، فسألتها :

- إيه دا يا ماما ؟
- ما لكش دعوة .
- والنبى يا ماما ..
- يا حبيبى أسكت .
- وغلاوتى عندك .
- عاوز تعرف إيه دا ؟
- آه ..
- طيب .. افتح بقك .

فكورت هذا الشيء وحشت به فمك فالتصق حنكك بلسانك بشفتيك فبكيت فقالت جملتها الخالدة : « علشان تبطل تسأل » . وأنت أبداً لم تكف عن السؤال . كبرت وكبرت معك الأسئلة . بدأت من الأرض ثم صعدت إلى السماء فصار سماؤك غير سمائهم ، هم فى جانب يؤمنون بما جاء وأنت فى المقابل تسأل : من قال هذا ؟ وأين الدليل ؟ فضاقوا منك ومن أسئلتك ، وأنت تقول .. وتقول ولا أحد يسمعك . وسميك كان يؤذن فى مكة وأنت تؤذن فى مدرسة الصم . والجميع نائمون فى العسل وكل همك أن ينتبهوا ، أن لا يحملوا هذه الصخور مرة أخرى ليبنوا بها تربة للفرعون ، وأن لا يبنوا مجرى عيون آخر لحاكم القلعة إلا إذا كانت ستمد القرى والكفور والعزب بالماء وليس للحاكم ومماليكه . وتقول لهم بحدة : هذا عبث يا جماعة ، ورق أن يبدد شعب طاقته وجهده لمدة عشرين عاما لبناء مقبرة ، وليس لتشييد قلاع وحصون فى وجه الغزاة . وتصرخ ، تثور ، تخرج عن حدود المسموح ، فيحذرك أحد المرعوبين حتى لا ينشوك مثل فرج فودة . ويدنو منك همجى تراه لأول مرة ، يقدم لك نفسه كمراسل لمجلة كذا ، يطلب صورة وتسجيل حوار ، يراك شجاعا لأنك تحدثت عن مجرى العيون وتنتقد ، فتعتذر عن إجراء الحوار فى هذا المكان الصاخب ، فيعزمك على أى مكان هادئ تفضله وعلى حسابه ، تسحبه للجريون ، وتطلب كبابا وبيرة وتشرب ، تأكل ، تتجشأ ، تسلك أسنانك وهو ينتظر بالورقة والقلم والتسجيل ، تطلب المزيد ، تراوغه ، تضحك عليه بالنكات الجنسية والسخرية من النساء المشعرات من تحت، وتختلق له قصصاً ملفقة عن مغامرات ولقاءات كلها أكاذيب ، تضحك وتضحكه عندما تحدثه عن نوع من النساء فى بلاد صحراوية بعيدة ، يلزقن بالرجال تماما مثل أنثى الكلب ، وقد تفيض روحك وأنت تحاول الخلاص منهن ، وعندما تحس بالاكتفاء والضجر من مجلسه ، تدعى السكر ، تزوغ منه واعداً بلقاء للحوار فى أقرب فرصة . لأنك تعلم جيداً أنه مندوب أحد الشبحين الوهمى أو الحقيقى .. واخترع مجلة ليس لها وجود فى قبرص أو لبنان . تذهب للمقهى كالعادة وتنتظره حتى تستكرده من جديد ، تستهلك مصاريفهم السرية لأنها من الضرائب التى تدفعها ، فلا فضل لهم عليك . تنتظر ولا يأتى ، لأنه اكتشف مدى دهاءك وثعلبيتك بعد أن تعشيت وسكرت على حساب الدولة . ولو جاء ، سيكتفى بالجلوس بعيداً عنك والانتقام منك ، ويسجل عليك قولك « ملعون أبوه

وأبو الـ » مع أنه كلام عادى جداً أى مأزوم فى شوارع المدينة يقوله .. سائق السيارة الأجرة الذى يضايقه عساكر المرور ، المومس التى يمسكها بوليس الآداب، الراقصة التى يطالبونها بالضرائب . ويقوله العساكر الفقراء الواقفون أمام فنادق الثراء ، ولا يتفضل عليهم أحد بزجاجة مرطبات ثمنها قروش يبلون بها ريقهم الناشف . لكنك لو قلته ، فى لحظة زهق ، يأخذونه عليك .. لأنك بلالٍ .. والشبح يطاردك ، يسد أمامك كل منافذ النشر حتى أبواب بريد القراء . جمّدك محلك سر . لا نص ينشر ولا حتى خبر من سطرين ، ولا الإذاعة تستضيفك أو تطل مرة من الشاشة الصغيرة أو الكبيرة أو حتى المتوسطة ، كان الحصار جزئياً فى الماضى لكنك منذ كتبت روايتك المزعجة وحاولت نشرها والحظر تناولها وتناولك . وتتعجب من قوته الأسطورية ، كيف بسط نفوذه على هذا الاتساع والمدى . حتى السلاسل الأدبية الخاصة وصحف المعارضة تعتذر لك ولا تدرى كيف استعداها عليك ؟ هل سرب إليهم أنك عميلهم أو عميل لهمج الحدود ؟ أو بالضغط وحجب الإعلانات ؟! وكيف أزعجته رواية من ورق لن يقرأها سوى الأصدقاء والحالمين بالكتابة والمجانين ، رواية لا مخالب لها ولا أنياب . وأنت عنيد ومصمم على نشرها حتى لو دفعت حياتك ثمنا . وهم لن يكفوا .. يرن جرس الباب تفتحه فتجد مخبراً يسلمك ورقة استدعاء لمكتب الباشا ، وكأى جينتلمان ، تذهب إليه فى الموعد ، فيلطعك يوما بطوله تقضيه فوق دكه خشبية فى حالة انتظار .. وتجهل سبب الاستدعاء ، جئت بنفسك ولن تنصرف إلا إذا صرفوك ، والساعات تمر عليك بطيئة ، مملة ، ضاغطة .. تزهق ، فتسأل :

- ماذا عنى ؟

- الباشا مشغول.

- من فضلكم ..

- الباشا فى اجتماع مهم.

- وهل علم بوجودى هنا ؟

- الباشا طلبه الوزير ..

- يعنى أنصرف أم ماذا ؟

- عندما يأمر الباشا .

ويأتى عليك الليل وأنت قاعد فوق الدكة ، تنتظر ، لا أحد يتحدث معك ، يعبرك ، يفسر لك ما يجرى ، تحتج بشكل مهذب ، تحادث ضابطا تسأله إن كان هذا يصح ، تستدعون مواطنا وتسمرونه فوق دكة طوال النهار والليل ، فينظر إليك باستعلاء ويرد ببرود : « احمد ربنا إنك قاعد محترم .. أحسن منك ومرمى فى الحجز مع الحرامية .. تحب سعادتك تشرف تحت .. » ما عنديش مانع .. يا عسكرى .. خذه يشم هوا لغاية ما الباشا يرجع .. » . تعتذر له آسفا ، تندم على تهورك فأنت هنا تصير رقيقاً لا يحق لك حتى مجرد التضجر .. ويمر عليك يوم آخر طويل .. طويل . تفرك .. تنفخ .. تدخن . تلعن اليوم الأسود الذى عرف فيه أبوك أمك .. تلعن قوانين الهمج التى تحمى أبا قردان ولا تحميك . تتمرد ، تقوم لتنصرف مهما كانت العواقب ، فيمنعك عسكرى برشاش واقف على السلالم ويقول لك بحسم : « دورة المياه هناك .. ولو سعادتك عاوز أى حاجة من برة .. نجيب لك » . إذن أنت رهن الاعتقال . ولكن لماذا ؟ فى اليوم الثالث يأتى من يصرفك لحين إشعار آخر ، لأن الباشا سافر فى مأمورية عاجلة وهاتفنا مشكورا بأمرك . ثلاثة أيام فوق الدكة حتى تقرحت عجيزتك ونالوا من صمودك درجة . فتعود لبيتك وتنتحر بالبراندى ، تحاول القراءة وتتوقف أمام بيت شعر : «بلادى وإن جارت على عزيزة .. وقومى وإن ضنوا على كرام » فتتأرجح بين حالتى الضحك والبكاء .. أى شاعر هذا .. وأى شعر قاله ، وإن جارت .. تذهب فى ستين داهية غير مأسوف عليها . إذا ضنوا ، تعطيهم ظهرك وتتف عليهم فهذا الكلام يثيرك بسذاجته لأن قائله لم يجلس ثلاثة أيام فوق دكة، ولا أكل علقة همجية ولا طارده شبح . وعندما سألت شاعر وطن المستقبل والمواقف ، الذى سجنوه شهرين عن تجربة الحبس ، حكى لك كيف قيدوه وعصبوا عينيه ، فرأيت آثار القيد الحديدى حول معصميه ، ورأيت حفرة .. غائرة فى رأسه من عقدة المنديل ، ورأيت أوسمة الكى والضرب بالأسلاك ، ثم انفعل وقام وأطلقها كصرخة احتجاج وسط رواد زهرة البستان : أيها الناس .. هل توجد أمة متحضرة فى الدنيا تعذب شاعرها . كلهم خرسوا . وأنت أيضاً لأنك تعلم جيداً أنها حضارة أهرامات ، تماثيل ، مومياوات ، ورق بردى .. وأغان .. فعلوا هذا كله بشاعر له اسم وتاريخ وصوت مسموع . لم يخشوا عرائضكم وضجتكم

الإعلامية .. فماذا عنك ؟! تتذكر هذا الشاعر والدكة الخشبية والقبو المنتن والأكف الهمجية ، فتتبدد عنتريتك ، يحتبس زئيرك ، تتحول إلى فأر مجرد . تخشى حتى رنين جرس الباب تنظر من العين السحرية خائفا ، فترى رجلا يحمل مقطفا .. تدقق فى وجهه ، تشك ، فلا هذا بزبال العمارة ، ولا هذا وقت جمع القمامة . وبالتأكيد ليس لصا متنكرا لأنك لا تملك ما يغرى ، كراكيب وكتب وزجاجات بيرة وبراندى فارغة ، فيرتفع صوتك من الداخل ، حاداً متوتراً : من أنت ؟ ماذا تريد ؟

- أنا الزبال يا بيه ؟

- الزبال ؟!

- عندك زبالة ؟

- أنت الزبال ؟ وأين الآخر ؟

- زبالكم مريض .

- شكرا .. لا .. انتظر .

تفتح الباب ، ترمقه فاحصا .. شعر رأسه منسق ، لحيته كأنها منتوفة ، حذاؤه جيد لامع ، حتى الجلباب المتسخ الذى يتنكر به ، تحته منطال يفضحه .. تبتسم فيسألك متغابيا « فى حاجة يا بيه ؟ » . تبتسم مرة أخرى ، تريكه ، تأتيه بسلة القمامة شبه فارغة ، تقول له ساخراً : قمامتى لن تفيدكم لأنى أحرق أوراقى حتى لا يقرأها متطفل . يستعبط عليك قائلاً : « كده حضرتك بتحرمنا من الرزق، لأن الفايدة كلها فى الورق .. » ، فتجادله : «الفائدة يا أخ فى الزجاجات والأطعمة لمزارع الخنازير .. يا خنزير» . يسمعها ، يفهمها ، لكنه يبلعها وينصرف . تستعيد شجاعتك .. تتأسد .. تنزل خلفه بمنامتك وشبشبك ، بحذر تراقبه تسير خلفه ، من حارة لزقاق .. حتى يخرج للشارع الرئيسى ، ويقف ، وتمر عليه سيارة بوكس بأرقام ملاكى ، تلتقطه .. فتبصق على الأرض ، خنازير فعلا . فكم جهة تسعى خلفك يا ترى ؟ وقد صرت مغرما بكشف أساليبهم ، تفرح حين تلمح لهم ، وأحيانا تقولها « على البلاطة » وتغيظهم ، ولهذا يكثفون مناوراتهم ليغيظوك ويتلفوا أعصابك ويرغموك على ترك الكتابة و البلاد أو حتى

الانفجار . تنفجر فى لحظة ضيق ، تتناثر عجينة مخك ، فيستريحون منك ومن قرفك . يرن جرس الباب كالعادة وترى وجها جديدا تحت ستار النور أو الغاز أو ضرائب العقارات أو معلن عن معجون أسنان . وقد تتركه يرن ، تكركب لكى تشعره بوجودك ، لكنك لن تفتح . وقد تستقبله صامتا ، متجهما فيكلم نفسه كالمجانين ، ثم تقذفها خلفه حين ينصرف : «هو حضرتك من الإدارة ؟ ولا روكسى.. أظن من حمامات القبة ؟ عموما ما تفرقش وسلم لى على الباشا » . وقد يكون من جهة سرية أنشئت خصيصا لأمثالك . وربما تهلوس من شدة الحصار فيرد عليك مصححا : نحن يا أفندم مكتبنا أو شركتنا أو مصلحتنا – حسب الأحوال طبعا – فى شارع كذا . وفى كل الظروف تنبسط من قدرتك الشرطية الفذة والمكتسبة من خلال قراءاتك القديمة لأرسين لوبين وشارلوك هولمز . من يومك شقى مناكف، لا تريح ، فتسرب إليهم ما يربكهم ويشتت عقولهم وجهودهم . وأحيانا تكتب كلاما فارغا وترميه فى سلة القمامة عن عمد ، تستفزهم . وأحيانا تسكر فى البار وتقول ما يحتمل عدة تأويلات ، فيتضخم ملفك ويسعون خلفك فلا يجدون شيئا ذا بال ، فتخرج لهم لسانك وتلعب لهم حواجبك ، لأنك قرأتهم جيدا على امتداد السنين وحفظت قوانينهم ، بدءاً من عصر حامورابى ومحاكم التفتيش وسى الأمير وحدود النص ووصولا إلى قوانين الهمج. وأحيانا تقوله على المكشوف وسط رواد البار : ملعون أبو الذى علمنا الصمت وملعون أبوه من يرى ولا يقول ، وملعون أبوه من يسمع ولا يرد ، وقد ضحكوا عليكم قديما ونسبوا السكوت للذهب .. مع أنه سبب البلاء ولا يساوى حتى الصفيح . ويأتى الجرسون، يرغمك على الجلوس غاضباً : « يا تقعد ساكت يا تروح .. مش ناقصين دوشه ، هو كل واحد فيكم يقرا له كلمتين فارغين يصدعنا بيهم .. هنا بار .. تشرب .. تغنى ترقص .. تعيط .. ماشى ، عاوز تخطب .. تشوف لك حتة تانية » . وأنت تعلم جيداً أن بعض العاملين فى هذا البار مجندون. ولهذا تقول حتى يصل إليهم . ذهب ماذا يا أولاد الأبالسة ؟ ولذلك ، كلما رأيت قلت ، فيتمنون قطعه لك .. لتسكت ، وربما يتهورون ويقطعون الثانى بالمرة حتى تتشوه وتتحول إلى مسخ ، فتنزوى تتآكل والجميلات حولك .. ولا تقربهن . هذا الاحتمال الوارد.. أرعبك ، فتحادث عدداً من الأصدقاء ، وتحذرهم من احتمال اختفائك أو بتره لك . تطالبهم بالسؤال عنك وإبلاغ منظمه العفو

وجمعية الرفق بالحيوان وكتابة عرائظ الاحتجاج وبيانات الشجب مثلما فعلتم ليلة القبض على الشاعر . مع أنهم أقوياء يستهينون بكم ، يلوحون لكم بالبنادق ، وقد منعوا مسيرتكم بالقوة وحبسوكم داخل حديقة الأتيليه لأنكم حاولتم التعبير عن غضب من بعد الخنجر الهمجي الذي انغرز في رقبة رمزكم . وأنت تذكر ما حدث لشاعر آخر ، تأسد وهجاهم بقصيدة رائعة ، فترصدوه وهو سكران يترنح ، عملوا له غسيل معدة وسكر في الطريق العام وحيازة آلة حادة وسب السلطات ومقاومتها ، حكم عليه القاضي بالحبس وبأقصى العقوبة وضميره مرتاح لأن الخمور محرمة شرعاً وهو رجل مؤمن ويصلي ويعرف ربنا ، مع أن الشاعر أخذ يصرخ في القاعة : يا حضرة القاضي .. لقد شربت في البار والبارات مرخصة والحكومة تأخذ ضرائب على الخمور ونوادي القمار .. ولو كنت عادلا .. حاكم الحكومة قبل محاكمتي . وفي السجن ، ضربوه ووضعوا له مصيبة في الماء ، شربه « وضرب » وخرج بعد الحبس ، نصف شاعر ونصف مجنون ويجلس الآن في زهرة البستان ، يقول شعرا عجيبا ، يتغزل في النصف الخلفي للمرأة .. فأراح ، ترك لهم جسد الوطن وانشغل بجسد المرأة . وأنت مرعوب هذه الأيام من احتمال قطعه لك . وحين سألوك عن سبب هلعك ، تحاشيت الحديث عن شيئك المعرض للبتر .. وإنما حدثتهم عن همك الرئيسي .. عن شادي الصافي ..

– شادي من ؟

– القلم النبيل .

– كل النبلاء مصيرهم الموت هذه الأيام.

– أنا السبب .

– يا عمي .. اشتر رأسك.

– صدقني .. رحلوه بسببي.

– يا جدع بطل هلاوس .. فلقتنا ..

كلهم أجمعوا على توهمك ، لأن شادي الصافي مجرد صحفي محترف متعود على هذه الممارسات الهمجية ومستعد لها ، ومنذ أن دمر الهمج بيروته الجميل زهرة مدن العرب ، وهو دائم الترحال . ما يكاد ينصب خيمته ويدق أوتادها في

مدينة همجية ويغازل شعبها النائم متوسداً النص ومطمئنا على آخرته مادامو يستهلون يومهم .. بنويت أصلى الصبح ويختمونه بنويت أصلى العشاء ، وبين العبادات يتجادلون فى هذا قاله الرسول ، وهذا قاله العباس ، وهذا من صحيح البخارى ، وهذا مدسوس ، تاركين أمر عقيدهم أو زعيمهم لله ، لأنه أمرهم بإطاعته وإطاعه رسوله وأولى الأمر منهم . ما يكاد شادى يغازل هذا النوع المتحفى من البشر ، حتى ينتبهون له ، ويقذفون به خارج الحدود زاعمين أنه بعد تخريبه لبيروت الآمنة ، جاء يخرب مدنهم الآمنة . وقد يطلقون عليه الرصاص أو يحرقون دار النشر أو سيارته ، ومره حبسوه بتهمة الزندقة وكادوا يسلمونه للسياف الذى يقطع الأيدى والرقاب يوم الجمعة بعد الصلاة ، فى ساحة المدينة أمام الناس الذين يشاهدون الأيدى وهى تبتر ، والرقاب وهى تطير ، والدم وهو يسيل ، ثم يعودون إلى خيامهم وبيوتهم ، يجلسون متربعين أمام أطباق الفتة «وهبر» اللحوم .. ثم يلعقون أصابعهم ، ويقولون : بارك الله فى الخمسة واللهم ديمها نعمة يا رب .. وهذا النوع من البشر ، معرض للانقراض والخروج من التاريخ . ويفلت شادى سالما وهو يتحسس رقبته بعد تدخل أعلى المستويات ، لكنه لا يتوب .. يدخل مدنا أخرى ، يشاغب ، يتعرض لعشرات المآزق . شادى حكى لك هذا كله ونصحك بالالتفاف حول النص ومناوشة مفسريه من بعيد ، بعد تجربته الأليمة فى مدن الهمج . التقيت بشادى وأنت مأزوم ، يحاصرك الأشباح والهمج . وكان قادما لتوه من آخر مدينة طاردة .. نصب خيمته وثبت أوتادها بقوة كآخر محطة، زاعما أن مدينتك هى أفضل وأجمل مدن العرب . اكتشفك ، شجعك ، فتح لك أبواب مجلته بلا تحفظات ووقفتما معا فى وجه الريح ، خضتما الأنواء ، نشر لك نصوصا ساخنة ، تحرك وتنبش الرؤوس ، وكدتما أكثر من مرة تتعرضان للمساءلة . لكنه حين قرأ روايتك ، رأى استحالة نشرها هنا ، لأنها دخلت المنطقة الحرام ، منطقة العسكر ، وتولى أمرها . أرسلها بالبريد المسجل والسريع فضلت طريقها . تعجب وأرسلها مع مسافر ، وضعها بنفسه فى حقيبة ملابسه وأوصله للمطار وانتظر حتى إقلاع الطائرة .. لكن المسافر أبرق له بعد أسبوع بفقد الحقيبة ، المطار الذى هنا أكد شحنها مع الراكب ، المطار الذى هناك أكد عدم وصولها مع الراكب .. لم يبق غير تفسير واحد ، سقوطها من الطائرة فى السماء .. كيف ؟ طيب ماذا حدث ؟! عندئذ ، تأكد شادى من حكاية شبحك

الأسطورى. وفى لحظة جنون ونزق ، قرر القيام بمغامرته الكبرى ونشرها هنا ، خلع أوتاد خيمته ، جهزها ، سرب صورة من الرواية مع أوراقه المهمة مع صديق حميم إليه ثم بدأ يجمع الرواية ، يذهب بنفسه لمكتب الجمع التصويرى ، يتسلم الأصول والزنكات ، وقبل دفعه بالحلقة الأولى إلى المطبعة اختفى ، رغم كافة الاحتياطات .. اختفى ، يا لشادى المسكين . كان يتباهى بمدينتك .. فماذا يقول الآن ؟ ولقد أبرقت ، كاتبت ، هاتفت ولم تتلق إجابة شافية . والسؤال الذى حيرك: هل خرج من هنا فعلا ؟! وكل اتصالاتك فى العثور عليه مرمياً فى قبو أو محتجزاً فى معتقل .. فشلت . ولم يبق عندك سوى احتمال واحد .. أنهم باعوه إحدى المدن الهمجية التى تطالب برأسه . أنت وروايتك المشؤمة والشبح . الآن عرفت حجم مطاردك وقوته . لقد بسط نفوذه على دور النشر ، صناديق البريد ، حقائب المسافرين ، مصائر البشر ، وراءك وراءك حتى لو دخلت .. أمك ، إما أن تخضع وتضع « بلغة » فى فمك وتسكت وتنسى الرواية والكتابة وتتجه لعمل آخر، أو تحتمى بالشبح الحقيقى .. صاحب الرقم السرى وتقول له شبيك لبيك ، لينقذك من الشبح الوهمى ، ويبقى أمامك سؤال : أيهما أكبر وأقوى نفوذا من هذا وذاك؟ أيا كانت النتيجة ستكون فى مأمن . لكن ما الثمن ؟ ستنجو مؤقتا ويهلك العشرات من كتيبة الدفاع فتسقط أهم قلاع المقاومة ، وتدخل التاريخ من أقذر أبوابه .. لكنك لن تفعل ، وستظل وحدك فى وجه الريح رغم حيرتك من أمر هذا الشبح المجنون الذى يطاردك من أجل رواية تدور أحداثها فى زمن مضى عندما كنت عريفا فى حرس الحدود ، وتسجل مشاهداتك عند هضبة السلوم التى ضاع فوقها مستقبلك العسكرى حين دسوا عليك غلاما ، والشاهد البدوى الهمجى قال لوكيل النيابة بعد حلف اليمين : « الوليد هادا كان ماشى مغرب * يدور على رزقة ، والشاويش هادا مسكه بحدا السلك وأخده للخيمة ، وأنا كنت ماشى ورا غنماتى ، لما رأيت اللى صار مشيت للشاويش وقلت له: يرحم والديك يا خوى الوليد هادا يتيم خليه ، وإن كان تريد تفتوفة * هاك ، لكنه حط البارودة فى وجهى وقال لى امشى يا شيبانى * يا جربوع .. ونحنا نخاف الحكومة .. مشيت قعدت بعيد أشوف إيش يصير ، حق الله سمعت الوليد يصرخ كنّك يا شاويش .. هادا حرام ..

---

* مغرب : غرباً . * التفتوفة : الرشوة . * الشيبانى : الكهل .

هادا عيب .. وأهه الوليد عندك .. اسأله ، إيش اللى صار معاه ، لأنى سمعت ، لكن ما رأيت » . الهمجى ، حلف كذبا على النص الذى ارتكزوا عليه فى فتح الأمصار . لكن ما علاقة شبحك بوقائع الهضبة ؟ من كان فى تلك الفترة ؟ تستبعد الجنود والصف ضباط والبدو ، فليس بينهم من يصل لمنصب رفيع . لم يبق سوى ضباط تلك الحقبة ، النقيب مجدى قائد السرية ، والملازم حتيتة الزوام مسؤول أمن الصحراء وآخرين ، وهذا اللغز المحير لن يحله سوى بطل روايتك وأسطورة الهضبة المساعد أول قناوى الشريف ، فأين هو الآن ؟ حتى قناوى بنقائه وتدينه حاولوا تلويثه بادعاءات مبروكة البدوية . لكنك فى رحلتك الطويلة ومعاركك نسيت بطل روايتك كتبت عنه ونسيته ، خلدته ، نفضت عنه التراب ، أعدته لذاكرة التاريخ رغم اختلافك العقائدى معه ، وتحفظك على أسلوبه البدائى فى تأديب فقراء الهضبة الذين كانوا يمتهنون التهريب اضطرارا ، وكان يؤدى واجبه التزاما . فلماذا لا تبحث عنه تستعيدا الأسماء والوقائع معا . أنت فى حاجة لشاهد يساندك بعد أن دفعت بالرواية لمطبعة خاصة وعلى نفقتك ، قد يلجأ الشبح لنصوص القانون ، وقد يستن قانونا خاصا من أجلك ويحاكمك بتهمة إفشاء الأسرار العسكرية ، فيخرج لهم قناوى من جوف التاريخ ويصرخ أمام المدعى العام العسكرى : أنا المساعد أول قناوى من قوة السرية السابعة سيارات حدود ، وكنت شاهدا ومشاركاً فى أحداث تلك الفترة . والكلام الذى كتبه الأخ بلال عثمان كله حقائق وأحلف بالله العظيم أنه قال الحق. شبحان يلتقيان بعد ما يزيد عن ربع قرن . وأنت الآن فى سباق مع الزمن بعد مراجعه البروفة الأولى . قناوى الشريف ، الذى من أشراف قبائل قنا .. فى أى قرية أو نجع يسكن ؟ تتحرى عنه .. من سجلات سلاح الحدود تبدأ رحلتك ، ثم تسأل بقايا دفعته ، وتجوب تجمعات عساكر الحدود فى المطرية وعين شمس الغربية والشرقية والجبل الأصفر المحطة والمنشية : « ياه .. قناوى الترباس . أبو كرباج ، اللى كان عامل فيها نبى ، اللى نشفها . اللى كان بيحرم الحلال . مش الحمار اللى سلم عشرة آلاف جنيه . جته داهيه راجل مفوت . واللى ... واللى . يا راجل .. افتكر حاجة كويسة . تلاقيه قاعد هناك بياكل بتاو وبصل .. وكل دفعته ربنا فتحها عليهم ، اللى بنى بيت ، اللى اشترى أرض ، اللى اترقى ظابط.. قعد يزن لما أدوله بالجزمة ، هو من قنا المدينة» .

(٢)

وأنت تهيئ نفسك للسفر العاجل إلى موطن بطل روايتك ، باغتك رنين هاتف ما قبل الفجر ، نفس التوقيت الشائك ونفس الصوت المستفز .

– آلو .. من ؟

– صباح الخير يا أستاذ بلال .

– أنت ؟

– نهارك لبن .

– أتعشم ذلك .

– أسمعت آخر خبر ؟

– لا تقل أعدموا شادى ؟

– انتهينا من شادى .. إنساه .

– إذن .. أقالوا وزارة الغلاء !

– وهذا بعيد عن شنبك .

– انقلاب عسكرى ؟!!

– لا تحلم بالمستحيل .

– وجدتها .. زلزال فى تل أبيب ؟

– الزلزال عندك .

– مطبعتك تحترق .

– مطبعتى ..

– التى تطبع روايتك .

– من أنت ؟

– راجع نفسك قبل أن ..

– أتهددنى !

- لا مصلحة لى ..

- من تكون إذن ؟

- ستعرفنى يوما .

- وما المانع الآن .. ؟

- انتظر .. ألو .. ألو ..

تقذف بالسماعة . تتجرع سما على الريق .. تركض فى شوارع خالية كالمجنون .. فتجدها متفحمة وصاحبها يصرخ والناس يصبرونه : « قضا أخف من قضا .. أنت عارف كان هيحصل إيه .. الحمد لله إنك سليم والفلوس بتروح وتيجى » . وهو يلطم كالحريم : « قضا إيه يا ناس شقا عمرى كله راح .. لكن ازاى ؟ قولوا ازاى ؟ فاصل مفتاح النور بإيدى . ما بشربش سجاير ولا جوزة . وما عنديش أى حاجة ممكن تولع لوحديها .. بس أعرف .. ازاى ؟ فهمونى .. النار جات منين حتى التفحم؟! فأى شيطان أحدث هذا الهول ؟! » . وأنت تشك ولن تصرح .. فالدليل ينقصك فتنصرف غاضبا . وقد تنفجر من الغيظ .. وهذا ثانى ضحاياك .. لكن منطقيا ... مستحيل اتهام الأشباح . وهذه المكالمات الهاتفية ! أهى أيضا أوهام ؟ وهل وصلت فعلا إلى أبوب الجنون ؟! وكل من تخبره .. يؤكد توهمك .. حالة فوبيا : «رواية إيه يا جدع ! وأنت إيه أنت؟ ولا مين أنت ؟ مغرور قوى وواخد فى نفسك مقلب .. ليه يعنى .. هتعملى فيها ماركيز» . وهم على حق .. فالإبداعات تزحم الأرصفة والمكتبات ، وحرائق القاهرة لا تلاحقها سيارات الإطفاء ، وقد يكون صاحب المطبعة انتهازيا يسعى وراء بوليصة تأمين . هكذا يبسطون يفسرون . ويقولون لك ساخرين : ابحث عن طبيب نفسى ، أو جرب مطبعة أخرى . وقد فعلت بنصيحتهم الأخيرة وأنت مشفق على صاحبها ، لكنك أوصيته بالتحرز من المداهمات وأولاد الحرام والحرائق ، لأنها رواية مشؤمة مثل لعنة أجدادنا ..

- ما الحكاية يا أستاذ ؟

- لا شيء ..

- كلامك لا يريح ..

- لا تقلق يا عمى ..

- الأرزاق على الله . خذ روايتك ودعنى لحالى .

تتراجع ، تخترع له سبباً وهمياً ، تقول له عن كتاب السيناريو الذين يسرقون النصوص قبل طبعها حتى يكون لهم الأسبقية القانونية فى حالة الاكتشاف . هكذا تخلصت من المأزق وضميرك يؤنبك . ولو قلت له عن الشبح ويده الطويلة الباطشة لاعتبرك من المجانين . شادى حاول التأكد بالتجربة فدفع الثمن ، رغم أنه صدقك بعد ضياع الحقيبة . وأنت الآن تحاول الوصول ليقين عن طريق هذا التعس ، ثم سافرت باحثاً عن بطلك ، لو عثرت عليه حيا تكون الضربة . فكيف نسيته مع أنك خلدته مثل عنترة العبسى والهلالى وأدهم وشيخ العرب همام ؟ وكأنك تخلد به الآخر الذى مات بالقلب وتصلب الشرايين بعد عودته من المطار فى ذلك اليوم الحافل بالحوار العنيف مع الرؤساء الـ .. ... ، ذلك اليوم الأسود هل تذكره ؟ يوم الحزن القاتل ، يوم القيامة ، الرجال يبكون ، الأطفال يصرخون، النساء يلطمن ويندبن . وأنت وقفت حائرا مندهشا ممزقا فى البداية ، عودتك من سيناء ماشياً منكسراً كانت ما تزال ماثلة وضاغطة ، ثم انهرت ، بكيت ، زحفت مع الزاحفين ، سبقتهم إلى منشية البكرى ، قضيت الليل كله تبكى عندما تسمع نساء كوبرى القبة وحدائق القبة يقفن فى الشرفات والنوافذ يصرخن . مات فخلدت قناوى مكانه . كلاهما قاوم بطريقته . رموز لوطن تحلم به وليس للوطن الملاكى أو العزبة ، والذى ترفضه كلما اشتد عليك ضغط الشبح وكلما رأيت تلك السيارات المسلحة فى ميدان سليمان ، وكلما رأيت زحام ذى اللحى والجلاليب البيضاء فى مسجد الدقى ، والخطيب يشحنهم ويكفر الجميع، ويخطئ الجميع ويقول بصوته المنغم : اللهم خرّب ديارهم .. آمين . اللهم شتت أولادهم ... آمين. وهذا الرجل المجنون لا يقصد بكلامه همج الحدود ، وإنما يعنى كل الذين هنا ... وأولهم أنت. وكنت تتمنى لو تتفرغ لمثل هذا المجنون الذى يسعى لخرابها ويحلم بحفر الرجم وساحات قطع الأيدى والرقاب بالسيف ، ولكن الشبح يشتت جهودك ، يفتح أمامك معركة جانبية ، وها هو مخبره الغبى يقف خلفك فى طابور حجز تذاكر قطار الصعيد ، عرفته من ملابسه وتكشيرة وجهه وجنبه الأيمن المتضخم بالمسدس الميرى . ومثل هذا الرجل ، لا يحجز أبداً فى الدرجة

الأولى ، ركبت ووجدته قد سبقك للمقعد الملاصق .. إذن ثمة تعمد ليكون بجوارك وكأنك رهن الاعتقال القطارى . قلت لنفسك : فرصة وجاءتك ، لكن ودين النبى « لأطلع روح أمك يا ابن الدايخة » ، فبدأت تضايقه بالحركات الصبيانية ، تتصنع النوم ، تشخر تميل عليه برأسك ، تسنده على كتفه .. يعدلها لك ، فتميل بقوة وتواصل مضايقته حتى يقوم ويذهب فى ستين داهية ، لكنه مكلف ولن يذهب . وأنت لن تتركها له . ستتحمل هذا الجلف طوال الطريق بطبنجته وإحساسك بوجوده . فتواصل الحركات فيحتج : « يا أستاذ .. فوق بقى .. يا أفندى مش كده .. الله .. ويعدين » . اعتراضه الحاد على حركاتك ، إنذار بهجوم مضاد فتتحرز منه حتى لا يقلبها ميرى . وتسأل نفسك : ما فائدة وجوده هكذا بجوارك إذا كان مكلفاً بمراقبتك ؟ تستيقظ هواجسك ، تحتضن حقيبة سفرك، تتحسس جيوبك حتى لا يدس لك شيئا والمسافة طويلة وأنت صامت وهو يحاول سحبك للحديث ، يتودد إليك بكوب شاى فترفض بالإشارة . طيب سيجارة يا بك .. ترفض أيضا . يطلب جريدتك ، يقرأ ويحاول الاستفسار عن بعض العبارات والمصطلحات السياسية . فتلوى بوزك ، لا ترد . شيطان شقى حرضك على تصنع حركات البكم ومحاورته بالإشارة ، بالأصابع والحواجب واللسان والشفتين ، مبارزة عجيبة فى التمثيل الصامت ، وهو لا يكف عنك ..

- «تعرف يا أستاذ .. الجرايد دى كلها كدب فى كدب وبالذات جرايد الحكومة» .

تختلف معه بالإشارة ، تضم أصابعك ، تهز قبضتك رافعاً إبهامك على طريقة أولاد البلد «يعنى كده .. مية .. مية » .

يستغرب من طريقتك المتقنة فى لغة الإشارة ودفاعك عن الحكومة ويضيف :

- دول خربوها يا أستاذ .

تشير إليه ، وإلى نفسك ، وللركاب .. يعنى الكل مسؤول .

- دا أنت معاهم بقى ؟

ترفع سبابتك إلى السماء . فيغير الحديث إلى اتجاه مختلف ويسأل عن رأى حضرتك فى اتفاقية السلام والتطبيع ، فترفع أصبعيك بعلامة النصر ثم تضم

أصابعك وتطرقع قبلة ، فيسكت لدقائق ثم يقذف بها على المكشوف بسذاجة وغباء : « .. بس إيه يا أستاذ .. أنا ليه تصور تاني في المسائل اللي ماشيه .. العيال بتوع الصعيد دول .. والله العظيم جدعان . . مطلعين روح الحكومة .. » . ولم يكن أمامك سوى الرد الحاسم الصادم .. فتتفل بشدة على الأرض وبطريقة فجة ، وكأنك توجه الرسالة لهذا الغبي ، وللأغبياء الذين وراءه ولعيال الصعيد والهمج الذين يحركونهم ، وللمؤسسات المشبوهة التي تساندهم . ويبدو أن الرزاز تطاير عليه ، مسح وجهه بيده والأرض بحذائه ، نظر إليك بغيظ وأنت تبتسم وتخرج له لسانك فيقول غاضبا : « أنا غلطان وأستاهل .. في حد عاقل يكلم واحد أخرس وأهبل » . تصدمك كلماته ، تفوت ، تداري بسمتك ، لأنك مثلت ودخلت عليه ثم تلوم نفسك كعادتك ، فربما يكون الرجل مجرد مواطن مأزوم يفضفض عن همومه مع راكب عابر، وأن التضخم في جنبه الأيمن ناتج عن مرض أو فتق جراحي وليس من مسدس كما تظن ، وتفكر في الاعتذار ومعاملته بود . لكن راكباً مارا من أولاد الذين .. يفسد حلمك ، يعيدك لمنطقة جحيم الهواجس ، حيا الرجل الجالس بجوارك قائلا : «إزيك يا عوضين .. على فين كده ؟ » . وأنت تتخيل لغة العيون الصامتة المحذرة ، لأن عوضين هذا ، لم يرد .. والرجل مشى في طريقه وكأن ثمة خطأ أو تشابها ، فتنشغل بالجريدة موهما إياه بعدم افتضاح أمره . مجرد صول نمطي من عصر غابر كرموه بالملابس المدنية وكرنيه المباحث لتفانيه وإخلاصه في استدراج المأزومين ، وتفكر جديا في الانتقام وتخطط لتفجيره . وبمجرد اقتراب القطار من محطة سوهاج ، استأذنته لقضاء الحاجة ، سلمته حقيبتك ، أوصيته بالمحافظة عليها خوفا من اللصوص موحيا له باحتوائها على أشياء ثمينة . ولم يكن بداخلها سوى منامة وفوطة وشبشب ومعجون أسنان . وتركت جرائدك ومجلاتك فوق مقعدك . قلت هذا كله بالإشارة ثم نزلت من القطار وانتظرت حتى تحرك فركضت بسرعة حتى حاذيت النافذة ونقرت عليها ، فقام فزعا يحثك على سرعة الركوب وأنت تجري ، تضحك ، والقطار يجري وسبابتاك فوق رأسك تحركهما له كالقرون . وأسرعت بعدها بالخروج من المحطة وركبت أول سيارة بيجو في طريقك إلى قنا . وتتخيل ما حدث بعد ذلك ، حقيبة تركها راكب مع صول أهبل وهرب . ثم تسترد إنسانيتك من دنيا الهمج وتحزن على هذا المسكين الذي أوقعه حظه السيئ في طريقك

وسيظل طول عمره يلعنك ويدعى عليك فى مقام الحسين ، لأنك تسببت فى عزله وإعادته للصفوف والبدلة الميرى والحذاء اللعنة ، وفقد كرنيه المباحث الذى كان يرهب به الناس الغلابة ويتميز به عن خلق الله كواحد من المهمين . وهذه المناوشات والحروب الصغيرة والانتصارات الجزئية قد تريحك نفسيا ، لكنها لن تحسم معركتك مع الشبح . وهؤلاء الصغار التعساء .. ليسوا أعداءك وإنما يؤدون واجبهم مثل قناوى الذى خلدته تماما . وتفكر فى النكوص خوفا من عواقب لعبتك الصبيانية واحتمال تعرضك لمتاعب جسيمة وسخافة فكرة البحث عن صول ترك الخدمة من زمن بعيد ، كبر وشاخ وذاكرته تآكلت . هذا لو كان له وجود ولم يسافر إلى الرحلة التى بلا عودة . ولو عثرت عليه ، لن يفهم معنى أن تكتب عنه رواية ، لأن ثقافته دينية ولا يفهم فى الأدب ، وعرفك جندياً ثم عريفا تجوب معه الجبال وتأكل معه فى الجروانة* ولم يسمع بك كاتبا . وهو شبه أمى حفظ القرآن والأحاديث بصعوبة ويتشبه بعمر بن عبد العزيز وجده ، وكان كلما رآك تمسك كتابا غير القرآن يتعجب من مسلم يقرأ ولا يتجه لكلام الله وينصحك بالعودة قبل الفوات .. وتندم حيث لا ينفع الندم ، فتقول له يا عم قناوى ، قال : اقرأ .. ولم يحدد ماذا نقرأ وتركه لنا مفتوحا ، فلا يقتنع ، وبالتالى لن يفهم معنى فتح ملف تم إغلاقه .. فهذه حربك ومجدك وهوايتك ولا ناقة له فيها ، وربما فقد حماسه القديم وتوهجه وخلع ماضيه مع بدلته العسكرية ، ربما تدروش ، وربما تأجج واشتعل من شدة الإحباط والفقر والتأويلات المحرفة وتحول إلى همجى يقود فرقة مخدوعين يخوض بهم حرب اليأس والدمار والثأر وسكة الخراب. فكرت فى هذا كله وأنت على أبواب محافظة قنا يحيط بالسيارة كمين أمنى فى وضح النهار . والضابط يسألك مرتابا عن موطنك ، وظيفتك ، مقصدك ، أوراقك ، يسألك عن هذا كله وأنت مواطن ، داخل خريطة الوطن . تتأزم ، تتضايق من أسلوبه .. فلا تريحه .. وتقول له ساخرا : وظيفتى الكتابة عن الناس ، مقصدى التعرف على بلادى .. سياحة داخلية . قاهرى المولد والنشأة ، مصرى الهموم ، جنوبى الأب ، شمالى الأم ، وأعبد الكون كله بصرف النظر عن المكتوب بالبطاقة فى خانة الديانة ، عربى اللسان بحكم الضرورة والواقع . فيقاطعك بنفس

---

* الجروانة : تعبير مطلق على أوعية طعام الجنود .

سخريتك المرة وعلى طريقة يونس شلبى : « .. بس .. بس .. إيه دا كله .. آ .. أنا منصور ابنى .. أنا منصور البتاع .. بتقول إيه أنت ولا عاوز إيه أنت ؟ إنجليزى دا يا مرسى ؟ » . يضحك فيضحك معه الواقفون وينظرون إليك وكأنك قادم من كوكب آخر وبنادقهم موجهة نحوك ، وتشم رائحة البارود تهب من مزارع القصب ، واحتمالات الشر واردة ..

– قلت ماذا تعمل سيادتك ؟

– كاتب ؟

– فى أى مخبز ؟!

– يا باشا كاتب .. يعنى أديب .

– الأخ كاتب « كتابه » يا جماعة .

– ها .. ها .. ها « ظريف والله يا مضروب .. كاتب كتابه قال .. » .

– وقلت قادم للفرجة ؟ سائح يعنى ؟

– كلك نظر يا باشا .

– الأخ « سايح » على روحه يا جماعه .

– ها .. ها .. ها .. « وبعدين معاك بقى » .

ولما وجدك تضحك مثلهم ولم تفقد أعصابك كما توقع ، نظر إليك من فوق إلى تحت بازدراء ، فملابسك لا توحى بالثراء وليس معك كاميرا ولا حقيبة ولا تلبس قبعة ونظارة شمس . فحاول تجريحك : « أول مرة فى حياتى أشوف سايح جربان ومقيح .. سياحة إيه دى يا جدع .. بالذمة دا وش سياحة .. واللا فاكرنا بريالة ؟ وما فيش فى قنا غير الجرب والقلل وروس محشية جذم .. وجاى تخمنى يا حته بتاع أنت .. تلاقيك منهم وجاى ناتف دقنك وهربان .. ما هو يا تصارحنى ، يا ألففك كعب داير وأطلع .. أمك .. » .

تنظر إليه بغضب ينذر بهلاكك وهلاكه .. لكنك تمسك أعصابك تفرمل بآخر قوتك ، فالبنادق تحيط بك .. تنفعل .. تموت فطيس .. كلب وراح . فترد عليه بأدب : حذار يا سيدى لأن جذورى جنوبية وأحترم الصعيد وأهله ، فمنهم العميد رفاعة والعقاد وقناوى والزعيم رغم أنفى وأنفك . ذلك الذى أضاء وقاوم ثم مات

قهرا ومرضا .. فيمط شفتيه ، يضرط بفمه مستهينا بك وبكل هؤلاء القمم ، ويسب الحظ الأسود الذى حدفه بين هؤلاء المتخلفين .. تخرس لأن الحكاية سخنت وطيور الموت السوداء تنعق ، فتترك مصيرك بيده وكأنه الواحد القهار .. إن شاء عفا ووضعك مع المبشرين بالجنة ، وإن غضب أخذك تحرى وأوصى عليك الشياطين لوجودك غير المبرر فى هذه البقعة المشتعلة وفى توقيت حرج . وربما لا تفلت من هذه الدائرة الجهنمية أبداً . فتقولها له : يا سيدى لا تغضب هكذا .. إن أبيت .. رجعت ، وإن سمحت واصلت .. فالأمر لك والملك لك . ينتفخ ، يتضخم ويحس كأنه إله فعلا وبيده الأمر ويعفو عنك « .. اتفضل وما تبقاش غلباوى وتتفلسف وتقول: أبى جنوبى وأمى شمالية وهمومى مصرية .. أمال إحنا بنيل إيه هنا ؟ ما علشان همومنا زفتية .. ولا شايفنا بنرقص ديسكو .. روح يا شيخ بلا كتاب بلا هباب » . فتسرع بالرحيل قبل تهوره وتراجعه وطظ فيك وفى كتاب العرائض وفى اتحاد كتابك الذى لا يحرك أو يتحرك ، ونادى قصتك الذى أحيل للمعاش مبكرا ، ومسؤول ثقافتك الذى مع الحكومة ولا يغيث إلا المرضى المشرفين على الهلاك ويرسلهم للخارج لكى يموتوا على حساب الدولة . وحزب التجمع الذى يكرس جهوده للدفاع عن الرفاق القدامى ، ولا يعترف بتقدمى إلا إذا دخل السجن . وفى حزب الزعيم الذى يسعى لانتزاع الحكم . وفى حزب الباشا الذى يصفى حساباته مع الناصريين . وفى حزب العمل الذى يرفع شعار الحل فى الإسلام ، مع أن اليابان استطاعت حلها بدون شعارات . وطظ فى كل حكومات العالم المسمى بالثالث والتى تسلم أوراقها لوزارء الداخلية والدفاع محتمية بهما . تقول هذا كله وتواصل رحلتك العبثية بحثا عن رجل مجهول ، وتشعر بأقدام خلفك لأن الضابط ما زال مشحوناً ضدك ، ويتمنى الإمساك بك متلبسا ولن يجد شيئا .. لأنك جئت باحثا عن قناوى فى مدينة قنا . ومهمتك تثير الشكوك ، تفتح شهية المتابع ، يتخيل وقوعه على صيد ثمين . وأنت لا تعرف للرجل نجعا ولا شارعا ولا وصفا دقيقاً لشكله الآن . فيقودونك لأحد بطون قبيلة الأشراف . رحبوا بك ، قادوك لمندرة كبار الضيوف ، لكن البنادق والهراوات كانت على بعد خطوات منك لأنهم شكوا فى أمرك حين وجدوا من يتابعك فطاردوه وأبعدوه عن دائرة نفوذهم ومملكتهم التى زحفوا عليها واقتنصوها من أهلها أيام الفتوحات . وتسأل نفسك : أشراف على من ؟ لأنك

تشجب التمايز والتفاخر والانتساب لغير هذه الأرض وأهلها . جاءوا هاربين من التصحر والجدب والجوع . أهلا وسهلاً . لكن لماذا يحتفظون بألقابهم ؟ وأنت أحببت قناوى وخلدته فى روايتك .. لا لأنه صعيدى من أشراف قنا ، إنما لدفاعه عن البقرة . مثلما فعل الذى مات بالحسرة وهو يدافع عن البقرة الأم . خلدته رغم اختلافكما الفكرى ، فهكذا هو ، فأحببته على فطرته وبساطته وتدينه ، لأنه لم يرفع سوطه لإرغام الناس على الصلاة وإنما ليكفوا عن حلبها بهمجية ويموت صغارها جوعا .

والرجال يتكاثرون .. « أهلا يا سيد خالك .. مرحبتين يا عرب نورت البلاد .. شاى يا بنت .. قهوة كمان .. جهزوا الغدا يا جماعة .. » ، وأنت توضح لهم أنك تبحث عن الصول قناوى الشريف الذى من قنا والعرق يتصبب .. فالبنادق تثيرك بصرف النظر عن الأيدى التى تمسك بها ، والعصى تذكرك بالمعارك الهمجية فى بولاق وباب الشعرية وسوق الخضار .. وحيث يتجمع ويتكتل أهل الهراوات .. ومهمتك مريبة بين قوم متوترين بحكم الظروف والتكوين وضيق الأفق . هفوة لسان وينتهى أمرك . يسأل أحدهم مداعبا عصاه وشاربه : « وجاى وجايب وراك البوليس ليه يا خال ؟! » لا تجيب . خرست خوفا والعرق ينزلق إلى عينيك ، تحس بملوحته فى فمك « وكمان قهوة .. زيادة ولا مظبوط يا خال ؟ » ، تغمغم .. مراقبا الوجوه ، الأيدى ، الساحة الخارجية : « أى حاجة .. أى حاجة ». وهذا الموقف المعقد ، الملتبس ، المريب ، سيحله ظهور قناوى ، ولن تعرف شيئاً عن مكانه ما لم يتبينوا حقيقتك وسبب بحثك عنه بعد أكثر من ربع قرن . فتبدأ معهم من الأول ، منذ كنت جنديا والعريف قناوى حكمدارك بين مواقع سيناء الشمالية والجنوبية . مرات على بعد خطوات من الخطر وأحيانا فى مناطق موحشة شديدة الجدب والقسوة . ثم سافرتما معا لمساندة السلال ، وبعد المهمة عدتما معا وشحنوكما بسرعة « للتمد » * أيام حرب الخسارة والفجيعة .

ثم تفرقتما والتقيتما معا فوق هضبة السلوم وخضتما معا حرب الأغنام والحمير. وهذا الكلام السردى ، لا بهرهم ولا أفادهم ، فينظرون إليك فى حيرة وكأنهم يتساءلون : وماذا تريد ؟ دائن أم مدين ؟ طالب مساعدة مادية أم هارب

* التمد : منطقة حدودية فى سيناء الجنوبية .

تنشد الحماية ؟ صديق أم عدو ؟ ماذا وراءك يا ترى ؟ أسئلة كهذه بالتأكيد وردت على أذهانهم . فتبين لهم مدى اشتياقك إليه ، ووجدت لديك وقتا بعد طول نسيان وانشغال للسؤال عنه ، ولابد من تبرير منطقى لسبب حبك الكبير ، فتحكى لهم عن مواقفه دون ترتيب ، الذى يأتى فى بالك تحكيه لهم : أثناء حرب اليمن ، كنا ضمن قوة عظيمة لفتح طريق وادى على الذى قطعه المتمردون على قواتنا . طابور طويل من الدبابات والمدرعات وسيارات الظل ومدافع الهون والـ آر. بى. جى . طابور كالذى يمر أمام منصات العرض ، أوله عند قبائل عبس .. أهل عنترة .. وآخره عند تهامة . وكان اليمنيون المارون بالطريق يفرون مذعورين عندما يشاهدون هذا الهول المتحرك . حتى الأطفال وقفوا بعيداً ولم يعودوا يركضون خلف سياراتنا كالعادة صائحين : بسكوت يا مصرى أعطنى علبة حوت * . أعطنى بقشة أو هللة . وكنا نحبهم فنقذف لهم بعلب البسكويت وعلب السردين و « البقشات والهللات » * . وهذا الطابور المخيف ، أرعبهم وأبعدهم . وظن القائد أن الذين قطعوا الطريق ويكمنون فوق الجبال مثل من شاهدناهم على طول الطريق ، وقال عنهم مستهينا : «دول شوية بتاع» ، ولذلك لم يطلب معاونة جوية للتمهيد قبل الهجوم . وعند مدخل الوادى ، نصبنا الهاونات ووجهنا مدافع الدبابات وال. م. ط. وهات يا ضرب ثلاث ساعات من التمهيد المدفعى المكثف حتى تداعت الصخور ، ارتجت الجبال ، اشتعلت الرمال ، فرت الكائنات مذعورة تطلب الملاذ ولا ملاذ . وخلال هذا العرس النيرانى لم نسمع طلقة واحدة من الجانب الآخر ، فتأكدنا بأنهم فعلا«شوية بتاع» ، ودخلنا ببطء وحذر إلى الوادى ؛ الدبابة كاسحة الألغام فى المقدمة وأمامها أفراد سلاح المهندسين بالمجسات اليدوية ، باقى الدبابات وراءها . والوادى طويل ضيق والصمت مريب . ساعة كاملة نسير ، بنادقنا ورشاشاتنا ومدافع الرباعى كلها موجهة لقمم الجبال فى وضع استعراضى جميل ، والقائد مثل عظماء التاريخ يمسح الجبال بنظارة الميدان وأكمام قميصه مشمّرة . ولا عدو ولا يحزنون ، فبدأنا ننكت ونغنى: الله أكبر فوق كيد المعتدى ، ونلتقط أنفاسنا ، ثم «هوب» سمعنا انفجارين هائلين ورأينا دخانا وغبارا وصراخا وأجسادا تطير فى الهواء .كاسحة الألغام نفسها – للعجب –

---

* الحوت : الأسماك المعلبة . * البقشة والهللة : عملات يمنية صغيرة .

انفجر فى جنزيرها لغم حديث فتعطلت . حاولت دبابة أخرى تفاديها ، فواجهت نفس المصير وانسد طريق التقدم . والجبال التى كانت صامتة والصخور التى ذابت كلها تحولت إلى شياطين ، مئات البنادق ومدافع البازوكة أمطرتنا بوابل من الهول . هم فوق مختبئون ونحن تحت مكشوفون . وحدثت فوضى وتقهقر ارتجالى ، كله مارش دير للخلف فى وضع مأساوى محزن ، السيارات تصطدم ببعضها ، وأطقم الدبابات يفرون من فتحات الطوارئ السفلية . هذا يوم يصعب نسيانه . ووجدت نفسى عاجزا ، مجروحا ومرميا .. أصرخ ولا منجد .. فجهزت البندقية لأضرب بها نفسى لو باغتنى الهمج حتى لا يمزقونى بالخناجر كعاداتهم أو يأخذونى أسيرا ويربطونى بالسلاسل كالقرد ، وتأتى القبائل تتفرج ويملأونى بصاقا وسبابا ، لكن قناوى سمعنى أنادى فطمأننى.. وكان صامدا فى مدخل الوادى يستر المنسحبين ، ووجدته يجرى نحوى وسط احتمالات موت مؤكد ، ويلتقطنى بسرعة ويخرج بى من الوادى ، فأعطوه شريطا وصار بعده الرقيب قناوى .

- الله .. الله .. يا فارس .

- يا شريف .

- يا جبل.

- يا سيد الرجال .

- ربنا يشفيك يا بطل.

فيأخذك الحماس ، وتروى المزيد وكأنك حكاء سير ، تحكى .. والأشراف يتقاطرون من القرى والنجوع وشوارع المدينة ويتزاحمون حولك ، وبت فى حاجة لمكبر صوت حتى تصل حكاياتك للأطراف ، وما تزال فى اليمن : كنا نعسكر فى منطقة اسمها زهر أبو طير قبل سوق الأمان تتبع محافظة حجة . وأمامنا أكبر جبال اليمن علواً تسكنها واحدة من أشرس القبائل ، رفض شيخها الانضمام إلينا وظل مفسدا . وحولنا قبائل اختارت السلام خوفا من قنابل الطائرات ودانات المدفع الساحلى الرهيب . فأخذت ريالات الورق وسكتت . ونشأت بيننا وبين الرعاة والمزارعين علاقات ود ، يجوعون فيأتون إلينا طالبين

«الحوت» والمكرونة والبسكويت ، نحتاج للدجاج والبيض فنذهب إليهم . وقناوى كان شيخ عرب بصحيح يحل كافة المشاكل الناجمة عن اختلاف العادات ، فيقصدونه شاكين من العساكر الذين يستحمون واقفين فى مجرى الماء وعوراتهم مكشوفة ويخشدون بذلك حياء الفلاحات اللاتى يزرعن فى المدرجات الجبلية ، أو من الذين يتبولون «سناب»* واقفين وهذا عندهم حرام . وكان يذهب إليهم وأحيانا أرافقه فيجلس متربعا ويحكى لهم عن قبائل الصعيد . ولسمرته ونحافته مثلهم اعتبروه من قبائل يمنية هاجرت فى زمن الفتوحات فأطلقوا عليه قناوى الجعفرى، لأن قبائل عندنا وعندهم تحمل هذا الاسم. وكان يجمع أطفالهم ويعلمهم الدين رغم اختلاف المذاهب ، فهم زيود وشوافع وقناوى مالكى. وأحبوه لأنه رجل وكلمته واحدة ولا يرفع عينيه فى نسائهم ذوات الأثداء المكشوفة من الأجناب لأنها ليست عورة عندهم ومن «حق الطفل» ، وتمادى فى علاقته بهم فأكل معهم اللحوح والبسباس»* ، وجرّب القات وصار كأنه منهم . وأكثر من مرة دعى شيوخهم وأولم لهم بمباركة من القائد . لكن طائرات الإليوشن القاذفة أخطأت مرتين وألقت حمولتها عليهم ، فى الأولى جاءت سليمة ، وفى الثانية مات ابن أحد الشيوخ المهمين فحرض القبائل وأفسدت * كلها بين يوم وليلة . وانضموا للقبيلة الأخرى وزحفوا علينا جميعا وحاصرونا من كل الاتجاهات . هذه ليلة القيامة العظمى . نحن والموت ولا ثالث . فى ومضة من الزمن ، قد نشتبك فى معركة همجية تكون الإبادة مصير المهاجم قبل المدافع لتفوق أسلحتنا من مدافع قاذفات اللهب ، دانات هاون مضيئة تكشفهم لنا ، وقد نصمد حتى طلوع النهار فتأتى طائرات الميج لتلعب أكروبات فى السماء والأليوشن حاملة الدمار . وهم بكثرتهم واندفاعاتهم الهمجية المجنونة وكأنهم فى صدر الإسلام يواجهون قوما من المجوس ، كاد هذا يقع لولا حكمة قناوى ، فهو بالنسبة لهم الشريف ، الجعفرى، العربى ، اليمنى الأصل كما يظنون . وكانوا قد تسللوا خفية متسترين بالظلام والأحراش والوديان ووصلوا لأقرب نقطة ، فقد سمعنا صوتا من فوق ربوة عالية ينادى علينا ويحاول لفت أنظارنا إليه للتمويه والخداع .. لأن الزحف الرئيسى كان قادما من خلفنا بطريقة تصعب علينا الدفاع ، وتتيح لهم الاندفاع

* سناب : وقوفا .   * اللحوح والبسباس : خبز أسود بالشطة .   * الإفساد : التمرد .

السريع والتلاحم اليدوى . وأخذ الصوت يشق السكون : «سلموا يا مصاريا .. سلموا الحين.. يا كفار يا فراعين ..» ، والقائد أدرك الخدعة فلم يصدر أوامر الضرب وترك الفرصة كاملة للبديل ، وقناوى بدأ مهمته بمحاورة الصوت :

– يا إخوان.. عيب عليكم .. نحن فى وجوهكم .

– لك الأمان يا قناوى يا جعفرى ..

– الأمان لى ولإخوانى .

– أنت فى وجوهنا* .. نحن نشتهى* المصاريا .

وظل هذا الحوار العجيب يدور فى صمت ليل شديد السواد ، شديد الوطأة ، والقائد أراد تعضيد مفاوضات قناوى ، فوجه دانات الهاون المضيئة للخلف ، للجبل المخيف المنحدر ناحيتنا ، بحيث لو ركضوا ، سيكونون بيننا فى لحظات . كانت رسالة القائد واضحة : انكشفتم .. وأنتم الآن تحت السيطرة . ولو أصدر الأمر فورا ، لتحول الجبل بمن عليه إلى رماد . وبالتأكيد كان سيفعلها لو نفدت الدانات المضيئة .. لكنه تماسك وفتح جهاز اللاسلكى بينه وبين قناوى وقيادة المنطقة التى شجعت الحوار طلبا للسلام وكسباً للوقت حتى يطلع النهار وتتولى الطائرات المهمة . والحوار ما زال والتوتر يكوى الأعصاب والليل يتوغل .. يتوغل. ونحن ننتظر ، أيدينا على الزناد والقلوب. أن تموت هكذا ، بعيدا عن وطنك ، أرضك ، أهلك .. مهزلة . وقناوى طلب محادثة شيخ يعرفه ، تحاورا بصوت عال واتفقا على لقاء فى الفجر . واستمر يتنقل بيننا وبينهم ، مساوماً ، مفاوضاً ، مقرباً لوجهات النظر ، والطائرات جاءت تحوم ، تستعرض ولا تقصف، وفى المرة الأخيرة جاء ومعه الشيوخ ، فأولموا لهم وتصالحوا على المزيد من الريالات الورقية ودية لابن الشيخ . ووضعنا المشمع فوق المدفع الساحلى الذى كان يقلقهم واكتفت الطائرات بالزيارات الودية . والقائد ترقى ، وقناوى حصل على شهادة تقدير موقعة من قائد القوات المصرية شخصيا وحصل على شريط آخر وصار بعده ، الرقيب أول قناوى ، وأنت ما تزال متربعا فوق دكة ، بجوارك أعيان أشراف قنا والزحام يزداد ولا أحد يتثاءب ، يطالبك بالكف . وإنما

---

* فى وجوهنا : فى حمايتنا . * نشتهى : نريد .

ترى إنصاتا وإعجابا ونشاطا احتفائيا بالشاى والسجائر . ورأيت خروفا يذبح ومائدة أرضية تجهز وملامح الوجوه تبدلت من الريبة إلى الثقة .. وأقصى حدود الترحيب ، فوصلت بهم إلى سيناء «والتمد» وعام سبعة وستين : منذ انتقالنا للخط الأمامى ونحن ننتظر . من الجبال إلى الجبال والرقيب أول قناوى حكمدار موقعنا المتقدم كنقطة إنذار ، وقليل من مهام القتال ، ونشاهد ، نراقب ، نرصد ، نحرس، وإن أمكن نعطل القوات المعادية المتقدمة ، نعرقل سرعتها ، ومعنا مرشد بدوى يتسلل للداخل ، يأتينا بأخبار التحركات فنرسلها بالشفرة وننتظر ، نترقبهم ، نتخيلهم، نشتبك معهم حتى الفناء لكن أحلام قناوى كانت أبعد من حدود الموقع، هيأ نفسه للزحف شرقا لعمق مدنهم ، لا لكى يفوز بالسبايا من نساء تل أبيب مثلما حلم الأغبياء أو تلبية لهاجس دينى ، إنما طلبا للثأر مما وقع له عام ستة وخمسين وأرغم أيامها على الخلف در سيرا ، ويتمنى منازلتهم وجها لوجه رجلا لرجل . ولبثنا صابرين بجوارنا المذياع ، خلفنا قوات الأمل . وقناوى شاخص للإمام رابض خلف الرشاش الجرينوف ، يأكل ، يشرب ، يحلم بجواره ، يجز بأسنانه ، يتآكل ، يتحسر ، يكاد ينفلت ، يعدو للأمام طالبا النصر أو الشهادة .
ولمّا بانت العلامات القاتلة مساء خمسة يونيو .. قناوى جن ، أخذ يطلق الرصاص على عدو وهمى لا نراه ولا يرانا ، يغير الشرائط ، يضرب والمذيع يصرخ ... أبشروا يا عرب .. أسقطنا وأسقطنا . وهو يصدقه ويضرب . وبدأنا نشك ونغير مؤشر الراديو للاتجاه الآخر ، وسمعناهم فى صباح ستة يونيو يقولون إنهم وصلوا لحافة القنال وسيطروا على معابر بور توفيق والجناين ونمرة ستة والقنطرة شرق وهو لا يصدق ، ثار علينا «وكسّر الراديو بالجزمة» . مسحنا المنطقة كلها بنظارة الميدان ، فرأينا إحدى سياراتنا تسرع غربا والولد المرشد اختفى ، ومر علينا شارد من جنودنا ، صاح فينا «يا للا يا جماعة .. خلصت» .
وعسكرى اللاسلكى التقط ما يفيد هذا المعنى .. فجرجرناه بالقوة مع أنه الحكمدار الذى يعطى الأوامر، وسرنا .. وسرنا .. ورأينا آثار المصيبة على الطريق وقناوى ينزف داخليا ، لا يصدق عودته منكسرا بنفس طريقة عام ستة وخمسين .. وينظر بشك للسماء ، مراجعا ذاكرته عن الآيات التى حفظها والنصر الذى للمؤمنين ويشتم المذيع .. يسميه أبو لمعة ، ويشتم بلدياته الذى من المنيا ويسميه بتاع برلنتى ، وهدأ قليلا بعد يومين وقادنا بنجاح عبر صحراء لا ترحم ، ويدو

يقايضون الماء بالسلاح . وهزيمة ثقيلة تهد الجبال ، حتى وصل بنا إلى منطقة الشط وكدنا نعبر بسلام سباحة عندما باغتتنا دورية كبيرة ترافقها سيارة تليفزيون للتصوير ، رموا إلينا بزمازم الماء وعلب البسكويت ، أرغمونا على خلع الفانلات والتلويح بها علامة للاستلام والسلام ، وأخذوا يصوروننا ونحن على هذا الوضع المؤسف لكن قناوى لا أكل ولا شرب ولا خلع فانلته ، كان واقفا مثل مسلة لا تؤثر فيها عوامل الزمن .. قال لهم بشموخ: اسمى الرقيب أول قناوى الشريف ورقمى العسكرى كذا ولم يضف . زغدوه بالدباشك ، شتموه بالعربى والعبرى والإنجليزى ، صوبوا نحوه الرشاش ، فلم يضعف وأدار ظهره لكاميرات التصوير، ولو كان معه الجرينوف لأهلكهم وأهلكنا. حتى أسلحتنا الشخصية كنا قد خبأناها تحت الرمال ونحن نستعد للعبور . وكنت أنظر إليه مشفقا من تعريض نفسه لموت مجانى ، لكنه قناوى يموت ولا ينكسر . فأخذوه معهم وتركونا نعبر . وكنا على يقين بأنهم سيقتلونه . وبعد ذلك علمنا أنهم أعادوه «للقسيمة» وتركوه هناك حتى يقطع المسافة سيرا ويهلك تعبا لكنه عاد . ووجد حقيبة نقود وسلمها ، فرقوه وصار بعدها الصول قناوى وصمم على البقاء غربى القنال لكى يثأر .

حكيت لهم كذلك عن صموده الفريد فوق هضبة السلوم . صمود لا يقدر عليه سوى الأنبياء وأصحاب الرسالات النبيلة فى زمن ندر فيه النبل واختتمت النبوة ، أول رجل فى بر مصر يدير ظهره لفلوس سهلة تتساقط كالمطر ، حكيت لهم كيف قاوم وقاوموه . أنت تحكى والرجال حولك مندهشون ، مذهولون وأحدهم يرتفع صوته ملتاعا : «وفى الآخر طلّعوه حرامى أولاد الحرام».

وأنت تعلم كيف تم هذا ؟ وكيف حاولوا تحطيمه بالأساليب الهمجية ودسوا عليه البنت مبروكة . كما نالوا منك بتلفيقة الغلام ورموك فى نقطة «الملفا» التى أنشؤوها خصيصا لك لكى تتآكل وتفنى ، ما رأيت فى حياتك العسكرية منطقة فى ربوع مصر بهذه القسوة والوحشة – بين سيوة وواحة جغبوب – ، أمامك بحيرة هائلة من الماء شديد الملوحة وأحراش تمرح فيها الثعابين السامة وكل أنواع الهاموش والناموس والذباب المتوحش . لا نوم ليلا ولا نهارا ، وكشك من الصاج يحيل النهار إلى سعير ، والذبابة تندفع نحوك بحجمها الغريب .. تعض ،

تدمى، تموت فى يدك ولا تركك . وأسراب الناموس تشوه ساعات الليل ، لا ينفع معها هش ولا نش ولا مبيدات ولا دخان . والضباع تحوم حول الكشك ، تتحين فرصة للانقضاض . والحمر الوحشية تعطش ، تأتى لمهاجمة فنطاس المياه تحاول زحزحته ، ونجحت مرة فى قلبه فقعدتم يوما بطوله حتى جاءكم المدد من الجيران على بعد ثلاثين كيلو مترا . ومجرد المشي وقضاء الحاجة مغامرة خطرة، فأنت لا تدرى فى أى رقعة من الأرض تنتظرك « الطريشة» .. تنط تلدغ. تموت . وكنت تتجول وترى خنادق وتحصينات الحرب العالمية فتسأل نفسك : أى جنون أتى بأولئك القوم إلى هذه القفار ؟ ولأى سبب ماتوا هنا ؟ ثلاثة رجال وأنت رابعهم . انتهت الحكايات والأكاذيب والمشاجرات وصار الطريق للجنون ممهدا والبحيرة من بعيد تبدو رائعة تدنو منها فتصدم . آثار غزلان وحيوانات جاءت راكضة وارتدت خائبة . فلا هذا بماء للشرب ولا لترطيب أجساد التهبت من نار الشمس . فلماذا انبثقت وهى لن تفيد ؟ وكنت أيامها تلوذ بالكتب المتاحة لتقيك من الضجر والترك والفناء . وأحيانا تكتب ثم يهاجمك اليأس فتخايلك البندقية وتزين لك النهاية .

تنتبه لنفسك وهم يدعونك لوليمة الترحيب ، وهؤلاء القوم البسطاء الطيبون أسعدتهم حكاياتك عن رجلهم . فتتوسط أعيان القبيلة ، تأكل بينهم ثم تتفرج على فنون التحطيب ورقص الخيل ، ويستأذنك كبيرهم فى كلمتين ، يختلى بك ويسألك صادقا : «شوف يا خال إذا كان ليك عند قناوى دين .. إحنا سدادين ، وإن كان له إحنا مسامحين .. ولو كانت ليك مشكلة مع الحكومة .. جبالنا وقصبنا وبيوتنا تحت أمرك ، ولو كنت مزنوق فى قرشين .. قول ، ولو حد مضايقك فى مصر وعاوز مدد .. أشحن لك القطر حالا .. بس قناوى بعافية .. ربنا يشفيه .. من عشرين سنة وأكثر نزل مصر يدور على حقه ويشتكى وشتم واحد كبير قوى.. قوى ، قالوا عليه مجنون وحطوه فى الخانكة من يوميها .. لا عاوز يخرج ولا بيكلم حد ربنا يجازيهم ..» . وأنت تغضب .. وتتخيل ما حدث ، كيف ثار وتهور ودخل المنطقة الشائكة . وكيف حقنوه وشوهوا ذاكرته . وبكيته وبكيت نفسك . فالشبح المجنون نال قناوى قبلك . ورغم إلحاحهم ، أبيت البقاء وتعجلت الوصول إليه ، لتراه وتحادثه . فأوصلوك لمحطة القطار ورافقوك حتى المحطة التالية من باب التكريم .. وجلست فى القطار تفكر .. طوال الطريق تفكر .

(٣)

ودخلت بيتك متعبا ، جمجمتك تكاد تنفجر ، لأنك تفضل الموت عن التشويه وتدمير الذاكرة . وكنت فى ذلك الوقت ، ممتلئا سعيداً من حفاوة تلك القبيلة . ونمت قليلا وقمت فزعا على الرنين المشؤم ، تريثت وأيقنت أنك بكامل صحوك وكفاءتك الذهنية .. وهذا هاتف يصدر منه جرس حقيقى وليس وهما كما يحاولون إيهامك . ترفع السماعة وتسمع صوتا بشريا .. فى نفس التوقيت المبرمج ، لا قبل ولا بعد .. ألو ..ألو ..

– نعم .. أفندم .

– أين كنت يا أستاذ ؟

– فى داهية .. طلباتك ؟

– حلمك ..

– يا أخى حل عنى..

– اسمعنى أولا .

– ارحمنى .. أرجوك.

– ألم يبلغوك ؟

– كل أخبارك كوارث .

– هذا قدرك .

– لا أومن بالأقدار .

– هذا شأنك .. لكنها تقع ..

– قلها وأرحمنى .

– قبضوا على صاحب المطبعة .

– التى احترقت ؟

– الأخرى.

– ماذا تقول ؟

- ما سمعته .
- لأى سبب ؟
- طباعة منشورات .
- تلفيق .
- إهرب حالا .
- بعدكم .
- ستندم .
- ندمى .. إنى أسمعك .
- أنت حر ..

حر طبعا ولهذا يخشونك ، طظ فيهم .. أبدا لن يفرغونها بهذه الطريقة الهمجية . لن تكون لهم وحدهم مطلقا . اقتنصوا البقرة وحلبوها .. هذا صحيح ، لكن ما زالت ثمة ألبان أقل جودة متاحة .. حتى لبن الأتان .. ولم لا ؟! استولوا على النهر بعزوبة مائة وشواطئة الجميلة وأسماكه وقناطره .. ماشى ، لكن ما زالت المياه الجوفية والترع وأمطار السماء موجودة . وأنت ولدت هنا و لعبت فى حوارى وأزقة المدينة ، حاربت ولعقت تراب الخنادق ، وعانيت كثيرا منذ طفولتك ، أكلت الفول صباحا ومساء حتى تقرح قولونك ، وعجز أبوك عن إطعامهم فتطوعت فى الجيش لكى تساعد وتساهم . وعانيت من قسوة القوانين العسكرية لكنك كنت تقرأ . مرمطوك وتنقلت بين سيوة والسلوم وبرانيس والتخوم وسواحل البحر بلونيه . شربت مياه الآبار بديدانها وعفنها وأكلت ما لا يؤكل . تكيفت مع العساكر الأجلاف ومع الصحارى المتوحشة وتعذبت فى الخدمة الليلية وحراسة الدركات فى برد طوبة ولهيب أغسطس ، وكنت تجد ما يقرأ فترنو للغد متفائلا . فثمة بصيص ضوء وسط كثافة الظلام . وتعلو فوق الصغائر من وشايات وتفاهات وسادية صف الضباط ، فقاومت وبقيت وخرجت من بين الركام والأطلال لتكتب . وكان قدرك أن تتحول معاناتك ومشاهداتك إلى مدافع وسهام . لقد تفجرت موهبتك من رحم معاناه شديدة فى غابة البشر، شدة حاجة،

سطوة أشباح ، فجاجة سلوك ، همجية همج .. فكان لابد أن تكتب عن هذا كله وليس عن ثريا .. غادة بولاق التى عذبتك ، أو زوجتك التى هجرتك ، أو عن بطولات أولئك المماليك الأغراب . ولهذا غضبوا وطاردوك لأنك مخلوق نارى ، ولن يكفوا حتى تزامل قناوى أو يشعلوا فيك النار كالمطبعة أو ترحل أو تتنصل من ماضيك وتكتب عن بطل خارق لا وجود له .. وتغنى وترقص فى مواسم الحزن وتكتب شعرا قياسا على : «.. أهمه .. فى الدنيا أعظم أمة ..» . ولو قلت للأشراف فى قمة زهوهم وحماسهم عن الشبح الذى أودى برجلهم ويطاردك لاشتعلت ، لكنك تحبها ولا تريد بها السوء ، تحبها ولديك الاستعداد للذود عنها لآخر نبضة ، ويوم السادس عشر من أكتوبر عام ثلاثة وسبعين ، تركت مشاغلك وعملك ونزلت للشارع تتزاحم وتصفق بحماس والرجل فى سيارته المكشوفة واقف يحيى الشرقانين للنصر وهو فى طريقه لمجلس الشعب ، وسموت .. نسيت مرارتك وأحزانك ووقفت تصفق بجنون واندمجت مع النسيج وصرت أنت وهم صوتا واحدا مدويا يزلزل شارع رمسيس : الله أكبر .. الله أكبر .. ربنا ينصرك يا ريس .. وتمنيت لحظتها لو أبقوك فى الخدمة لتترك بصمتك فوق رمال سيناء ، وكنت تتخيل مشاعر قناوى الآن .. ثم سقطت مريضا تهذى حين تابعت الأخبار وسمعت عن خازوق الدفرسوار الذى دخل من تحتك واستقر داخلك يمزق أحشائك ، والحمى لا تفارقك ترتعش وتنتفض منقطعا عن العالم فى غرفتك تهذى ، والهمجية العجوز تقول للمراسلين فى غضب : إن العالم لا يريد لنا أن ننتصر ، كانت تقف لحظتها فى وضع استعراض عند مصافى الزيتية . وأنت تضرب رأسك بقبضتيك ، بنفس الأكف التى صفقت بها منذ أيام لكنك قاومت هذا كله وبرئت لتكتب وتقول : البوح أو الجنون . ومع ذلك ، لم تفهم معنى اغتياله فى يوم الثأر؟ هذا التوقيت الهمجى أغاظك ، رغم خروجه شبه التام من ذاكرتك كرمز بعد شحنه الجميع للحبس وفتح الأبواب للأشباح والهمج . ولم يكن باقيا لكم سوى هذا اليوم تفخرون به فلوثوه بدمائه . وهذا الشبح المجنون بالتأكيد خرج من مكمنه تلك الأيام . وأنت تقدس وطنك رغم الشبح ورنين الفجر المزعج والهمج بكل أصنافهم وأقبية الاحتجاز .. تعبده ولا ترضى عنه بديلا . تشربها سادة وتغنى له ، يشوه قشر الفول قولونك وتحبه . تأكل الطعمية المقلية بالزيت المحروق القذر المسبب لأمراض السرطان .. وتموت فيه . تمشى فى شوارع بلا أرصفة

ويعصرونك وينشلونك داخل أتوبيسات السردين .. فتنزل منها تسوى ملابسك وتنسى . لأنك من هنا وستظل . وما زالت لك أشياء كثيرة لم يصلوا إليها بعد ، هذه الشقة الصغيرة ذات الغرفة الواحدة ، وهذا الكم الهائل من الكتب ، ومقاعد زهرة البستان الكحيانة ، حديقة الأتيليه ، مقهى الحرية ، الخمور المحلية المتاحة، الحدائق المجانية « وقدر» الفول الخالدة . وأصدقاء بسطاء فقراء جدعان تجتمع بهم، تثرثر معهم ، تنكتون على أنفسكم وعليهم وتضحكون . وهذه الشوارع كلها لك .. تتجول فيها على راحتك فليس ثمة حظر تجول وأبواب المدينة مفتوحة .. تتنزة بين الأحياء تتفرج على الفاترينات والنساء والكتب . وتلك الأرملة الطيبة المعطاءة التى تواعدك بين وقت وآخر . تجلسان على ضفاف النيل تقزقزان اللب، تتناجيان ، تتلامسان بالأيدى والأكتاف والأفخاد وتتلاصقان كالعشاق والمراهقين، وتذهب معك إلى شقتك كلما سمحت الظروف .. ترتبها لك ، تغسل ملابسك ، تزيل عنك همومك ، تشبعك ثم تفتح حافظتك فتجدها خاوية ، فتقول لك بود وحميمية « .. ييه .. دانت ما معاكش .. خلى دول معاك لما تفرج .. وإذا احتجت لحاجة تانية .. كلمنى .. » أحيانا كنت تمرض ، فتمر عليك يوميا بانتظام تأتيك بالطعام والدواء وتخاطر بالبقاء أطول وقت ممكن ، تنام بجوارك وأنت مزكوم ولا تخشى العدوى، وهذه المرأة العظيمة ، أليست من هنا ، بحنانها وعطائها وسموها ومن واجبك الدفاع عن موطئ قدميها لحظة الخطر . نعم .. ما زالت هناك أشياء وأشياء ، صحتك قوية ، ذاكرتك متوهجة . ويوما ستنزاح الغمة .. لأن دوام الحال من المحال كما قالوا . وسيختفى الهمج بفعل قانون التطور والحركة فاصبر على جار السوء حتى تأتيه مصيبة أو يرحل . فكيف تتركه لهم؟! ما زال لديك أكداس من الكتب تستحق عناء القراءة . وما زال فى جعبتك ما يكتب . والقطار أمامك .. الحق به ، تزوج وانجب . انس ثريا المتعالية، والمرأة التى هجرتك ، وهذه الأرملة جديرة بقلبك وحبك ، فهى وطنك وعشيقتك وأمك مرفؤك وغدك . أعطتك بسخاء دون مقابل فابذل مجهودا واكسب ود أولادها وحبهم حتى يتنازلوا لك عنها ، فهى أم ولن ترميهم من أجلك مهما كنت . وهذه مدينتك ، دافع عنها واستمر ، وكان جبنا منك يوم ضعفت وسعيت للموت تخلصا من مطاردات الشبح ، كيف تموت هكذا وتتركها لهم ؟ قاوم ، انشر ملابسهم

للضوء ، لا تخف فليس لديك ما تخسره سوى الروح وقد هانت عليك يوما .. وبالمجان ، اخسرها فى معركة بقاء مجيدة فيكتب لك الخلود أبداً ، لن تكون رواية واحدة نهاية مشوارك . عش ، تمتع بحياتك « واضرب أجعص من فيهم بالـ...»وابحث عن قناوى ، اكتب عنه من جديد فى ضوء الأحداث المؤسفة المخزية .. تضطرب وأنت تلج مصحة الأمراض العقلية ، يد مشغولة بفاكهة وطعام وبالأخرى باقة ورد ، وقلبك تتسارع دقاته ، تتخيل لحظة اللقاء . تسأل عنه فى العنابر المفتوحة والعنابر المسيجة ، وأحدهم يغافلك ، يخطف باقة الورد ، يجرى بها بعيدا ويلتهمها ، تبتسم بحزن ، تواصل بحثك فتجده ولا تجده ، موجودا بالجسد ومسافرا بالعقل ، منكمشا ، منزويا مرعوبا ، تهزه فيرتعش ، تكلمه فلا يسمعك ، تدنو .. فيبتعد ، تمد له الطعام .. فيأبى ، تقشر له برتقالة ، وتغريه.. فيزيح يدك غاضبا ، متوجسا ، هلعا ، كأنك سجان فى معسكرات الأسرى . تحاول إخراجه واستعادته فتفشل ، تريه أوسمة وادى على فوق كتفك وساعدك وفخدك .. فلا يرى أبدا ، لا يستجيب ، يا بطل ، يا جبل ، يا حاصد الأوسمة وشهادات التقدير وشرائط الترقيات الاستثنائية ، يا رمز الرموز. لا شيء. تقمص أبا الهول فهو لا ينطق . يائسا تكلمه : اسمعنى .. أنا بلال عثمان وأنت قناوى الشريف ، وكنا وكنا ، تسترجع الشريط كله من ... وإلى . تنفلت أعصابك فتشد يده بالقوة وتعضها .. فلا يقاوم . بعد ثلاث ساعات من الأسى والحيرة والغضب والمحاولات تنصرف لكى تعود إليه غدا مع طبيب صديق يحلل لك الظاهرة علميا . فطوال مكوسك مع قناوى ، كان لديك شعور قوى بأنه ليس غائبا إلى هذا الحد ، أحس بوجودك ، عرفك ويتهرب منك لسبب تجهله ، فمن أين تولد لديك هذا الإحساس ؟! لا دليلا ماديا تملكه سوى البث الداخلى ودقة الملاحظة للحالة ، كان رعبه هائلا وكأن شبحك يقف على رأسه ، يتلفت ، ينظر للمجانين بهلع .. يتقنفذ كلما مر طبيب أو ممرض ، وأنت حائر كيف يتحول أسد إلى فأر؟ كيف يتشوه ؟ كيف يموت وهو ينبض ؟ ثمة فاعل ؟ جريمة وقعت ؟ وأنت لن ترتاح.. إما أن تهز هذا الرجل وتستعيده أو تنضم إليه فتستريح مثله من الخارج كله بضجيجه و فجاجته وهمجه . فقد عانيت فى وطنك كما يعانى حمير السباخ. فكتبت تدين وتعرى وتقول . فيردون عليك بالحصار

والتجويع و التهميش وحجب الجوائز وتخزين كتبك ووضع اسمك فى قوائم الممنوعين ، وإهمال نصوصك لأنك تقولها . وينصحك المجربون باللجوء للرمز وحيل الحداثة، وينصحك محترفوا الكتابة التربحية بالبحث عن مواضيع خفيفة سهلة الهضم : يا سيدى اكتب .. الزعيم فلان رائداً للتنوير الحضارى «وخدلك قرشين تفك أزمتك » ، اكتب عن أمين القومية الهمجية ، اكتب عن جد المعارك ، اكتب عن أسد الحرمين وأمير الصحراء . دعنا من هذا كله .. اكتب عن سيرة الموهوبة التى حولت الهز الشرقى من مجرد وسيلة لإثارة الغرائز .. إلى فن راق يدرس فى أكاديميات العلوم العسكرية . لكنك عنيد لا تبيع قناعاتك ولديك مناعة ضد الدنانير والريالات والدولارات . وكنت تفكر عن الكتابة عن الزعيم ثم استبدلته بقناوى ... لأنك وازنت وجاءت الكفة فى غير صالحه : غلطة اليمن ، مهزلة يونيو ، معتقلات أصحاب الرأى ، وجملة قاتلة سمعتها من ضابط ليبى وأنت تحاوره بجوار السلك الفاصل بين الجهتين، كان من المهوسيين بالزعيم ويتمنى مثله عندهم ، سألته بصراحة عن سبب إعجابه بالزعيم ، فقال جملته العجيبة: «هادا يا خوى والله عندى تريس* ويهدرز* باهى* » . وتلك أم المصائب «الهدرزة» حلاوة الحديث . التخدير . بلاغة الشعر . سحر الكلمة . وأنت نفسك كنت تسمعه وتنتشى . تسمعه وتسكر . تسمعه وتغيب . تسمعه وتنتصر . قال لهم: وأما فرنسا العاهرة .. فردوا عليه بمفاعل ديمونه . وقال لهم: موتوا بغيظكم فوجدت نفسك مرميا فى سيناء. وكانت الكارثة .. واستمر يقول ، يخطب ومئات السكارى خرجوا يهتفون : لا تتنح .. لا تتنح . بينما الألوف لحظتها كانوا معرضين للإبادة وهو يتكلم . وتعجب كيف استمر بعد ذلك ؟ تراجع التاريخ ، فتكتشف أن العظماء حين ينكسرون ، ينهون حياتهم بالموت أو الإنزواء . وكان فريدا بينهم وتشبث ، فقلده الآخر « بتاع جد معارك » . كنت تحبه وما زلت .. لكنك لو كتبت ، ستقول هذا كله .. لأنك لا تجامل ولا تزيف قضيتك ، وقضيتك الإنسان . تهزم مرة فتعاود الكر بأسلحتك البسيطة : الورقة والقلم . ورغم الليل الطويل .. ترنو للغد ، تتسكع فى مدينتك وتعى جيدا حجم الأخطار المحدقة ، الهمج الذين على أبواب رفح ، والهمج الذين يشحذون سيوف

---

* تريس : رجل . * يهدرز : يتكلم. *باهى : جيدا (ومعان أخر) .

القطع وساحات الرجم ، و الأشباح الذين يسودون ويحلبون البقرة ، غطرسة الذين يواجهونهم بعد استبعادكم ، مع أنكم كتيبة الدفاع الأولى . رغم هذا الكم ، لم تمت كمدا . إذا تأزمت تقابل الأرملة الطيبة و تبوح لها . إذا جعت أكلت سطورا من كتاب وشبعت ، وإذا عطشت .. اكتفيت بماء الحنفية .. فالنهر لم يجف بعد . لقد خسرت الكثير ، لكنك ربحت نفسك ، وغدا تذهب إلى قناوى .. وتحاول .

(٤)

– لا تقفل السكة ..

– أنت ؟

– اسمعنى جيدا .. اهرب الآن .

– ملعونة أمك .

– مقبولة منك .. لكن اسمع ..

– قل .. وخلصنى .

– قناوى ..؟

– حتى قناوى .. ؟ ما له ؟

– أهلكه المجانين ضربا .. وهو ينازع فى المستشفى الآن .

– القتلة .

– انج سعد ..

– سأشكوهم ..

– لا تملك دليلا .. مجانين ضربوا مجنونا .

وهذا رابع ضحاياك .. ضربوك يا مسكين بعد محو ذاكرتك بجلسات الكهرباء. شوهوك وأرعبوك لأنك تطاولت على كبير وشتمته .. فمن كان يا قناوى؟ لا ترحل .. أرجوك .. قل .. اكشفه فثمة خيط بين كبيرهم والشبح . إنه ما زال متواصلا متقمصا أشباح الحاضر وشياطينه . تدنو منه ، تلتصق به . تحتضنه . تبكى ، وحارس همجى .. يراقبكما ، تتحسس الشاش والأربطة وتبكى سنواته وسنواتك . ضربوه بعد زيارتك توجسا منكما ، مع أنه مجنون قانونا حتى لو قال. وأنت أعزل ، بضاعتك قلم لا يؤثر فى الخنازير والبلداء . كلب صوتى ينبح وقافلة تسير محملة بكل نفيس وغال ، مرة تعبر البحار إلى روما وأثينا ولندن وباريس والأستانة ، ومرات تجتاز الصحارى فى قوافل منتظمة إلى الأمير والخليفة والوالى . ولما خلعوه وكلفوه بقيادة العسكر وغيره يحكم ، قال كلمته

المشهورة : إنا كمن يمسك البقرة من قرنيها ليحلبها غيره . وهو الذى قال وكشف نفسه وكشفهم . الحلب . فأين كان أهل البقرة ؟ وأين هم الآن ؟ وهذا أحدهم جثة ينازع .. إنطق يا قناوى .. قل من كان ؟ لكن ما الفائدة . قلت وقالوا وما تحرك أحد . وبينما قناوى يموت بين يديك وبسببك ، احتلت الأشباح كل المنافذ ، المشاريع ، الطرق ، المواقع ، العمائر ، الصحارى ، وسائل البث والنشر ، مصادر الطعام ، الأرواح ، المدن ، لم يبق لكم غير الجعجعة التى بلا طحن . فاهرب بجلدك كما نصحوك . انج سعد .. هلك سعيد . اهرب يا ولدى . وكونك خرجت سالما من مآزق سابقة لا يعنى تكرار الفرصة ، صبروا عليك لا خوفا منك ومن كتاب العرائض ، إنما لأنهم يجهزون لك نهاية تليق بلسانك الطويل . اهرب يا بلال اهرب يا بلال عثمان . صوت من هذا ؟ أبدا ليس صوت رجل التوقيت المبرمج ولا ينبثق من داخلك .. يا كفران .. اهرب . الكفران ؟ هذا اللقب اندثر منذ زمان بعيد ، أطلقه عليك قناوى وناداك به .. فتقبلته راضيا . وأحيانا كان يسميك الشاعر المجنون ... ياه ... من زمان لم تسمع اللقب ، كان حكرا عليه .. فهل تحلم ؟ أهى كوابيس ما قبل الجنون ؟ ترفع وجهك مندهشا .. مكذبا سمعك.. فترى شفتيه تتحركان بصعوبة .

- قناوى ..

- ا.. هـ.. ر.. ب ..

- قناوى ..

- ازاى لك .. يا كف ..ر.ا..ن ..

تهزه ، لا تسعك الدنيا من الفرحة ، تحتضنه بقوة .. لكنه خرس ، راح فى الغيبوبة ، تسترجع ملابسات اللقب . أبدا لم يكفرك عن دينك لأنه متسامح ولا يحاسب الناس على أقوالهم .. فله دينه ولهم دينهم كما يؤمن بعدم تكفير من ينطق بالشهادتين ، كان للمسألة سبب آخر ، فكلما سألك عن أحوالك .. كنت ترد ساخطا بجملتك المعتادة : « الواحد كفران خالص وقرب يطلع من.. » ، مجرد كلام تعبر به عن حالتك وغليانك الداخلى والقرف من الطقس العام لأن ظروفك وظروف رفقائك الجنود كانت بالغة السوء قبل زلزال يونيو ، فضباط ما بعد الثورة جميعا صاروا أسيادا .. المائة أفرزوا المئات ، وحتى الذى كان فى اللفة

يمسحون له يدعي قيامه بالثورة ، يتخرج الملازم ثان ويقف أمام الطابور متباهيا متضخما ويقول : « لولانا .. واحنا اللى .. » ويتصور أنها بلده دون غيره والباقى لا شيء .. رفيق وخدم وعساكر ومراسلات . الواحد منهم يشتمك ويتطاول على أبيك وأمك وأنت واقف إنتباها ويدك فى جنبك ولا تملك حق الزد أو مجرد الاحتجاج .. يصفعك على قفاك و مطلوب منك الابتسام واعتبارها وساما . أما أن تسكت أو تتآكل أو تصاب بأمراض النفس أو تثور فتهلكه وتلحق به . أو تتعقل وتسلك الطريق السليم ، تتظلم منه للرتبة الأعلى ، فيحاصرك الصولات وضابط الصف و يكسرون مقاديفك : « عيب كده ومهما كان دا برضه ضابط ! » ، فتركب رأسك وتواصل نضالك العبثي وتدخل مكتب الأعلى منه ، فيطيب خاطرك بالكلام الفارغ وتخرج كما دخلت ، لا حاسبوا الذى أهانك ولا أعادوا لك كرامتك ، وقد تعاند وتستمر ، فيشكلون مجلس تحقيق فلا تجد شاهدا يعضدك رغم حدوث الواقعة جهارا أمام الجميع . وتحمد ربك أنهم لم يحولوك من مظلوم إلى مذنب أو متهم . ثم تنفتح عليك أبواب الجحيم ، طوابير ذنب واحتكاكات ومنع تصاريح وتفتيش متواصل على هندامك .. وتدخل مكتب يوميا بأورنيك ذنب . وما كان لمثل هذه السلوكيات أن تدوم . وبعد كارثة يونيو ، كان العساكر فى جلساتهم الخاصة يشمتون ويقولون كلاما ثقيلا : « أحسن كده .. لو انتصرنا .. كانوا ركبونا أكتر وأكتر .. » ، ومثل هذه الأحاديث السوداء .. تستفزك .. فتحاول توعيتهم : يا جماعة .. هذا كلام خطير وخلط أوراق .. لأن الآخر لو جاء وركب .. لن ينزل أبدا ، هذا عيب يا جماعة .. إذ كيف تفرحون لهزيمة الوطن كبشر وأرض . ويوم مهزلة وادى على ، وأنت جريح تنزف ، شتمت ضابطك وشتمتهم لأنهم استهانوا بالجانب الآخر وقالوا عنهم « شوية بتاع » وواجهوهم بطابور تخويف خالطين بذلك بين الاستعراض وجبال اليمن ، لأن أغبى عريف لو كانوا أوكلوه بالمهمة لقام بها أفضل من ذلك ، خمسون فردا راحوا فى لحظات ، لولا جرحك ، وموقفك النفسى ، لأعدموك رميا بالرصاص ، لكن قائد المهمة جاءت طائرة هليوكوبتر ونقلته إلى صنعاء ثم رحلوه إلى القاهرة ، واكتفى القائد الجديد بمجازاتك أسبوعين ورماك فى أعلى وأخطر المواقع حتى استردك قناوى ، وكنت تسمع عن أحوالهم بأذنيك ، تعيينك وقوتك يباع لليمنيين تحت ستار المساعدات الإنسانية ، وأمنك مهدد بالممارسات الغبية ، القنبلة اليدوية

بخمسة ريالات . صندوق الزخيرة بعشرة ريالات، البندقية الآلية 62×7 بأربع مائة ريال . المدفع الهاون .. بثروة .. ولا تصدق .. تظنها من الشائعات حتى أكدها لك قناوى لأن بعضهم طلب منه ذلك تلميحا . ويوم رجعتم لم يكن معك ولا مع قناوى إلا القليل ، بينما الباخرة تحمل بصناديق من السلع المعمرة كالغسالات والثلاجات وكأنهم قادمون من غزة ولم يستوقفهم أحد ويسألهم : ما هذا ؟ ومن أين لكم بها ؟ فتأكدت من تورط البعض فى تلك السفالات لشراء الهدايا من الحديدة وصنعاء . ولما نصحت جنديا كان يتباهى بساعة يد من نوع حديث لا يلبس مثلها رئيس الوزراء ، بالاستحياء واحترام مشاعر العائدين صفر اليدين ، صرخ فى وجهك محتدا : « جرى إيه يا دفعة .. هو أنا سارقها .. شاريها بفلوسى.. » . حسبتها له ثمانى ريالات فى عشرين شهرا وافترضت أنه لا أكل ولا ابتاع غيرها ، فكيف تكون فلوسه ؟ فكاد يشاجرك واستفزك : « جاى تحسدنى أنا الغلبان على حتة ساعة .. الشنط قدامك أهيه ، مالية الباخرة لو راجل .. روح اسألهم ؟ » وأنت لا تملك ولا تود محاسبة أحد ، وإنما تنصح : من ابتلى فليستتر ، لكن الأوغاد عيونهم بجحة ، تجد الولد منهم يتبختر بمرسيدس ثمنها مليون جنية، ويقول ببساطة إن «دادى » وعده بها عندما يجتاز الثانوية ، فبماذا سيعده حين يتخرج من الجامعة ؟! وقناوى كان يرى هذه المسائل ضعفا فى الإيمان ، ويحاول هدايتك لأنه كان يعتقد أن داخلك نظيف كما يعتقد . وكانت مشكلته معك .. تركك للصلاة . فتقول له بعناد : انظر يا عم قناوى ، العسكرى الذى يصلى هناك هو نفسه صاحب الساعة التى ثمنها كذا .. وتقول له الدين المعاملة.. الدين السوق .. الدين للرب والوطن للكل . وكان يغضب منك ثم يصالحك .

وأنت ما تزال بجواره وتتمنى لو ينتبه لكن الممرضة تسبل جفنيه وتواسيك . فانسحبت تجرجر ساقيك وجلست على الرصيف كالمتشردين تبكى وطنا ورجلا. ولو سألك عابر عن سبب بكائك لقلت له القصة كلها ، من البداية ووصولا لرابع ضحاياك . ثم قمت تمشى يائسا ، قطعت شارع رمسيس وسط الضجيج وجنون السرعة ، تعبر الإشارات دون أن تحترز ، تتمنى لو تدهسك سيارة فتستريح وتريح، ولا ملاذ لك اليوم سوى بار المجانين لكى تنس ، جلست وحدك تشرب تدخن . توافد الكتاب والشعراء ، جلسوا حولك وأنت زاهد عن الدنيا لا تشاركهم أحاديث السمر ونكات التشنيع . هؤلاء هم أحباؤك وحصنك الآمن . بهم تلوذ

ومعهم تشعر بالدفء والامتلاء. هؤلاء الفقراء العزل هم طليعة المدافعين عن البقرة وكتيبة شهداء الكلمة . آخر القلاع الصامدة أمام الأشباح و الأوغاد والهمج. وهم الذين شيعوا صديقك الأديب البائس وأقاموا له سرادق العزاء على نفقتهم . وأنت سعيد بهم ومعتد بنفسك لأنك قاومت إغراءات رجل الرقم السرى فحافظت على رقابهم. وما تزال صامتا تشرب ، فسألوك عن أحوالك وأخبارك وإنتاجك. وتقدم منك صديقك المثقف اليسارى الشهم مداعبا ، وفتح لك حافظة نقوده لكى تأخذ ما تحتاجه لو كنت مفلسا .. وكدت تحكى له لولا خشيتك من جرح وتخديش ذكرى رجل مثل قناوى بين سكارى .. لكنك قلتها لتجرب : يا جماعة قناوى مات ! لا شيء . لا أحد . أصوات متداخلة ، حوارات ثنائية ، كؤوس تتبادل ، زجاجات تستبدل . ولم يسألك سائل عن قناوى الذى مات . انشغلوا عنك وعن حزنك بالترمس والجرجير و أقراص الطعمية السخنة ، وأنت انشغلت عنهم وعن قناوى باحثا عن الغريب الذى تقدم منك وحياك بكأس ممتلئ للحافة وانصرف . وكان من المحتمل امتداد السهرة لولا وقوع حادث عارض ، فتفرقتم مذعورين . وعدت إلى حصنك محبطا فلذت برواية قناوى ، رجعت مع فصولها للماضى ، هضبة السلوم وأولئك الرجال الشياطين الذين استباحوا كل شيء .

وكان قناوى بينهم ظاهرة فريدة ... كان أسطورة ..

الجزء الثانى

أسطورة قناوى

سيرة غير ذاتية، تجرى وقائعها
فى زمن الهزيمة ، فوق هضبة
السلوم بين عامى ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ .

(١)

يوم رحيل قناوى

ولد شقى من الرعاة سمع الخبر، اندس خلف جنديين يتهامسان والتقطه ، ترك أغنامه وركض .. بكامل قوته يعدو ، يقطع المنحدر بسرعة الريح ، تتدحرج أمامه الحجارة والرمال ، تستقبله الكلاب نابحة ، وهو يصيح : أبشروا يا عرب .. قناوى ماشى ، يا عرب .. يا عرب .. يا عرب ، و الخبر ينتشر والناس يخرجون من البيوت والخيام ، يتجمعون عند السوق وموقف السيارات ، يتساءلون: « إيش فى ؟ » ، والمدينة كلها دبت فيها الحياة ، تسترد الروح ، والأسئلة تطرح : «إيش صار ؟ » و « وين ماشى ؟» ، و الولد تذكر ثم صرخ : «غنيماتى » وعاد يركض من جديد صاعدا للهضبة ، وأهل الخبرة والعلاقات نشطوا ، تلفنوا ، تلصصوا ، تأكدوا ، قناوى سيرحل اليوم غير مأسوف عليه، حالا سيغادر ، فى أول حافلة سيترك المدينة . والبدو جنوا ، الفرحة جعلتهم يتصرفون بحمق ، ذبحوا جملا وخرافا ، أقاموا عرسا همجيا . والولد المبشر ، يتلقى الهبات ، يحملونه كالفاتح العظيم ، يرقصون ، يغنون ، هذا يوم النصر ، بركاتك يا سيدى العوام ، استجاروا بمقامك فلبيت النداء وبدأت سيارات الأجرة تجوب الشوارع الضيقة ، مظاهرة صوتية بالأبواق .. بيب.. بيب .. راح .. راح . والأغانى الشائعة تحرف : « يرحم بوك السلطة راحت .. يرحم بوك » و « كرباجك طار طرف عينى .. يا قناوى بإيش تداوينى » و النساء يزغردن ، وبنادق الخرطوش تطلق. والغلمان ، تفننوا ، ابتكروا ، جمعوا كل حمير المدينة والنجوع المملوكة للمهربين والشاردة ، ركبوها ، اصطفوا على جانبى الطريق وبأيديهم قلل وحجارة، يغنون فى صوت واحد مدو :« القلل القناوى، شغل الصول قناوى » .

كل هذه الأفراح والترتيبات كانت تنتظرك يا قناوى يوم رحيلك ، وكأنك محتل غاصب ، أو حاكم أبدى أسقطه ثوار الصدفة . وأنت الآن ترحل ، تترك جنودك وموقعك مرغما ، تسبقك الإشارات و التقارير السرية وملفات التحقيق ، مهزوما تغادر ، بعد حربك العبثية ترحل . كنت تحارب وحدك ، تكاثروا عليك ، هزموك ، وحيدا وقفت فى أيامك الأخيرة بعد إبعاد بلال عنك ، رموه هناك فى نقطة « الملفا *» حتى يموت قهرا وغيظا ، ليحارب الطريشات السامة والناموس والذباب الوحشى ، ليسف الرمال الحمراء ، يختنق بالريح السموم ، لكى يجن بعيدا عنك ، فى منطقة الجدب و الجرب والانتظار، رموه هناك بعد تلويث شرفه، قضوا عليكما منفردين . أنت هزمت وحدك و بلال لا يودعك ، مرمى هناك يعد نجوم الليل . ثلاثة من معاونيك ، ورابعهم بلال ، عاقبوهم وأبعدوهم ، يصلهم الماء والطعام والرسائل كل شهر ، أبعدوهم ، حتى يكسروك . ومن قبل ... حالوا بينك وبينهم ، لا يفصلك عنهم سوى القنال ، هم فى البر الشرقى .. يمرحون ويسبحون فى قنالك ، وأنت فى البر الغربى يأكلك الغيظ ، تراقبهم ساكتا ، يأكلك الغيظ ، تراقبهم ساكتا ، مقهورا مقيدا بوقف إطلاق النار ، والنار فى صدرك .. فكسرت الحظر وضربتهم ، فعاقبوك وجاءوا بك للسلوم لتحارب الحمير و الأغنام . فحاربت . أنت تحارب حيث تكون وتنتصر ، لأنك محارب . لكنهم سرقوا نصرك وهزموك بقانون الهمج . تخرج الآن من رئاسة السرية بسوطك وحقيبتك تخرج ، لا ودعوك ولا أقاموا لك وليمة النقل كالعادة ، حتى حارس البوابة يستهين بك ، يقف « صفا » متراخيا ولا يحييك بوقفة الانتباه مع أنها من حقك ، فما زلت مساعدا أولا بالقوات المسلحة ، ومع أنك لا تأبه بالمظاهر وإنما ضايقتك الاستهانة ، تعود إليه ساخطا ، زاعقا : « انتباه يا عسكرى هى حصلت» .

والعسكرى بتكاسل وقرف يخبط الدبشك على الأرض وينظر إليك متحديا .. الكلاب . حتى السائق المكلف بتوصيلك ادعى عطلا لكى تقطع المسافة ماشيا .. فينقطع نفسك ، حرضوه مع أنه بلدياتك .. تفوا عليهم ، تقف على أول الطريق .. تنتظر ، لعل السائق يراجع ضميره . تشاور للسيارات العابرة ويدنو منك ولد مشاغب بحماره ، يستفزك : « هيا يا حضرة الصول .. اركب .. هادا على

* الملفا : منطقة صحراوية سيئة بين سيوة وجغبوب .

قدك.. » ، تلوح له بالسوط يبتعد ، يكركر ضاحكا و يغني « القلل القناوى شغل المهبول قناوى » ، وتسمع خلفك فرقعة وترى قلة تتهشم ، وأنت تسير ، تهبط على مهل ، تشاهد حميرا وغلمانا يحتلون جانبى الطريق ، بأيديهم القلل يكسرونها خلفك ، والحجارة يرشقونك بها فى مزاح همجي ويغنون: «القلل القناوى صنع الأهبل قناوى » ، فمن الذى سرب إليهم نبأ رحيلك ؟ ومتى لحنوا هذه الأغنية ؟ والغلمان يتسابقون أمامك لا يهابون سوطك ، يحاولون خطفه منك، ولابد أنهم فى السرية خافوا من جريمة تقع فبعثوا إليك بالسائق فى آخر لحظة ، فالتقطك . آه يا قناوى من هذا اليوم العصيب وشماتة الأعداء فيك ، وبالذات الرقيب أول الداهية عبد الراضى جعلوص ، والرقيب السودانى حمد البخيت من السودان أيضا، جاءوا فى زمن فاروق الأول ليحلبوا بقرتك ، همج يا قناوى من كل البلاد والصحارى ، ضباط وجنود .. كلهم يا قناوى فوق الهضبة يحلبون . والخائن يتودد إليك ينقذك من غارات الغلمان ، يسرع بالسيارة غالقا نوافذها . غلمان عفاريت ، يقلدون الكبار ، يجلسون على ركبهم يحاولون التنشين على زجاج أبواب السيارات صائحين : «حيط يا عرب » و السائق .. يسرع .. بلدياتك وخانك ، حتى لو دافع عنك فى يومك الأخير . وعند محطة الحافلة ، يستوقفك بدوى شاب ، يسألك جاداً : « يا حضرة الصول .. بدى نشرى* قلة قناوى .. وين هادى يبيعوها » ، ويمنعك السائق من الاشتباك به ، يودعك وينصرف ، والحافلة لا تأتى لتبعدك عن هؤلاء ومدينتهم ، وأنت تنتظر متوترا ، ترمق دماء الخراف التى ذبحت وبقايا القلل وحطامها ، وترى صاحب فندق السلوم يوزع المشروبات مجانا احتفالا برحيلك ، يدنو منك بصينية المشروبات ، يعزم عليك ليستفزك ، تنظر إليه مشمئزا ، فيسبك : «عنك ما طفحت ». والبدو يقفون فى جماعات يتفرجون عليك ، ولن يصدقوا حتى ترحل . ويصيح أحدهم فى ناظر المحطة : «كنك* يا رجل .. وين المخروبة هادى . خلونا نرتاحوا ؟ » . والغلمان ، يناوشونك من جديد ، يكر أحدهم ، يكاد يبطحك بحجر كبير ، يندفع نحوه بدوى عجوز ، يمنعه ناصحا : حيد عنه* يا ولد .. هادى عبد طيب » . وعشرات الشبان، يستعدون ، يحيطون بك ، يغنون : « القلل القناوى .. شغل

---

* نشرى : نشترى. * كنك : مالك . * حيد عنه : ابعد عنه .

الصـول قناوى ..» خطوة خطوة .. يتـحـركـون لإرهابك .. وأنـت ثابت ، ترفع سوطك مستعدا ، أبدا لا تهتز. تثبت نظراتك على عيونهم ، ومـا زالوا يتقدمون ، ثم يجلسون جميعا على ركبتهم فى حركة مسرحية ويصيح ، محركهم : « حيط* يا عرب ».. ترتفع الأيدى بالحجـارة ، تتوقف فى الهواء ، ثم يقهقهون وهم فى وضعهم القتالى ، يستهزئون بك ، ويفتتحون مزادا سوقيا وهم يشيرون إلى سوطك .

- من يا عريان يشترى كرباج قناوى .
- أنا بكيلو شاى .
- والله ما يساوى .. أنا أعطيه زجاجة بارزتا .
- وأنا بموس ناسيت .
- وأنا أعطية هدا ....
- ها .. ها .. ها ..
- من يا عريان يزيد .
- وإيش نسوى بيه ؟
- تهش به غنمك .

ويتقدم الرجل العجوز، بحكمته ووقاره ، يهددهم بعصاه صائحا : « كنكم يا أولاد على*.. تحشموا .. الكلام هادا ما يصير عندنا .. هيا .. هيا .. ملعون والديكم .. » . وينضم إليك مصاحبا ، مدافعا ، يرافقك حتى باب الحفلة معتذرا ، مودعا : « فى أمان الله .. مربوحة .. مربوحة » والحافلة تتحرك ثم تتوقف بعد البوابة الشرقية للمدينة .. زفة أخرى، أغان ، طلقات بنادق خرطوش ، أيد ترفع أعلام الوطن . وأنت حائر ، تسأل نفسك عن المناسبة ، تظنهم قد انزاحوا عن حافة القنال ، وتسمع مذياعك الصغير بسرعة ، وقامت طائراتهم .. تصدينا .. وقامت قواتنا .. وأغنية « طول ما أملى معايا ، معايا ، وفى إيديا سلاح ».. ولا جديد . ما الأمر إذن ؟ ! تنظر مستطلعا من النافذة ، فتشاهد قطيعا من الأغنام

---

*حيط : حجر .   * أولاد على : قبائل تسكن الصحراء الغربية .

خارجة من الكرنتينا ، أغنام كالنمل ، تكفى لإطعام جيش القنال شهرا ، وكانت فى طريقها لبطون أثرياء بلاد النفط ، أغنام حربك الخاسرة، إنها نفس الأغنام التى ضبطها منذ أيام .. وتخرج الآن فى حماية القانون ، قانون الهمج . والبدو سعداء يخرجون لك ألسنتهم. وأنت تغلى ، ودمائك تثور ، وبلال هناك يتآكل مثلك فى صحراء المنفى . والسائق يشاركهم العرس بالنفير المتواصل ، يصدعك، والبدو يحييون مواطنيهم القادمين بأكاليل النصر .. « مربوحة.. مربوحة ». وأنت وحدك فى الجانب المعاكس الخاسر . أنت ومخك الناشف وسوطك وحربك العبثية . حرب الأغنام والحمير . تتجاهلهم حتى لا تنفجر. تنشغل عنهم بمذياعك وأنباء حربك الحقيقية تتابع كعادتك ، سير المعارك الحربية بعد شهور من ضرب المدمرة إيلات .. ثم القصف المدفعي العنيف وحرائق مصافى الزيتية ، الحرائق هناك تندلع وأنت هنا تحترق. ويستفزك بدوى بسماجة : « بالله عليك يا حاج .. دير لنا غنيوة مليحة .. وفكنا * من وجع الرأس ». تتحسس سوطك ، تزوم ، تتعقل لكبر سنه ، تكتفى بغلق المذياع ، لأنك لا تسمع سوى النشرات ، حتى الأناشيد الحماسية تنرفزك .. لأن الحرب فى تصورك ، ليست أغانى وموسيقى وكلام ، إنها ثبات وخطط ورجال . وما تزال تنظر للأغنام بغيظ ، طعام جنودك وقوت أهلك ، يتسرب ، فيأكلون « هبرها »ويشربون «الشاهى اللى بالنعناع» «ويتكئون باسترخاء » «يهدرزون*» يخططون للحرب دون خوضها والاكتواء بنارها . وقد سمعت سخريتهم بأذنيك عند السلك ، فى حوار عنيف بينك وبين ضابط مغرور من مدينة النفط والمال : « أنتوا يا مصاروة ما عندكم رأس ، هادا من الفول ، وديما تردوا لورا .. يا ودى .. الحرب يبى تريس* .. والمصاروة شنو.. كاريوكا وأم كلثوم وجوزة وكورة ، لكن شنوا .. قالها زمان : رجالها من ورق وهى لمن غلب . كده خلونا نمشى غادى ونوريكم كيف يكون الحرب .. والله ما نريد غير سيف مليح وحصان أصيل .. ووينك يا خالد وأنت يا أخوى إيش السوط هادا .. سايب العدو غادى وجاى تحارب فى البدو .. إيش دارو لك .. خليهم يرحم والديك يسترزقوا » . قال لك هذا عند السلك .. لأنك كنت تؤدى واجبك ، وكدت يومها تشتبك معه فى حرب أخرى خاسرة ، لولا صوت الحكمة والعقل . يسخرون وهم يأكلون لحم خرافك ولحمك . أغنام أولها هنا ولا آخر لها .

---

* فكنا : خلصنا . * الهدرزة : الحكى . *تريس : رجال.

تضرب كفا بالأخرى ، تحتد ، تطالب السائق بالتحرك لتبتعد عن هذا النزيف ..

- تحرك يا أسطى .
- نفرح مع الناس يا حاج .
- والله ما أنت فاهم .
- تكلمنى يا حاج ..
- لا يا ابنى .. أكلم نفسى ..

كلم نفسك وانفجر ، فأغنام حريك ، ستلتف وتجتاز الحدود وتتحول إلى «هُوبر» بينما بلال ورفاقه يأكلون الفول المسوس والعدس وخبز « الصاجة » ولا صفيحة ماء تنقذهم من الجرب . وعلى بعد كيلوا مترات منهم ، فى واحة جغبوب ، نقطة حراسة عصرية ، سيارة كرافان مجهزة بمولد كهربائى ومكيفة، وأطعمة من كافة أنواع المعلبات المستوردة . وكل عدة أيام ، تأتيهم سيارة باللحوم الطازجة والخضراوات و« الدلاع*» والرسائل. وبلال يتبرز فى العراء ، يمسح مؤخرته بحجر توفيرا للماء . و أنت هنا يا قناوى تأكل نفسك . وجنود السرية يضحكون من غبائك وحريك البلهاء ، يتندرون بك حزينا تتذكر تصرفاتهم . الرقيب أول جعلوص أساء إليك فى طابور التمام ، قلب الصورة ، شوهك ، تحدث عن الذين يدعون التقوى .. و« يأكلوها والعة » . والرقيب حمد البخيت .. البهلوان السودانى، أشبعك تنكيتا ... ممثل خطير جاء من الجنوب ليشارك فى حلبها . والجنود يتهامسون خلف ظهرك ، يخمنون عن حجم الأموال فى حقيبتك . الأوباش ، حتى البشارى ضحك عليك وانضم إليهم ، وما كان فى تصورك أن هذا الصحراوى ، الذى ينطق بالكاد ويتلعثم معجون بالدهاء. تلعنهم جميعا ، بما فيهم النقيب مجدى قائد السرية ، والملازم حتيتة الزوام .. نائب قائد مكتب الأمن الصحراوى ، ورحومة السنينى .. السمسار .. وضباط الصف وجنود البدو. ستة شهور مجيدة قضيتها محاربا . طار خبر سوطك اللاسع شرقا وغربا ، الذى تناله ضربة أو ضربات .. يتوب مؤقتا .. يقاطع السلك لأيام . وبعد رحيلك ..

---

* الدلاع : البطيخ .

استمرت أفراح المدينة حتى منتصف الليل ، أكلوا « الفتة » وشربوا « الشاهى اللى بالنعناع » ولكل واحد منهم « حكيوة » معك. يهربون منك عند السلك ، فيجدونك كالعفريت تنتظرهم أمام الدروب الهابطة للمدينة.. تعفو عن أحدهم أول مرة.. تنذره ، ثم تتعرف عليه فى المرة الثانية ومهما تخفى وتلثم .. وتخرب بيته . ورغم شدة كرههم لك ، احترموك فى نفوسهم ، لأنك لم تتفتف* منهم » . وكانوا يحتارون فى أمرك ، يتساءلون : «هادا إيش؟ نبى؟ ولى » ، لكن الأنبياء فى عرفهم يساعدون الفقراء ولا يخربون بيوتهم واستفتوا خطيب المسجد .. يسألونه : « يا سيدنا الشيخ .. المهبول هادا .. إيش يدير؟ وإيش أمر التجارة فى كتاب الله بين المسلمين .. واللى نديره هادا .. فى حرام؟» ، فيجاملهم وهو ضيف مدينتهم والمستفيد من هباتهم : على بركة الله يا جماعة.. تسعة أعشار الرزق فى التجارة.

والآن .. خرجت من حياتهم ، استراحوا منك ونشطوا لجمع المال ، الذى نذروه لمقام « سيدى العوام »الذى طردك ببركاته .

---

* التفتوتة : الرشوة .

(٢)

وقائع ما قبل الرحيل

هذه المدينة يا قناوى ، قبل وصولك ، كانت أم الصحراء وبئر نفطها وبنكها المفتوح على البحرى. منذ تفجر البترول في صحراء الإبل وهى تزدهر بالمطاعم والدكاكين والغرباء والأفاقين و المغامرين . أما أهل الصحراء ، بدءاً من العامرية، فقد تركوا الرعى والزراعة والصيد والبحث عن مخلفات الحرب ، وزحفوا للمدينة، يسيرون ليلا في جماعات لحساب التجار ، رحلة شاقة تستغرق الليل كله بين المدينتين ، لكنها مربحة ، أجرهم في الليل يعادل نصف راتبك في الشهر ، وأنت صول في جيش الوطن . أما أهل السلوم ، فيعملون لحسابهم بحميرهم المدربة ، وعندما يذهب الشاب منهم إلى الإسكندرية ويدخل فنادقها وباراتها ومطاعمها .. تنتعش. أفضل غرفة لشيخ العرب ، أحسن مائدة ، أجمل بنت ، أشهر راقصة ، مثلهم مثل أهل النفط .. حتى الإسكندرية كانت تعيش على خيرات السلوم من أغبياء ينفقون ، مهربات تباع ، لعاهرات يتنقلن بأجسادهن ويجتزن السلك . كان هذا كله قبل وصولك . ثم جئت إليهم كالقدر بسوطك واندفاعاتك وجسارتك ، وأقفلت عليهم باب الرزق السهل ولم تفرق بين فقير يسعى لقوت عياله ، وصبيان التجار . لقد نسيت في حربك ، أمر الفقراء المعدمين. كنت تحارب معركتك وتؤدى واجبك ، مستندا على النص : من أخذ الأجر حاسبه الله بالعمل . هذه قناعتك وحدود ثقافتك. فهذا وطن .. وأنت مواطن مكلف أمّا هؤلاء التعساء ، الذين وجدوا في صحراء لا تنبت سوى الأعشاب والصبار ، الذين خاصمتهم الأمطار ، حتى الأرض أبت أن تضخ ما في جوفها من زيت وخصت الجهة المقابلة بكنوزها ، مع أنها صحراء واحدة ممتدة ، والقوم الذين هنا وهناك دينهم واحد وإلههم واحد .. إذن ليس غضبا سماويا على البعض .. وإنما مجرد ضربة حظ .. وهؤلاء الفقراء الذين ليست لهم صنعة ولا حرفة سوى الرعى ولا مراعى ، سوى زراعة الشعير ولا أمطار . ولديهم البحر ويأنفون من حرفة الصيد ، وإنما يعشقون صيد الغزلان التى شحت أو أبادها المترفون الذين يأتون للتسلية ، فلم يجدوا غير « جرابيع » الصحراء يأكلونها مشوية . هؤلاء يا قناوى ، لم يكن أمامهم خيار: الموت جوعا أو احتراف

التهريب. وأنت لم تفكر فيهم كبشر مثل أهلك الفقراء فى صعيد مصر ، ونظرت إليهم كمهربين ، وبلال كان يجادلك وينصحك لكى تفرق بين صبى التاجر والأرملة ، بين حامل البضائع الثمينة وحامل صندوق الشاى . ويفكرك بصعيدك وفقرك. فترد عليه ، تسكته لأن أهلك يعملون فى التراحيل ، يكدون ، يعرقون ، يبنون ، وتلجأ للنص ، يا بلال .. ربنا قال : الأعراب أشد كفرا ونفاقا . وبلال يسكت لأنه يحبك ويدافع عن البقرة . يجد فيك الأمل .. ويراك رجل مواقف . وقد زاملك فى التمد ووادى على وزهر أبو طير ، وعرف من تكون . تؤدى واجبك ولا تتوقع شكرا . لقد منحوك الأوسمة والشهادات والشرائط لكنك لم تسع لهذا ، لأنك محارب ولا تسأل . اهجم فلا تتردد ، امنع التهريب فتمنع . وكان بلال يتمنى لو تعمل عقلك تتوقف لحظة وتسأل : تهجم على من ؟ تقتل من ؟ تمنع التهريب ... كيف ؟ ! قالوا لك ربنا فوق .. فآمنت . كنتما تختلفان عقائديا وتتفقان أخلاقا وسلوكا . ولأنك قناوى . وهذه قناعتك .. فعلتها وقضيت على المدينة. مطاعم أغلقت ، متاجر أفلست ، ومقاهى تشكوا قلة الرواد، وفندق السلوم يجلس صاحبه ينش الذباب وسيارات الأجرة لا تجد ركابا . تذمر شامل عم المنطقة ، كساد بوار ، لدرجة أن رحومة السنينى استأجر إسكندرانياً محترفاً لتصفيتك جسديا لأنه كان مجروحا منك لدرجة الجنون .. يثأر منك أو يموت كمدا . مع أن إزاحتك والتخلص منك .. قتلا أو إبعادا .. كان حلم الجميع ، جيشا وشعبا . وصرت مصدر قلق للنسور الذين هنا ومن يساندونهم وأولاد الذين كلهم .

وفى مكان ما .. اجتمعوا ، تباحثوا ، تآمروا ، تجار المواشى الكبار وتجار الأشياء الأخرى والسمسار العجيب رحومة ومندوب العسكر حمد البخيت ، ومن خلف الستار المحرك والمنظم والآمر والذى بيده مفاتيح الصحراء وابن الصحراء ضابط الجرابندية الملازم حتيتة الزوام والقائد الفعلى لمكتب أمن الصحراء دائما . و أحيانا يكون هناك قائد وهمي بالاسم وفى الغالب ، هو القائد بالنيابة ، ولد معجزة ، داهية وابن عفاريت ، أكثر من مرة يتم استبعاده بناء على تقرير جهات أمنية أخرى .. فيعود ، ومرة فصلوه من الخدمة ثم عاد . والكل يخشاه ويعمل له ألف حساب ، تقريره والقبر ، وكل مصائب الدنيا تتم بمعرفته ، يملك الصحراء برمالها وجبالها وبشرها . وهو الذى أمر بهذا الاجتماع .. لكن من بعيد ، فما من جهة أو أحد أمسك عليه فرصة أو دليل إدانة . يورط ولا يتورط ، ولد لم تأت الولادات بمثله سوى معاوية وابن العاص .

وطرح كبير التجار السوال الأول على حمد البخيت : «إيش اللى صار وليش صار اللى صار وليش ما نبهتونا ، وليش المصيبة هادى ، ووين راحت قروشنا .. وتوا تحلوا لنا المشكلة وأغنامنا هادى المرمية فى الجبال لابد تمر لأن أصحابنا غادى يريدون اللحم . وإن كنتم ما قادرين . إحنا قادرين نشيل المحافظ وقائد السرية .. إيش قولك يا سودانى ؟ » . وحمد البخيت ، يشرح ، يفسر ، يبرر ، ويعد برد مبلغ ثلاثين ألفا من الجنيهات هى إكرامية الصفقة المصادرة ، لكن النقود تم توزيعها ويصعب جمعها وخصوصا من النسور : « لكن شنو .. كلمتى واحدة . هاتوا ورقة وقلم.. أعطيكم كمبيالة .. شيك .. كيف ما تريدوا .. يا زول نحن ولاد السناجك*» . ويقتنع الكبير بكلامه : « هادا مليح .. ونحن بدو وتكفينا كلمة الشرف ونحب أهل السودان .. الفاتحة يا عرب .. » .

أما رحومة السنينى ، فقد عقدوا له جلسة حق عرب وحكموا عليه بالغرامة وتحميله كافة المصروفات الزائدة والتى أنفقت لإنقاذ الصفقة من المصادرة لأنه فشل فى احتوائك أو نقلك أو تحييدك أو رشوتك ، رغم ادعائه الوصول إلى أكبر كبير وهو عاجز عن امتصاص « حتة صول » فقير مرتبه الحكومى ملاليم وأهله يأكلون المش والبصل والبتاو . وسأله الكبير متعجبا : « يا رحومة .. الصول هادا إيش يكون ؟ مهبول ؟ مجنون ؟ درويش ؟ قال لك ما يريد قروش ؟ شاف الورق الأخضر ؟ شاف الدينار ؟ قلت له هاك واشتر أرضا وجاموسا مثل العمدة ؟ قلت له هادى فلوس حلال من التجارة ؟ طيب يا سيدى أعطيه هدايا ... صوف إمبريال .. ساعات. سجادة من الحرير سبحة من كهرمان . إيش يا رحومة ؟ وين عقلك .. وإيش تقول . نريد سمعك ؟ » . ورحومة يرد فى جملة واحدة ناكسا رأسه : « هادا كله صار .. لكنه صعيب .. صعيب » .. ورحومة فعل الكثير من قبل .. رصد ألف جنية لمن يساهم فى قتلك أو نقلك ، وسلط عليك البنت مبروكة. تصور يا قناوى ، صار لك ثمن . وفى هذا الاجتماع التاريخى ، اتخذوا قرارات بشأنك ، جمعوا توقيعات كل مواطنى الصحراء وأبرقوا باسمهم جميعا لكافة المسؤولين: مدير الحدود ، مدير الأمن ، المحافظ ، الوزراء ، وتصعيدا حتى رئيس البلاد. ثم تطرفوا وتجاوزا إلى الملوك والرؤساء العرب ، ثم عبروا البحار

* السنجك : الفارس .

إلى الأمم المتحدة. يحيطون الجميع علما بأن دورية حدود يقودها صول مجنون تعدت على النجع وأطلقت النارعلى البدو المسالمين وصادرت ثروتهم الحيوانية . وأن هذا الصول دأب على ضرب البدو بالسوط لمنع تزاورهم وتواصلهم الإنسانى بأقاربهم فى مدن النفط . وأنه يهتك أعراض البدويات ، ولهذا كله ، يطالبون بالتحقيق الفورى السريع خلال أربع وعشرين ساعة ، وإلا قامت مواجهة دامية ، بين الأهالى وسرية الحراسة ، ويحملون الجميع ، مسؤولية التأخير.

(٣)

زيارة مهمة

كل قوى الشر تتحد ضدك الآن قرروا سرقة انتصارك ليظل وسامك البرونزى مجرد ذكرى . تصور يا قناوى ، بطائرة مروحية جاء من أجلك ، وإن بدت الزيارة شبه تفقدية ، ومثل هذا الجنرال .. لا يتحرك سوى لأخطر المهام ، تخيل ما تشاء .. لكنك الهدف ، والرجل يا قناوى برتبته الكبيرة وزحام مرافقيه أتى لذبحك . أنت الآن أهم من حافة القنال وحرب البقاء . لكنك تحلم ، تتصوره سيستدعيك لينصفك ، فتضرب له تعظيم سلام كما أنزل وتقف أمامه انتباها من حديد، وتقول له بثبات : أنا يا افندم المساعد أول قناوى الشريف الذى شرف وطنه في سيناء واليمن وحصل على ثلاث ترقيات استثنائية ووسام وشهادة تقدير من قائد القوات المصرية فى اليمن ، وسلم عشرة آلاف جنية كانت مرمية فى سيناء ، وأنقذ بر مصر من مجاعة كانت محتملة بضبط كل هذه الأغنام ، وأنا يا افندم .. لا أريد شكرا على واجب أديته ، ولكنى أرجو سعادتك إعادة العريف بلال وثلاثة جنود منفيين فى نقطة « الملفا» لكى يساعدونى فى مهمتى الصعبة ، كما أرجو سعادتك تطهير السرية من جعلوص وحمد البخيت وبالمرة يا سيدى ، قائد السرية وحتيتة الزوام « بتاع المخابرات » ، وأن تأمر سعادتك باعتقال رحومة السنينى . تحلم بهذا كله ، وتتخيل رد الفعل ، سيأمر سعادته بجمع السرية ويقف أمامها متباهيا ويعلنها: بصفتى مندوبا عن القائد الأعلى ، أتقدم بالشكر للمساعد قناوى وأوصى بترقيته إلى رتبة الملازم شرف . هكذا كنت تفكر وغبار الطائرة يعبئ الجو ، تحلم وأنت محاصر بالسرية وممنوع من مغادرتها تحت حراسة شيخ المنصر جعلوص حتى انتهاء التحقيق . ولما جمعوا رئاسة السرية ليمر عليها ، تجاهلوك ، فلبثت تنتظر حتى جاء ، وخرجت من غرفة الحرس ووقفت خلف الطابور .. ترفع يدك تطلب الكلمة .. تمام يا افندم . صوتك يضيع . يتبدد . تمام يا افندم . لا شىء لا أحد يسمعك أو يحس بوجودك . فتشرئب بعنقك ، ترفع يدك لآخر مداها .. وصوتك يعلو : تمام يا افندم أنا المساعد قناوى ومتظلم من قائد السرية وأطلب مكتب سيادتك لأن عندى أقوالا سرية . ينظر إليك باستعلاء وقرف ولا يستجيب ، ينصرف لاستكمال جولته التفقدية ، فتعود لغرفتك وسجادة صلاتك ، تبلبع أقراص منع الإسهال .

ويمضى الرجل بزفته لتفقد السلك. وقال لقريبه قائد السرية أمام الجميع أنه مرتاح الضمير لنظام الحراسة وأمانة الجنود حراس الوطن ، عدا الشواذ والمنحرفين من أمثال بلال وقناوى .

ثم زار النجع والمدينة واستمع للشكاوى وأصدر تعليماته بإنهاء أزمة المدينة فورا لأسباب سياسية وأمنية ، وقال لمن سينفذون توصياته : نحن فى حالة حرب يا جماعة ولابد من تسكين مناطق الحدود ، ولا ينبغى طبعا إزعاج الرئيس بمسألة أغنام وكلام فارغ .. واسمحوا للأهالى بزيارة ذويهم فى البلاد المجاورة بدون إجراءات رسمية .. وأنت يا مجدى لا تشدها فتنقطع ولا ترخيها فتصبح فوضى ، فيرد عليك موافقا : طبعا يا افندم وهذه سياستى ، نغمض عيوننا فينشطون ، فنتركهم يوما ونمسكهم يوما ، فيطعمون أولادهم ونملأ مخازن الجمارك بالبضائع . لقد تسبب هذا الصول الأحمق فى شل الحركة تماما . وليس لدى عساكرى ما يفعلونه سوى الحكى والنم والمشاجرة وغزو الحمير والتفنن فى طلب التصاريح .. ويعدل الرجل الكبير عصا المارشالية تحت إبطه ويتفلسف : الحرب تستنزف ميزانية البلد ، وليس لدينا فائض نبنى به مصانع ومصادر دخل لبدو الصحراء ، فلابد من مساعدتهم .. رغم أنف القوانين .. أليس كذلك يا مجدى ، أم أن لك رأياً آخر ؟! فيرد قائد السرية مؤيدا : كلام سعادتك سليم يا افندم .. لهذا أترك الباب مواربا حتى لا يجوعوا .. فيثوروا ، لكن الصول قناوى حمار ، جلف ، كل يوم نفس الموال « يا عم قناوى .. شوية كده و شوية كده» .. لا يفهم أبدا لا يفهم .

وهكذا يا قناوى تم ذبحك وتمييع قضيتك وتشويه معركتك ، والجنرال أوصى عليك نائب الأحكام الذى سيحقق معك ، أن يتعامل بشدة وحزم ويطبق عليك نصوص القانون بلا رحمة .

أفراح السلوم لا تنتهى ، وهذا يوم نصرهم الكبير .. بركات « سيدى العوام» هلت عليهم ، بينما أنت يا قناوى قاعد فوق سجادة صلاتك ، « تسف الشيح وحلف البر » لوقف إسهالك . كانت المدينة تستعد: خيمة عربية فخمة مفروشة بالسجاجيد ، خيول عربية للرقص ، منشدون وراقصات بدويات ،غزلان صيدت وشويت ، خراف ذبحت ، فأولموا وتفرجوا ، الضيف الكبير وكل قيادات الصحراء

من مشايخ وعمد وتجار وموظفين ومسؤولين . وفى ختام الحفل ، عانقوا الضيف وأهدوه بسخاء وأنت فى غرفتك تصلى وتدعوا عليهم ربنا ، وإسهالك لا يتوقف ، يأكلك الغيظ ، ورجالك فى «الملفا» يأكلون الانتظار ، والعساكر الذين فى البر الغربى يمضغون الصبر، والناس فى الريف والمدن يكبسون بطونهم بقشر الفول الذى يدمر القولون . وكانوا على بعد أمتار منك يأكلون المشوى دون شبع ، فأكلوك نيئا ، تخاطفوك وبلعوك ، « حلوا » بك . فمن بين الذين ملأوا بطونهم ، واستمتعوا برقص البدوية ، وأخذ الهدايا ، تكونت اللجنة التى ستحدد مصيرك ، ومصير أغنام حريك .. وكله بالقانون . زاروا النجع وسألوهم ثم التقوا بجنود نقط الحراسة ، وفتشوا عن ثغرات القانون ، استعانوا بالخرائط القديمة والحديثة ، وسألوا خبير اقتفاء الأثر ، مندوب وزارة التموين ، مندوب الجمارك وكل من أكلها مشوية . وأدلى كل واحد برأيه وتصوره : واستنادا على الفقرة كذا من قانون الجمارك . وبالرجوع إلى قرار وزير التموين الصادر فى ... ، وأنا أقترح .. وأنا أتصور .. وحيث إن .. وترتيبا على . وقال رئيس اللجنة : إذن ، اتفقنا جميعا على أن الصحراء كلها تعتبر مراعيا مفتوحة للبدو دون مناطق محرمة ما لم تصل الأغنام لعلامة الحدود الدولية ، فإذا جاوزتها تعتبر مهربات ، وبما أن الأغنام محل النزاع كانت ترعى فى المساحة المسموحة ، قررنا بإجماع الآراء تخويل وكيل النيابة سلطة اتخاذ القرار . وقال وكيل النيابة دون تردد : إفراج .. إفراج طبعا . وهكذا يا قناوى ، خرجت أغنامك .. بسلامة الله .

(٤)
تحقيقات

باقى الطبخة تمت فى الاستراحة البديعة التى شيدها الإنجليز ، وسكنها روميل فيما بعد ، وحفر أمامها خندقا عند منحنى الطريق الثعبانى .. أمام ميناء السلوم القديم . استراحة رائعة ساحرة ، تشرف على البحر ، تتلقى منها النسمات العليلة وتتحكم فى السيارات العابرة . وكانت فى مجدها الغابر ... بيتا لعظيم ، يستجم فيها بعد معارك الطحن والكر والفر، وآلت الآن لأمن الصحراء. وبينما هناك ، عند حافة القنال ، تنهال قنابل الألف رطل من طائرات الشبح الهمجية ، والرجال ينامون قاعدين بملابس الميدان ، يأكلون بيد واحدة وبالأخرى بندقية ، ويحلمون بصفيحة ماء يغسلون بها أبدانهم المتربة المعرضة للجرب وعيونهم المعمصة من طول السهر. وبينما بلال ورفاقه يعانون من مرارة الترك والقحط فى صحراء «الملفا» ، وبينما أنت تصلى وترنو للسماء تستنجد بربك ليقتص لك من عباده الظالمين ، وإسهالك المهلك لا يتوقف رغم الأنتوسيد والحرجل والشيح وحلف البر؛ كان بالاستراحة ثلاثة رجال يخططون لتدميرك: نائب الأحكام وقائد السرية وحتيتة بك .. قائد مكتب الأمن بالنيابة ، ابن الصحراء ، حفيد معاوية الذى ترقى من عسكرى إلى ملازم أول جرابندية وصار كما هو الآن فوق الجميع ، وما من قائد مكتب صمد هنا ، يورطهم ، يحيك لهم المكائد «فيطبون كالجرادل » ويضربهم « زمبة » متينة وتقريرا بالأدلة ويعصف بهم . ولم يبق سواه والنقيب مجدى .. لأن مصدر قوتهما واحد : الرجل الكبير .

وكانوا الآن، يجلسون على راحتهم فى مواجهة البحر ، وأمامهم مائدة وزجاجات بيرة وكورفوازيه ومزات مختلفة وصواريخ من السجائر المحشوة ، يشربون ويستمعون لأم كلثوم ويتحدثون أيضا عن الوطن والحرب والهموم القومية والحملة الظالمة التى يقودها البعض ضد الضباط ، مع أنهم يبددون أعمارهم فى الخنادق والصحارى بلا ترفيه ولا نساء . يقول مجدى وهو يدعك ما بين فخديه: «الواحد يا جدعان ... قرب يجن .. نفسى فى مرة». فيضحك حتيتة بك ويقول شاتما : « أنت وسخ يا جدع جرى إيه .. ما تشيل إيدك .. حلوة دى .. ما تجيش..؟!» . ويعلق نائب الأحكام ساخرا : « ما عندك الحمير ..! » ، فيرد عليه

مجدى مشمئزا : « أنت مقرف قوى .. طبعا يا عم .. قاعد فى مطروح والمسائل ماشية معاك .. » . ويعتدل حتيتة بك ، يتحدث مقلدا الصفوة ، مع أنه متواضع الأصل وبالكاد حصل على الإبتدائية وتطوع بها : نحن عالم متخلف ومغلق ، الأمريكان والإنجليز فى عز الحرب والدمار تصلهم النساء حتى الخنادق ، والعسكرى الإسرائيلى بجواره مجندة وفى جرابنديته زجاجة الويسكى . فيقول مجدى مستغلا الموقف ليثيره : ما رأيكم .. نجعلها سهرة بالمرة ونستدعى البنت مبروكة « أى حاجة والسلام » . ولإن مبروكة بدوية ، يثور حتيتة البدوى ، يبصق على الأرض ويقول بقرف وغيظ : « يا جدع انضف بقى .. دى عمرها ما شافت الميه .. ودين النبى حدبحها فى يوم علشان ترتاح » . ثم ينشغلون فترة بالشراب والمزة ، وينسون الشيء الذى يعوى بين أفخاذهم من الراحة والطعام وخلو البال ، وينحرفون بالحديث نحوك ، لأنك همهم الرئيسى وشاغلهم ، والعظمة المحشورة فى الحلق . أنت أهم من الحرب والترقيات والأهل وماما وبابا وبنات النوادى عاريات شواطىء مرسى مطروح وسائحات الأوتوستوب اللاتى يجيد مجدى اقتناصهن! ولكل واحد من الثلاثة دور فى موضوعك : واحد يقطعك طرنشات ! وآخر يتبلك ويوضبك! والثالث يقدمك جاهزا على مائدة اللئام . وما يتبقى من كرش الزائر الكبير يتكالب عليه صف الضباط والعساكر والبدو . وقبل طهيك ، كان لابد من تهيئة نائب الأحكام للدور ، حتى لا تأخذه بك رحمة . فعرجا للحديث عن مدينة مساعد المجاورة ودكاكينها العامرة بخيرات الدنيا شرقها وغربها : سلع معمرة ، أصواف ، حراير ، لعب ، والأهم من هذا كله النظارات الريبان والبيروسول والولاعات .. مستلزمات مظاهر الشياكة . ونائب الأحكام يفتقد لأشياء كثيرة من هذه ، فحذاؤه الأسود محلى ، وشراباته من المحلة ، وساعته وماركتها من زمن جده ، ونظارته الشمسية كحيانه ، فتنهد وفتح لهما الباب «الواحد نفسه ..» فألقى إليه مجدى بالطعم :

– اتفضل سعادتك بزيارة على الطبيعة .. لتختار بنفسك .

– نعبر الحدود .

– البركة فى حتيتة بك .

– فى الواقع .. من زمان تمنيت زيارة ليبيا .

- لا تتردد .

- ولكن ..

ثم سكت ! فقدموا له مزيدا من الشراب .. ليفصح وينطقها بلسانه وأنت يا قناوى ما تزال تحلم بالطير الأبابيل ! وبالذى يمهل ولا يهمل ، وتجرى لدورة المياه وتعود لتحشى معدتك بحلف البر. وهم يعملون بهمه! يحاولون تليين المحقق ليطبق عليك نصوص القانون كما نصحه زائر الهضبة وهبط سعرك من آلاف الجنيهات لمستوى النظارة الريبان و«شوية حاجات» وهو الآن متوترا ، يدخن بعصبية ، يشرب بسرعة ، لا لأنه يفكر فيك بهذا العمق ، وسيحقق معك بقانون الأرض بعد تلوينه ، وحالفا على قرآن السماء بعد الاستغفار . إنما يفكر فى الفجوة الهائلة بين محتويات محفظته والأشياء التى يحلم بها : عطور البارفان ، قمصان النوم ، صوف الهيلد والسيلكا وأجهزة التسجيل والراديو وتكنولوجيا المطابخ. ياه .. لابد من السطو على بنك ليبيا فرع مساعد . وقد أدرك المضيفان المأزق الذى يواجه الضيف ، هذا أمر يعرفانه ويمارسانه لأن أحلام الضيوف الرسميين أكبر دائما من إمكانياتهم، وهما دائما يمدان يد العون ، لهذا استمرا هنا رغم العواصف والعيون الراصدة. فيتساءل مجدى مستعبطا : ما لك ؟ فى إيه ؟

- فى الواقع .. لست مستعدا لهذه الزيارة .

- لا تحمل هما للنقود .

- المسألة إننى .

- يا رجل .. نحن إخوة .

- هذا كثير .

- توكل على الله .

ويتدخل حتيتة بك وهو يفتح زجاجة الكورفوازيه النادرة ويصب له كأسا لزوم الفرفشة وإزاحة الحرج وفك عقدة اللسان : انتهينا من موضوع الفلوس .. فهذه مسألة هينة وعليك بكلفتة تحقيقاتك بسرعة حتى يتسنى لنا دخول مساعد قبل أن تغلق الدكاكين أبوابها .

كانوا يتصرفون هكذا ، والطائرات هناك ! تتجاوز خطوط المواجهة ! تتوغل .. تكاد تدخل البيوت . والرجل يقول ! يخطب : ما أخذ بالقوة ... ! والمطرب يغنى عن الأمل الذى معه . وبلال ورفاقه مبعدون ، منفيون فى جحيم «الملفا» .. لا يتم غيارهم ! لا يسمع أحد أناتهم . وأنت يا قناوى لا تجد وسيلة لإيقاف إسهالك ، وهم فى الاستراحة يشربون ، يدعكون بين أوراكهم ، و النقيب مجدى يسرح، يحلم بواحدة من بنات الأتوستوب ، كان محترفا فى اصطيادهن: يجوب الطريق راصدا ، حتى يعثر على واحدة مع رفيقها : يتحايل ، يهدد ، يغرى بإنجليزيته الركيكة ويسحبها للاستراحة : وبالويسكى وبالطعام وتسهيل مواصلة السفر ، يكون ما يكون . ومرة استعصت عليه واحدة ألمانية ، افترقت عن رفيقها بعد مشاجرة وعثر عليها وحيدة تشاور للسيارات ، التقطها وقال لها : هاى هتلر .. فضحكت .. فاستبشر خيرا وأخذها للاستراحة ، استحمت وأكلت وشربت ولا شىء آخر وكلما دعاها للسرير والحب تقول له بحزم : «نوت ناو .. أيام تايرد » واستمرت فى عنادها وكادت تغفو ، فهجم عليها واغتصبها ، فقامت من تحته غاضبة وشتمته بكل لغات العالم وكتبت فى مذكراتها بعد ذلك كلمتين : عرب همج . وأبدا لم يكف عن مطاردتهن حتى لو كن فى خريف العمر أفضل من مبروكة بدمها الثقيل ، إذا عشقت أسعدت ، وإذا أرغمت .. أتعست ، وهى تأتى مرغمة ، يذهب إليها رحومة ويأمرها .. فتدخل الاستراحة وتنام ، تفتح ساقيها وتقول له قرفانه : هيا . لأنها تكره الضباط ورحومة القواد . ومجدى المضطر ، يطئها مشمئزا ويصرفها متقززا ، فترفض نقوده وتسأله غاضبة : «كنك .. إيش بيه* ..؟» ، ومع ذلك ، كانت تتعامل مع عساكر السلك بود ، ونادرا ما ترخصت لأحدهم ، فهى امرأة من نوع خاص لا تعطى إلا لمن تعشق .

وأنت يا قناوى تنتظر التحقيق والعدالة وتجهز نفسك بتقرير مطول به كافة التفاصيل ، ويصعد إليك نائب الأحكام منتشيا ومعه كاتبه ، ليكلفتك ويدينك ويطلع .. «وحين جلس وبجواره القرآن ، واستعرض أسماء الشهود : استبعد الكثيرين واستبقى من أوصى بهم النقيب مجدى . وطلب ملف خدمتك ليأخذ فكرة سريعة عنك ، فلفت انتباهه عدة أمور فى صفك ، أهمها : شهادة تقدير

---

* كنك : مالك .   *إيش بيه : ماذا بى؟ .

وترقية إلى رتبة مساعد ، لأنك عام سبعة وستين عثرت على حقيبة نقود بجوار ضابط شهيد : هى مجموع مرتبات كتيبة ، وقمت بتسليمها ، ولم تتخل عنها خلال رحلة الجوع والهلاك والمخاطر . وكذلك توصيات وترشيحات لرتبة الملازم شرف .. لولا حادث غرب القنال . ولم يجد شائبة ضدك ، بعكس ما صوروك : مشاغبا ، مرتشيا ، هاتكا للأعراض . وسلمه الكاتب تقريرك المطول ، قرأها وأصيب بالدهشة والهلع ، فطارت السكرة من رأسه ، فإما أنك مشاغب فعلا وتحاول تلطيخ الجميع للخروج من أزمتك ، أو أنه أمام مافيا خطيرة ، استولت على الحدود الغربية لحسابها الشخصى . وحين نودى عليك ، ورأى علامة الصلاه فوق جبينك ، والمسبحة بيدك ، احتار فى أمرك . مسح عرقا غزيرا ، نظر للقرآن خائفا . تذكر الحفاوة ، تذكر الهدايا المتوقعة ، تذكر توجيهات الزائر الكبير . تمزق . انشطر ، فليس من الحكمة أن ينصرك على زملائه الضباط ، وليس من الدين مخالفة الضمير . ولسوء حظك ، قبل أن يحسمها ، بدأ مهزلته معك ..

– أنت المساعد قناوى ؟

– افندم .

– غريبة .

– ماذا ترى سعادتك ؟

– حسبتك مثل خط الصعيد .

– والآن ؟

– ولا حاجة .

– الله يسامحك يا افندم .

– فتوة حضرتك ؟

– كنت أؤدى واجبى .

– وتضرب الناس بالسوط ؟

– وهذه ليست المشكلة .

– إنـى أسمعك .

– إنهم يا سيدى يخربون الديار .

– وأنت حاميها ؟

– على قدر استطاعتى .

– بتكسير الأوامر ؟

– الضرورة يا افندم .

– لكنك فعلتها من قبل فى السويس .

– ونحن هنا الآن .

– وتحرك دورية بمزاجك .

– قلت لسعادتك فى التقرير عن السبب .

– اسمع منك .

وتنيـر له الطريق ، تفسـر ، تبين ، تكشف المستـور ، تحكى لـه من الأول : المعلومات التى سر بها إليك الدليل البشارى القائد الذى تبخر بعد المهمة الغامضة التى قـيدك بهـا فـى السرية العريف بلال ورفـاقـه . الثعلب السودانى الداهيـة جعلوص . حتيتة بك . والأغنام يا افندم ، ثروة البلاد ، وأنت لم تسكت .. ولن .. هكذا خلقت . وتقول لـه الكثيـر ، تحـاول جذبه لصفك ، للحق ، للعدل ، لكنه لا يسمعك ، باله مشغول بالمدينة المجاورة . يتـابعك بشـرود ، يعلق بآليـة «هه .. وبعدين .. هه .. يعنى كده » ، مشغول عن ثرثرتك العقيمة بالريبان ، الساعات ، الولاعـة الرونسون ، الجوخ لأبيه ، اللعب للولد ، دانتيل الفرح لأختـه . وأنت تثرثر، تؤذن لصم ، فبعد كل الذى قلته .. يسألك :

– قلت ماذا يا عم قناوى ؟

– لا شىء يا افندم .. لا شىء .

– نعود لتحقيقنا .

– وهل كنا نلعب السيجة يا افندم ؟

– أقصد للأوراق ..

– اتفضل سعادتك .

– ذكر الشهود أنك سلبت الأغنام من نجع العرب ؟

– إننى أول من يقف أمام سعادتك .

– أقصد التقارير والمعاينة الميدانية .

– تقرير من يا افندم ؟

– أمن الصحراء .

– أكاذيب ؟

– والمعاينة .

– ألاعيب .

– تأدب .

– وهل أخطأت فى البخارى ؟

– تتهم بلا دليل.

– ومن الذى عاين يا افندم.

– لجنة كنت ضمنها.

– سعادتك.

– والنقيب مجدى.

– الله أكبر.

– وحتيتة بك.

– «تبقى كملت» .

– ماذا تقول؟.

– علىّ العوض يا افندم.

– بماذا تلمح ؟!

- كل الشهود سيكذبون.
- كيف خمنت ؟ ولماذا ؟
- ضغوط يا افندم.
- ممن؟
- أصحاب المولد.
- حدد ؟
- سأفعل أمام جهات أخرى.
- ممتنع عن الإدلاء بأقوالك.
- سعادتك منحاز لهم.
- أنا؟
- ومتظلم منك ، لأنك تجاهلت تقريرى ، وكاتبك لا يدون بدقة والمسألة فيها إنّ.
- متظلم منى أنا ؟
- نعم يا افندم .
- اشرب من المتوسط .

(٥)
الدليل عبد الرسول البشارى

اشرب يا قناوى من المتوسط ، فهو على بعد أمتار ، وإن لم ترتو .. فعليك بالأحمر والأسود والميت ، والأفضل لو تبحر للمحيطات ، تعب منها وتسهل . اشرب يا قناوى من «كيعانك» مثلما شربت من قبل كل المرارات والسفالات ، ولعقت عرقك فى سيناء أول مرة ، وفى الثانية لحست الندى ، وفى الثالثة شربت بولك . وقد سقاك الدليل البشارى مقلبا شديد الملوحة ، هذا الصحراوى الهمجى الذى ينطق العربية بالكاد ضحك عليك وأفلت بالحمص . لو حكيت قصته معك فى مجالس الأشراف كيف تقول لهم أن بشاريا بنص لسان ممن يفدون بالجمال إلى سوق دراو ، ويضحك عليهم أتفه ولد ويبيع لهم منقوع البراطيش فيظنونه دواء لوجع البطون ، وتجردهم أفشل غازية من ثرواتهم وتسحبهم لخرابة لها بابان وتهرب ، بشارى من هؤلاء السذج ، ضحك عليك وجعلك جسرا لأطماعه .

والآن ، يستعد لتوجيه القاضية إليك . وقبل مثوله أمام المحقق .. اجتمع مع باقى أفراد العصابة ، ووقعت بينه وبينهم مشادة عنيفة كادت تنتهى بمعركة بعد سب الأصول والجذور وخصوصا مع جعلوص الطين وحمد القطران ، وكادت البنادق تخرج من السلاحليك وهات يا ضرب . لأن جعلوصا كان يظن الدليل سهلا ودرويشا .. فأكل حقه . لكن حمد البخيت ، الثعلب المحنك ، النمر ، يتدخل، يسحب الدليل وجعلوصاً لغرفة جانبية ويحل الخلاف بالتهديد والسياسة: «أنت يا جاه الرسول يا ود عمي . . نحن قرايب وخلينى أحل موضوعك أنت داير شنو ؟ قروشك بالمليم ؟ وأنت يا جعلوص .. قروش الزول وين ؟ ما فى دكران ياكل داكران * .. والطمع ودر* ما جمع . نحنا كم واحد ؟ خلونا من العساكر . وأنت لك كم بشارى فى الحساب القديم ؟ ألف جنيه . طلع يا زول .. هز جيوبك .. وأيمان المسلمين هالساعة تقوم القيامة لو ما دفعت .. ادفع يا زول. خلى عندك دين الزول الدليل أخونا وود عمنا ..» . ووجه حمد البخيت تعنيفا حادا للجماعة كلها ، الذين يهددون المسائل بالتدمير وسوء العاقبة وأصر الدليل – قبل أداء الشهادة – على تحديد نصيبه بوضوح فى الصفقات التالية ، وضرب دبشك

---

* دكران : رجل .   * ودر : بدد .

البندقية على الأرض وقال بعصبية : « ما في زول يأكل حقي .. أنا جاه الرسول زول الجبل والسيف والفروسية وناس زينب .. ما يقدروا ونشوف » . وقال حمد البخيت لجعلوص مؤنبا : « يا زول ما في داعي لحركات النص كم بتاع ناس مصر .. حقي وحقك . ما قالت لكم الولية المغنواتية .. ما تروحش تبيع المية في حارة السقايين وانا براي* ما عندي مشكلة .. شبعت والحمد لله .. وأول ما تدريك .. يا فكيك للسودان وأنت يا جعلوص لوين تمشي .. ودا آخر كلام .. » .

وهكذا تم الاتفاق على مساواة الدليل بالصفوة من الحالبين . ثم نادوا على باقي الجماعة من العرفاء والجنود القدامى وتلوا جميعا الفاتحة ووعدوا السيدة بنذر عظيم حين تنتهي المشكلة على خير دون خسائر وضحايا . وكل واحد من الحاضرين ، لم ينس ولي بلاده ، استجار به ووعده بنذر من ماله الخاص ، بدءا من مقام سيدي العوام الذي في مطروح ، وشيخنا الرعاش في سيوة ، وسيدي الشاذلي حامي سكان البحر الأحمر ، وسيدي المرسي أبو العباس حافظ الإسكندرية من السيول والأنواء وغزاة الشواطيء ، ومرورا بالسيد البدوي الشافي من ديدان البلهارسيا ، ووصولا للسيدتين زينب ونفيسة وسيدنا الحسين حماة القاهرة من غارات الفانتوم ، وتوغلا حتى الصعيد ، واحتاروا .. مع من سيقف الشيخ عبد الرحيم القناوي ؟ مع الصول أم السائق ؟ ودعوا في جلستهم التاريخية العظيمة بخراب بيت الخائن وابن الحرام . وطلبوا النصر من عنده لرفاقهم الذين في السويس . وصلوا صلاة شكر مقدما . ثم تقدم الدليل للشهادة وهو فرحان لانتصاره على أولاد الشياطين الذين ظنوه بريالة لمجرد كونه بشاريا جبليا ، مع أنه وهو شاب كان يضحك على أكبر تجار سوق إمبابة و يبيع لهم الجمال الجربانة . وينسون أن الثعالب موطنها الجبال لا المدن . ولما دخل على المحقق ، كان مستعدا بلغته السرية العجيبة التي يستهبل بها على أهل المدن وأولاد الذين «بتوع حارة السقايين» لكي تميع المسائل ولا يمسكه أحد ، وقرر تحويل التحقيق إلى سيرك . ونائب الأحكام يجهل أنه أمام شيطان جبلي :

– اسمك ورتبتك ووظيفتك العسكرية ؟!

– أنا ؟

---

* براي : وحدي .

– وهل أمامى غيرك ؟

– «أومباشى .. زول الجُرة ».

يتوقف الكاتب عن التدوين وينظر للدليل مستفسرا ، فيتدخل المحقق موضحا حسب تصوره :

– اكتب ..عريف سقاء.

ينفعل الدليل .. ويقول مقاطعا :

– يا زول .. جُرة .. ما جَرة ».

– يعنى ماذا ؟

– جُرة بتاع الرجول .. ما بتاع الموية.

– وضح من فضلك ؟!

– أنت يا زول تمشى بشنو ؟

– بأقدامى طبعا .

– كراعينك* يعنى ؟

– واحدة .. واحدة .. حتى أفهم .

– أنا يا زول أمشى ورا الكراعين .. الرجول يعنى .

– آه .. فهمت .. تقتفى الأثر ؟ هذا قصدك ؟

– أيوه .. دليل .

– وما هى مهمتك ؟

– شنو؟

– ماذا تعمل ؟

– كل صباح الله .. أشوف الجرة.

– اشرح .

---

* الكراع : الساق .

- هروف* هرج* .. همار* دهل .

- ماذا تقول؟

- همار مصر .. هروف ليبيا .

نائب الأحكام انفجر ضاحكا لهذه اللغة التى يتعامل معها لأول مرة ، والدليل واقف فى ثبات لا يرمش له جفن أو يبتسم . والمحقق كلما رآه ، يحس كأن يدا عابثة تزغزغه فيضحك . ثم تماسك .. وطلب مترجما ، فرشحوا له حمد البخيت للمساندة ولتقارب بيئتيهما ، لأن البشارى يستخدم اللغة السودانية المطعمة بعامية مصرية مكسرة . وحمد البخيت يدرك جيدا أن البشارى يستعبط ولجأ للغة المواقف والإضحاك والسخرية وتحويل سرادق العزاء إلى مسرح كوميدى . وسيشاركه مهرجان التمييع ، وبدأ يشرح لنائب الأحكام : فهذا دليل السرية الرسمى ويقوم بقص الأثر يوميا على امتداد السلك الشائك من نقطة البحر حتى سيدى عمر، وهى المنطقة الساخنة من السلوم بطول خمسين كيلوا مترا تقريبا ، ويقوم بالإبلاغ عن الجرر المشبوهة والمقصود بها : حمير أو جمال محملة اجتازت الحدود إلى مصر ، أغنام أو مواد تموينية دخلت ليبيا ولم يتم ضبطها أو الإبلاغ عنها بمعرفة عساكر الدرك ، وهو بذلك يحدد مصير القضايا ، وليس هناك من يطعن فى قراره سوى دليل أقدم . ونائب الأحكام ما زال أسير هذه اللغة المضحكة ويريد سماعها ، أسكت المترجم وتوجه بالسؤال للأراجوز ، التحفة الباقية من العصر الحجرى :

- وهل يمكنك عدم الإبلاغ ؟

- الله شاهد .

- ومن الذى يراجعك ؟

- الله ذاته .

- وأين تعلمت المهنة ؟

- من الله خلقنا ونحن ناس جُرّة .

---

* هروف : خروف .   * هرج : خرج .   * دهل : دخل.

– وهل يمكنك تحديد الأثر بدقة ؟

– كده أقيف أمشي وأنا أقول ليك أنت دكران .. ولاّما دكران .. لكن دكران من وين ؟

حمد البخيت قعد على الأرض من شدة الضحك والدليل شاركه ببسمة خفيفة . والمحقق والكاتب حائران . وحمد ما زال يضحك ، فهذا الدليل المجنون دخل المنطقة الخطرة وسب المحقق فى رجولته .. يضحك بشكل هستيرى مما أثار المحقق فزعق شاخطا : إنتباه يا رقيب .. إيه ده ؟ قلبناها سيرك واللا إيه ؟ أفهم بقى .. قال إيه العبيط دا ؟! حمد البخيت وقع فى المطب . يعمل عقله بسرعة ويصل لصيغة معقولة : يقصد سعادتك ، إنك لو مشيت ، دون أن يعرفك أو يراك مسبقا ، يستطيع تحديد هويتك بدقة .. إن كنت عسكريا أو مدنيا ، فارغ اليدين أو محملا ومعك حقائب ، رجلا أو امرأة .. ولقد اختصر هذا كله فى جملة بسيطة ، ولهذا ضحكت . والدليل يبتسم من قدرة حمد البخيت على التفسير الملفق . ونائب الأحكام بلعها وتوجه بالسؤال للدليل :

– لهذه الدرجة من الدقة ؟

– دا شغلنا يا زول ، أنت من ناس سين وجيم وصفر ومعانا واحد ووين تسمعوا عواء الدياب فى مكة وأنتوا فى عكا .. تقولوا يا فكيك* . ونحنا ناس جبال .. رجال يعنى .

حمد البخيت يقهر ضحكته ، يكتمها بالقوة ، لو أطلقها الآن لفضحته وفضحت هذا البشارى الأخرق .. الذى خرج عن حدود اللياقة .. فينظر إليه محذرا. ونائب الأحكام يشعر بأن ثمة تجاوزات ، لكنه يعديها ويواصل :

– ألا تخطئ أبدا وتخلط بين أثر وآخر ؟

– يا زول .. حتى رجول العفاريت أعرفها .

– وهل للعفاريت أرجل ؟

– أمال بيمشوا كيف ؟

---

* يا فكيك : الهرب .

- وهل أبلغت المساعد قناوى بموضوع الأغنام مسبقا ؟

- والخبر جبته من وين ؟

- أنا الذى أسأل ؟

- وقرآن الله ما حصل .

- وما أقوالك ؟

- القول قول الله .

- أقصد فى موضوع الأغنام ؟

- اليوم داك .. دهول للمصر ما فى .. هروج من المصر ما فى .. والله الوطن بالأمر .

- يعنى ماذا ؟

- ما فى كله.. راقد نوم .

- تقرير المساعد قناوى أشار بوجود تجريف بالبطاطين لتغطية الآثار ؟

- الزول قناوى .. زول صفا وانتباه .. ولليمين انظر وللخلف در .. وما زول جرة .. أنا زول الجرة إن قلت ما فى .. يعنى ما فى ..

- ومن أين أتى قناوى بهذا الكلام ؟

- قناوى زول مشاكل .. ومخه مارق .

- وأين كانت الأغنام إذن ؟

- عند أهلها .

- أين ؟

- وأهلها يكونوا وين ؟

- أنت أدرى .

- أنت ما عندك أهل ؟

- جرى إيه يا حيوان .. أنت حتخرف ..؟

- يعنى عندك ؟

- طبعا .

- وقاعدين فى السلك وللا عندكم حوش ؟

- عندنا ..

- كلام سمح .. والغنم عندها أهل .. ما غزلان ولا دياية .

- كلام جميل .. أين ؟

- ما قالوا ليك فى النجع ؟

- المساعد قناوى يتهمك بالتستر .. لماذا ؟

- جنبك شنو؟

- القرآن ..

- كده إدينى وأنا أحلف .

- هل لديك أقوال أخرى ؟

- أقوال شنو؟

- أى إضافة تراها ؟

- أيوه .. عندى كلام كتير .. الزول قناوى دا .. زول شر .. زول كلام .. يقرا كلام الله وياكل حق الله وحق خلق الله .. ويتاجر فى كلام الله .. وقال لى يا بشارى إن شهدت ضدى .. ما حد يعرف ليك جرة أنت وأهلك، ناس قنا يمشوا كاسحينكم من عند الشيخ الشاذلى ، للسكرى ، لأبى غصون ، لحماطة ، لبرانيس .. لمن يقطعوا جذورنا من حلايب والشلاتين.. دا شنوا دا يا افندم .. نحنا في الجيش واللا في الصعيد ؟ .. وأنا داير* تكتبوه إقرار هالساعة* .. واللا أنا كمان أمشى وأجيب أهلى من السودان وتبقى مصيبة.

وهكذا يا قناوى يتم ذبحك على البطىء .. وأنت قاعد تصلى لربك وتدعوه لينصرك . بينما هؤلاء الهمج .. يتآمرون ، ويحكمون حولك الحصار ، الفلوس يا

---

* داير : أريد .   * هالساعة : الآن .

قناوى حولتهم إلى وحوش ضارية ، والداهية جعلوص الذى يضع القائد فى جيبه ولبن البقرة فى كرشه جند كل العساكر وصف الضباط ليكونوا عيونا عليك ، على القائد ، على بعضهم. ويفرض الإتاوات على النقط والبدو . هذا الداهية هو الذى يرتب الشهود ويبرمجهم واختار غرفة التحقيق لتكون بجوار مكتب اللاسلكى والتليفونات .. وجند عريف الإشارة لأغراضه : يتصنت ، ينقل له حتى الإشارات الشفرية .. واستطاع توصيل جهاز حساس لغرفة التحقيق لالتقاط ما يدور . وها هو السائق بلدياتك ، جهزوه وحفظوه وسيشهد كمجرد ببغاء .

(٦)
الســـــــائق

هذا بلدياتك ، أقرب الناس إليك وينتمى لأعرق قبيلة ، لكنه خائن وخبيث . منذ وصولك ، دسوه عليك ، استقبلك فى المحطة ، حمل حقيبتك ، أخذك بالأحضان ، اختار لك غرفتك ، سكن معك ، شاركك الطعام ، واعتبرك كبيرا وسندا لأبناء الصعيد فى السرية . الملعون كان عميلا مزدوجا من البداية ، قال لك ولهم ، أكل معك خبزا وملحا واغتالك ، عرفوا أسرارك ، أحلامك ، كوابيس نومك ، حتى دعواتك فى الصلاة ، يخرج معك في الدوريات ويشي بك ، يصفق لك ويطعنك ، ويلهف بدل النصيب .. نصيبين . أعمته الفلوس فخانك ، خرج من جلده ، ضرب تقاليد القبيلة بالميرى . وبلال كان يدعوه بروتس و أنت تجهل من يكون .. فقالها لك صريحة جارحة حين فشلت واحدة من الكمائن المهمة المتقنة : يا عم قناوى .. ماذا عن السائق ؟ وأنت تدافع عنه ، لا بصفته بلدياتك، إنما لأنه يأكل معك فى طبق واحد ، يصلى خلفك . وأنت مؤمن ، لا تأخذ الناس بالشبهات وتلوذ بالنص : إن جاءكم فاسق بنبأ .. ..! وأنت تحب بلالا ، لكنه لا يصلى ، فتفاضل بين الإثنين ، يتغلب عليك حسك الدينى ، فيغضب بلال ويثور: يا عم قناوى هذا خائن .. خائن . فترد عليه معاتبا : عيب يا بلال هذا هوارى مسلم مواظب على الصلاة وبلال لا يكف عن هياجه : يا عم قناوى ، الصلاة ليست دليلا على الإخلاص ، الاستقامة ، التراحم . ويعود بك للتاريخ .. يهاجم رموزا تحبها : قتلوا عثمان ، تآمروا ضد على ! قتلوا الحسن والحسين ، دسوا السم لعمر بن العزيز ، أخرجوا جثة هشام بن عبد الملك من قبره ، حرقوها ، ذروها فى الريح . فتقاطعه وتخاصمه ثم تصالحه لأنك تحبه ، لأنه رجل ، لأنه لا يحلب، أنت نادم الآن : ليتك صدقته . هذا الخائن انكشف ليلة حربك المجيدة ، كنتم تكتمون أنفاسكم وهو يسعل ، أضاء كشاف السيارة متعمدا لتنبيههم ، لكن الحظ خانه وحالفك ، الجبان . والآن يساهم فى ذبحك رسميا ..

– أنت سائق سيارة الدورية ..

– افندم .

– احلف اليمين .

– والله العظيم أقول الحق .

– ممن تتلقى التعليمات ؟

– قائد السرية شخصيا .

– ومساعد أول السرية .. ماذا يعمل ؟

– تلك أوامر القائد .

– والسبب ؟

– لا يثق به .

– ولماذا تحركت تلك الليلة مع المساعد قناوى إذن ؟

– بالأمر يا افندم .. وقد علمونا إطاعة الأمر الأخير ولو غلط .. ثم التظلم بعد ذلك ؟

– وأقوالك ؟

– المساعد قناوى هذا يا افندم بلدياتى وأنا أدرى به من غيرى وأعرف كل أسراره : هذا يا افندم رجل ألعبان خطير وواعر* وله معاملات ومسائل مع البذو، كان يصلى بنا ويلعب من خلفنا .. والناس فى البلد يشيعون أنه اشترى طين وجاموس وكتبها باسم أولاده وأقاربه، ويقولون ...

– ادخل فى الموضوع من فضلك .

– الموضوع .

– واقعة الأغنام ؟

– فى تلك الليلة .. أمرنى بالتحرك .. تحركت . اطلع ناحية البحر .. طلعت، ولع الكشافات .. فعلت . ثم أمرنى فجأة بالدوران للاتجاه المعاكس بدون أنوار . وسرنا يا افندم نتخبط فى الحفر والمطبات حتى كدنا نهلك : لكن لما أمرنى بدخول نجع العرب ، رفضت وكسرت «الأمر ميت حته» .

---

* واعر: صعب .

- لماذا ؟

- لأن المناطق السكنية من سلطة شرطة السلوم.

- هذه ملاحظة قانونية .. كيف تنبهت لها ؟

- يا افندم .. أنا .. هم .. الـ..

- ما علينا .. أكمل .

- لكنه أسكتنى آمرا ثم تركنا وذهب للنجع لمساومتهم ، ولما فشل جاء وأمرنى بالتحرك .. فطلبت منه أمرا كتابيا . فرفض وأنا صممت ووقفت بالسيارة مكانى. فقاد العساكر للنجع وذهب إليهم راجلا وصادر الأغنام وشوى ظهور الناس بالكرباج وأمر العساكر بإطلاق النار عليهم فى المليان .

- ركز معى .. أين كانت الأغنام ؟

- والقرآن المجيد فى النجع ..

- المساعد قناوى ذكر أنك أضأت الأنوار متعمدا .. وسعلت ؟

- يا افندم .. لا يوجد فى الميرى بند يمنع السعال .

- لكنك تعمدت .

- كان عندى برد يا افندم.

- والأنوار؟

- والقرآن المجيد.

- دع القرآن وشأنه.

- يا افندم ..

- انتهينا . هل لديك أقوال آخرى ؟

- نعم يا افندم .. أريد من الحكومة أن تفتح عينيها جيد ا لأنه ناوى يشعلها بين الأشراف والهوارة .

- اطمئن ..

- دعوه يوقع على إقرار كتابى.

- سنفعل.

- شكرا يا افندم وربنا يوفقكم لرد الحق إلى أصحابه.

(٧)
صلاة جماعية

عندما نودى لصلاة المغرب ، وتوجهت كعادتك لتؤمهم ، رأيت وجوها ثلاثة بين المستعدين للصلاة ، قائد السرية الذى لم يركعها فى حياته . هذا السكير الذى لا يفيق .. جاء يصلى وأنت الإمام . وحمد البخيت ، مطارد الغلمان الذى يحلف الأيمانات كذبا ، يقف فى خشوع . والرقيب أول جعلوص الذى أفطر رمضان علنا ، ويسب الدين فى اليوم ألف مرة يجلس منتظرا . تعجبت ثم تراجعت وعدت لغرفتك تصلى وحدك وتناجيه وحدك . أهذا ممكن ؟ ماذا حدث ؟ أيضحكون على ربنا بعد أن ضحكوا على الحكومة ؟ ! أيغفر لهم ؟ سبحانك قادر على كل شيء ، حتى نائب الأحكام استغرب مثلك حين رأى السرية كلها تصلى بما فيهم حارس المدخل الرئيسى ، واندهش من وجود قائد السرية بينهم . وكان بين المصلين أيضا من وقف أمامه وحلف على القرآن كذبا . وتوقف التحقيق حتى ينتهوا من صلاتهم . قائد السرية ؟ هذه نكته .. ويتساءل : أهى صلاة شكر أم استغاثة ؟! هذا الموقف يذكره بأيام الامتحانات الصعبة الإعدادية والثانوية العامة: كانوا ينهمكون فى صلاة جادة ، الذى ينجح.. يستمر لأيام، الذى يفشل.. يتوقف ، يرنو للسماء حائراً . تلك كانت مرحلة تأرجح واضطرابات عقلية ، أهذا موقف هؤلاء القوم ؟ وكيف فصلوا بين الدين والمعاملة ؟ كيف يحلفون على كتاب الله كذباً ثم يصلون له ؟ وركبه شيطان العبث ، بوسعه تعرية أقنعتهم .. فقط لو ضيق قليلا على الشاهد القادم . فهل يفعلها ويتخلص من الهم الرازح على صدره ؟ ملعون أبو الهدايا وحفاوة الضباط وتوصيات الرجل الكبير والأسباب الأمنية والسياسية من يحمى من ؟ ولماذا أقام البدو تلك الوليمة وبعثروا الهدايا ؟ ولماذا سيدفع الضابطان ثمن هداياه ؟ ولماذا هبط الرجل الكبير لمستوى «حتة صول» وحرضه عليه ؟ فهل يقدم على الخطوة الانتحارية وخصوصا أنهم اختاروه ليكون آخر الشهود ؟ يفكر .. يفكر حتى وقف الشاهد أمامه كالنطع. ثور حقيقى هل سأله وتلقى ردا ؟ لا يدرى ..

– ماذا قلت يا دفعة ؟

مؤامرة خبيثة يا قناوى ، فهذا ثانى شاهد من قنا ، اختاروه عن عمد ، جلفا ، خاما ، أميا . هؤلاء الجبناء يطعنونك بأهلك حتى لا تزعم تحامل الأغراب

ضدك. ليس سودانيا ولا بدويا ولا من المدن ولا من كل الصعيد : بالذات من قنا. جعلوص اللئيم فعلها . فهل بوسعك الاحتجاج ، ألم يساكنك السائق ؟! ألم تختر هذا الحلوف بنفسك ليكون ضمن أفراد الدورية؟ إنه يقف أمام المحقق كاللوح ، مربكا.. مرتبكا ، يتهته ولا يقول جملة مفيدة . فهكذا برمجوه ووجهوه ، الاستعباط والتحدث باللهجة الصعيدية مثلما أتقنها الدليل البشارى . وللمرة الثانية يسأله المحقق ولايخرج بشيء ، ويتعجب .. كيف لمثل هذا النطع بحراسة البلاد؟ كيف يتعلم الأسلحة الحديثة وطرق الوقاية من الحرب الكيماوية ؟ كيف درّبوه على خطوات السير البسيطة ؟ وهل هذا جندى أصلاً؟ صعيدى مغلق تماما .. لا فتح ولا انفتح ، يبدو مضطربا ، متململا : إن جلس .. قام فزعا وكأنه داخل شرك.. والكلام انحشر داخل حلقه . فأمره بالتريث والتقاط الأنفاس .. والجلوس باسترخاء لفترة وتدخين سيجارة لو أراد ..

– كيف الحال الآن؟

– عال يا سعادة الباشا .

– يكفينى أفندم .

– وليه عاد وأنت سيد الباشوات .

– ماذا بك ؟

– خايف يا باشا .

– ممن ؟!

– بلدياتى .

– هل هددك؟

– قال خبر إيه عاوزنا نشهد معاه زور أنا والسواق وشتمنا ، وبهدلنا وقال لنا والله يا أولاد الفراطيس لو واحد فيكم فتح خشمه بكلمة لاخلى الدم للركب فى البلد .. وطبعا يا باشا «كلام يخوف» .

توقف نائب الأحكام قليلا .. متأملا هذا المخلوق البدائى .. محاولا الغوص خلف الظاهر ، فهل هذا المخلوق . . عفوى وطبيعى كما يبدو ؟ بدأ يشك .. ومع

ذلك ، طمأنه بأن التحقيق يجرى فى قضية عسكرية ليس لها علاقة بالنزاع القبلى ، وطالبه بالتشجع وقول الحق .

– اتفضل .

– «يومها يا باشا .. كنت هلكان ونمت تقول قتيل .. قام قناوى شد البطاطين من بدنى .. وقال قوم .. قمت .. اركب .. ركبت .. عمرّ السلاح .. عمّرت .. اضرب .. آبىّ .. أضرب فى مين يا بوى؟

– وهل أطلقت النار فعلا ؟

– فى مين يا باشا؟ العدو هناك .. ودول مسلمين .. يا خال. واللاعلشان بدو وبياكلوا الجرابيع ؟

– قناوى أمرك بإطلاق النار..؟

– وهاكدب ليه؟

– أ هناك شهود ؟

– الدنيا كلها .. وربنا .

– وقال لك .. اضرب فى المليان؟

– والقرآن المجيد ..

– اخرس .. ولا تحلف .

– آبىّ .. وآدى خشمى .

– وأين تم ضبط الأغنام؟

وأشار العسكرى بيد فى اتجاه النجع ، والأخرى يسد بها فمه فى مشهد تمثيلى مضحك ..

– انطق يا بجم .

– آبىّ .. أنطق كيف واسكت كيف ؟

– أين يا تحفه ؟

– هناك ..

– حدد بدقة ؟!

– ما فى الخريان .

– أين ؟!

– الدنيا كانت ليل .

– نهارك أسود من ليلك .. إن لم تعتدل .. سأقوم وأعدلك يا ابن ستين كلب .

– ما تصبر عليّ عاد ..

– أين بالضبط ؟ عند السلك ؟ فى النجع ؟ فى السماء؟

– مش قالوا لجنابك فى النجع ؟

– اسمعها منك ..

– زى ما قلوا يا باشا .

– هل سمعت نباح كلاب ؟ هل رأيت بيوت النجع؟ هل طاردكم البدو ؟

– عيونى كانت وجعانه ومدغمشة ووداني .

– أين يا دفعه ..؟

– صبرك عليّ عاد ..

– أمامك دقيقة واحدة.

– سعادتك كربان قوى ..

– دقيقة فقط .

– واعمل إيه يعنى ؟

– تشهد بالحق ..

فرصتك الآن يا قناوى فى النجاة كبيرة .. بينك وبين الانتصار خطوة واحدة: لأن نائب الأحكام وصل لقمة هياجه وغضبه : اكتشف الخدعة وتأكد أنهم وضعوا فى طريقه شهودا من الممثلين ، فهذا النطع .. يضحك عليه باللهجة الصعيدية المفتعلة ، حاوره وراقبه وهتك قناعه ، فركبه العناد وقرر إنقاذ نفسه وهيبته .. وهو على أعتاب القفزة الأخيرة .

أما بلدياتك يا قناوى ، فهو أيضا ممزق بينك وبين الفلوس ، والفلوس كما تعلم تسوى الهوايل .. الورق الأخضر يا قناوى يراه البنى آدم فينسى دينه . وهو الآن يملك ما يزيد عن الألف بقليل فى خبيئة دسها بجوار الخيمة ، ويحلم بأرض ودار وجاموس ، ومن لا دار له لا قيمة له . لو شهد معك .. لقذفوا به إلى «الملفا» فتتبدد أحلامه .

ولو شهد ضدك صراحة .. فالويل له من عذاب الضمير ومن أهلك الذين سيتربصون له . ولهذا تمزق ، ارتبك ، بدأ يخرج عن الدور المرسوم . خطوة واحدة من أحدهما فتنجو . لكن الحظ خانك .. وهذا قدرك . لقد جاء قائد السرية يتعجل نائب الأحكام ، لأن حتيتة بك ينتظر فى السيارة . فضاعت الفرصة .. شخط نائب الأحكام فى كاتبه بنرفزة وغضب بينا هول ما يعانيه :

- اكتب يا أخى وخلصنى من هذا الحيوان .

- أكتب ماذا يا افندم ؟

- فى نجع الزفت .. ودعه يوقع أو يبصم .. هذا عسكرى أحمق ولا أدرى كيف جندوه أو طوّعوه .

(٨)
ســهـــرة همـجـيــة

ذبحوك يا قناوى وأنت قاعد فوق سجادة صلاتك تقرأ المعوذتين وسلمت أمرك له يدبرها بمعرفته ، لكن لا صلاتك أنقذتك من همجيتهم ، ولا أوسمتك ومواقفك شفعت لك . تذبح دائما وأنت على حق ، مرة عند حافة القنال وأخرى فوق هضبة العذاب . وما كان بوسعك الصبر وأنت ترى بعينيك ابن اللوطى يعرى لكم مؤخرته ويضرط ، أو تقبل الفلوس الحرام وأنت مؤمن . لكن هذا ليس زمانك ، إنما زمن الأقنعة والفوضى والتهريج .. تصور .. جعلوص أمّهم فى الصلاة مكانك .. وحمد البخيت البهلوان يفتى فى الدين ويزعم أن التهريب تجارة ولم يحرمه الإسلام . وقائد السرية صلى معهم فوق جنازتك ، ونائب الأحكام .. القاضى ، حلف اليمين وشيعك لمثواك الأخير . وبينما أنت هنا .. يبيدك الإسهال وتتوقع نجدة السماء .. كان الفرسان الثلاثة قد وصلوا لمدينة الهدايا والثراء .. ولضيق الوقت ، ينتقلون كالمجانين بين الدكاكين .. يشترون أى شىء وكل شىء ويكدسونها فى حقيبتين . وأطفال شياطين من مدينة الهدايا يتابعونهم ، لأنهم يترصدون يوميا «المصاروة» من العمال والمتسللين وعساكر الحدود المغرمين «بشباشب الزنوبة والخدوجة» موضة هذه الأيام ، فلا يفرقون ويزفون ضباطك صائحين :

«فوالة .. زنوبة .. خدوجة» . ورجل متحمس من عشاق العروبة والأناشيد وخطب الرئيس يطاردهم : «حولوا * .. يا فروخ* .. يا قوادة .. زبور أمكم .. هادول خوتنا» .

مسكين أنت يا قناوى ، لقد تم بيعك بحقيبتى هدايا ، قيمتها أقل بكثير من العشرة آلاف جنيه إياها . وعند اقتراب سيارة ضباطك من البوابة الليبية ، كان أحد أفراد شرطة الجوازات ، يسأل زميله بدهشة :

«المصاورة هادول ..ديما يدبّشوا * .. يدبّشوا .. إيش يديروا بهادا كله ؟» .

فيرد عليه زميله ساخرا : شبشب الزنوبه هادى .. وين يحطوها فى المدفع وتطير .. تحرق الأعادى حرق . وضباطك ، بحقائبهم المنتفخة ونجومهم ،

---

* حوّلوا : ابعدو .   * الفروخ : الأطفال .   * الدبش : الهدايا .

ونظارات الريبان ، يقفون بسياراتهم ، أمام حاجز البوابة ، يحيونهم فى براءة وتودد . بينما الحراس يجلسون فى لامبالاة واستعلاء ، واضعين سيقانهم فوق بعضها ..

- السلام عليكم يا عرب.

- مرحبا ..

- أى خدمات من السلوم ؟

- إيش عندكم ؟ ما عندكم شيء ..

- أهلا بكم فى أى وقت .

- غادى إن شاء الله .. فى القدس .

ويقوم أحدهم ، بتكاسل ، يطل على الحقائب ، يشير إليها قائلا بتهكم :

- مربوحة يا عرب .. الله ينصركم .

نائب الأحكام ، الزائر العابر ، تعجب من غرابة الحوار والنظرات المعادية ، فسأل حتيتة بك بدهشة :

- أهذه طريقتهم فى الحديث ؟

- تعودنا عليهم .

- وكأنهم يشتمون ..!

- بسبب الهزيمة .. وهؤلاء بدو .. لا يخفون مشاعرهم .. ولا تنس اختلاف النظم . . والدعـــاية ، فلديهم ملك يجلس على تل فلوس .. وهؤلاء عساكره..

- بهذا الأسلوب ؟

- قدرنا ..

- حتى لم يقفوا لنا من باب المجاملة.

- يا سيدى « ما تدقش..» .

لكن النقيب مجد ى كان يغلى ، منظر العساكر الجالسين ، وأحدهم يتكئ للوراء وحذاؤه تجاه السيارة أثاره .. فسبهم : «ولاد قحايب .. طوال عمرهم بتوع كلام..

حاجة تقرف.. كل مرة أقول مش داخل عندهم من حركاتهم البايخة وبرضه أرجع تانى .. سمعت العيال يا حتيتة ؟» . وحتيتة بك ، البدوى الأصل ، يشعر بالحرج .. فيدافع : إمسك أعصابك يا مجدى ، ماذا جرى لك ؟ أنسيت بسرعة الرجل الذى طارد الأطفال ؟ أنسيت الضباط الليبيين الذين هربوا بمدرعاتهم إلى مصر بعد الهزيمة وعرّضوا أنفسهم لغضب الملك . ولكل عمله وجهان .. أعرفك جيدا يا مجدى أنت تحب الرسمى .. وزعلت من وضع عساكر البوابة .. هؤلاء بدو يا مجدى .. بدو ، فتعامل معهم كما هم . فيرد عليه زاعقا وبنفس اللهجة الغاضبة : أنت تدافع عن أقاربك .. أنا معك أنهم بدو ، ولكن هؤلاء عساكر.. تدربوا ، عرفوا فروق الرتب .. المسأله كلها ، واحد غنام وأعطوه شيكارة فلوس.. فنسى نفسه .. هذه هى القضية . واستمرا يتجادلان ويحتدان حتى وصولهم لبوابة مصر فخرج جنود الوطن واصطفوا وضربوا تعظيم سلام لضباط الوطن القادمين بحقائب النصر فقال حتيتة بك للغاضب ضاحكا «أنت عاوز كده .. اضحك بقى» . ونائب الأحكام ، سرح بعيدا ، يستدعى الأسماء ويوزع الهدايا حسب أهمية كل واحد ، ثم تنبه وضرب بطن كفه على جبهته وقال هاتفا :

– ياه .. نسيت أهم شىء .

– يتوقف مجدى بالسيارة ، مستعدا للرجوع ، رغم كل ما سمعه وعاناه فيتساءل حتيتة بك :

– وما هى ؟

– زجاجة أو زجاجتين للجماعة فى مصر .

– هذه لا تباع فى دكاكين المدينة .

– اتصرفوا ..

– تصرفنا يا جميل ، أوصيت لك ضابط الجمارك الليبى على صندوق بلاك ليبل اسبيشل، يأتيك مضمونا من قاعدة طبرق خلال ساعات .

– من الإنجليز ؟

– نشرب خمرهم ونشتمهم : بمبة تاخذ الإنجليز ها .. ها .. ها ..

- وصندوق بحاله ؟
- للجماعة والأحبة .
- تسلك بها السكك .
- وعلى فكرة .. البيرة المستوردة .. تهبل .
- وصندوقين بيرة .. ولا يهمك .
- عظمة على عظمة .
- أنت تشاور .. وتأمر ..

وحين اقتربوا من الاستراحة ، كانت رائحة الشواء تفوح ، خروف أوزى مشوى على الطريقة العربية ، وأصناف من المزات الراقية ، وفواكه مستوردة ، والطباخ والمراسلة يقفان للخدمة . فصرفوهما حتى لا يسمعا حديثهم الحساس ، وجلس الفرسان الثلاثة حول المائدة ، وبدأوا بافتراس الخروف . وعلق كل واحد بكلمة :

«ليلتنا فل»

«صباحى»

وتساءل نائب الأحكام «إنتوا ناويين على إيه بالضبط ؟» ، فانشغلت الأفواه وسكتوا عن الكلام مؤقتا .

ها هم قتلتك يا قناوى يجلسون فى استرخاء .. يشربون فى صحتك خلفهم البحر المتوسط الذى نصحك المحقق بالشرب منه ، وأمامهم خندق روميل المحارب الذى لم يلبس الريبان . وعذاؤك الوحيد ، أنك الغائب الحاضر ، الميت الحى ، الضعيف القوى . لقد حفرت فى ضمير نائب الأحكام جرحا لن يلتئم ، تقتحمه بعينيك المحمرتين الغاضبتين ، وستظل شبحا يطارده ما بقى فى عروقه نبض .

لن ينساك مهما شرب وحاول، الصوف الهليد .. سيبلى «ويعتت» ، الريبان سينكسر يوما أو يصرعه صنف جديد، الجوخ سيهدى للأقارب بعد موت أبيه ، الألعاب سيحطمها الولد خلال أيام . لن يبقى فى النهاية إلا إياك ، لا مهرب له

منك .. وأنت داخله الآن. يطلب كأسا يشربه بسرعه لعله ينساك . وحتيتة بك لا يشعر بهول ما يعانيه ، ويقول مزهوا مربتا على الحقيبتين «حاجات تهوس ، تخلى أجدع واحد يريل، يركع .. تحب نفتح ونتفرج ..؟» . وأنت يا قناوى ضاغط ، مستفز ، توغلت إلى دم نائب الأحكام وأحاسيسه ، فيرد بألم وزهد : «ما فيش داعى .. شفت كل حاجة!» . خيل له ، أنهم لو فتحوا حقيبة ، ستخرج منها رافعا سوطك .. فشعر بالاختناق رغم اعتدال الطقس ، وطالب بفتح النوافذ ، فنقلوا المائدة للشرفة . وأمسوا يأكلون، ويشربون ، يثرثرون ، يستمعون لموسيقى هادئة . وثمة مذياع عالى الصوت ، لسيارة عابرة بالطريق قادمة من مدن البترول يبث نشيدا جميلا، يحيى الصامدين عند حافة القنال . فعلق مجدى متحاملاً : «أونطة .. كله أونطة ، شوفوا فاتح إيه ؟ وأول ما يخش إسكندرية هيدور على النسوان ..» . فيرد عليه حتيتة بك ساخرا « لسه برضه !» . وقال نائب الأحكام فى محاولة يائسة لاسترداد وعيه:

– نسمع النشرة يا جماعة .

– النشرة ؟

– نعرف أخبار الدنيا .

– لا جديد ، أغاروا وتصدينا .

– من فضلكم ..

ورغم المؤشر الذى استقر على إذاعة القاهرة ، فإن أحداً لا يصغى .. مجرد ديكور، وأنت يا قناوى ما تزال ضاغطا ، لا تغيب: يتحدث عنك قائدك بمرارة : تصوروا يا جماعة .. هذا الصول الأحمق .. ظن نفسه نبياً وجاء لإصلاح الكون الخربان ، فوصل به الغرور لدرجة إلغاء وجودى ، يصدر الأوامر ، يرتب الدوريات ولم يبق أمامى سوى العمل له كمراسلة ، وكلّما راجعته يسألنى «وسعادتك فين ؟» . المغفل .. يحاسبنى مع أننى أستطيع تحريك فرقة مشاة وأنا فوق سريرى ، جيش آخر الزمن «حتة صول معفن يفك الخط بالعافية ينافسنى ؟» . ينتفض حتيتة بك غاضبا ، والذى كان صولا منذ سنوات ونسى ماضيه ويتشبه الآن بالضباط العاملين : أنت الغلطان يا مجدى ، أنا لو مكانك كنت انفردت به

وأعطيته طريحة .. هذه هى الطريقة الوحيدة للتعامل مع هذا الصنف الواطى .. فعلها معى أحدهم من قبل فلاكمته ، ولما تظلم منى ، اتفقنا عليه أنا وضباط المكتب ، قفلنا عليه الباب وضربناه حتى بكى .. وخرج وقدم استقالته .. وأظنه الآن يسرح بعربية بطاطا .. ها .. ها .. ويضيف النقيب مجدى مؤيدا: عندك حق يا حتيتة .. هذا الصنف لا ينفع معه غير الجزمة .. الثورة أفسدتهم ، مساواة مع من ؟ وأنا صغير ، كان عندنا ثلاثة من هذا النوع ، واحد يحمل حقيبتى حتى باب المدرسة ، والثانى يرتب فراشى ، والثالث يجلس أمام باب الفيلا كاللوح ولا عمل له سوى القيام والجلوس لنا كلما مررنا أمامه ، وكنت أتعمد الدخول والخروج بكثرة حتى استمتع بحركاته الأرجوازية . مثل هذا النطع .. لو تطوع فى الجيش .. هل يساوينى ؟ يا حتيتة يا حبيبى قناوى فى الأصل عامل تراحيل .. فواعلى يعنى .. تطوع فى الحدود وقام ببعض الحركات .. فرقوه بسرعة ، فركبه الغرور .. و... يقاطعه نائب الأحكام بضيق : يا مجدى .. أرجوك .. دعنا من سيرة الزفت هذا لأنى أتشاءم ويسبب لى حساسية ، والأفضل الانتهاء من الموضوع كله .. فهل تسمح بالإجابة على بعض الأسئلة الشكلية :

– يا سيدى اكتب ما يعجبك وأنا أوقع .

– هذه الأوراق رسمية يا مجدى .

– ألم تقل إنها ستحفظ .

– ولو...

وأبدى ملاحظاته وتحفظات على أسئلة ينبغى تحويرها أو حذفها فتدخل حتيتة بك مهوناً.

– لا تقلق .. البك شاطر جدا ..

وبدأ نائب الأحكام يوجه أسئلته المهذبة ، استجواب عصرى يليق بنهاية القرن.. ونهاية الكون . موسيقى هادئة ، لحوم مشوية خفيفة ، كونياك كورفوازيه يتسلل لمراكز المخ ، ويجعلك تطير فوق وسادة من الريح ، وفرسان ثلاثة بينهم واحد من عائلة كانت ثرية وعصفت بها رياح الثورة . وأنت يا قناوى تعانى من شدة الإسهال ، تحترق غيظا لأنك ترى الحق ينقلب باطلا ، وما زلت تتوقع شيئا

بسبب قوة إيمانك ، وتعتقد أنه لن يخذلك مهما أفتي حمد البخيت ، ومهما ساومك رحومة السنيني على ثروة سترفضها مرة أخرى لو عرضت عليك رغم محنتك، مجنون في زمن مجنون. وقاتلك يستجوب من صلى على جنازتك .

- أين كنت يا سيادة النقيب ليلة الواقعة ؟

ومجدى سابح فى الفضاء ، يهتز مع الموسيقى ، يتمايل آخر انبساط ويرد باستهتار : إذا وقعت الواقعة .. صدق الله العظيم . يتدخل حتيتة بك محذرا:

- مجدى !
- عيون مجدى .
- يسألك عن واقعة الأغنام .
- وقعتك لب ..
- ها .. ها .. ها .
- ليلة الأغنام يا أخى .
- آه .. الأغنام .. افتكرت .. سلام الله .. على الأغنام من النايمين .. إلى الصاحيين.
- وبعدين بقى ..
- أنا معك يا حضرة القاضى .. اسأل ..
- أين كنت ؟
- كنت مطرح ما كنت .. جتك ضربه فى اللى تحت سوتك .. ها .. ها .. ها ..

الفرسان الثلاثة ضحكوا فتطاير الطعام من أفواههم ، فهكذا مجدى ، ابن الذوات الذين جار عليهم الزمن وكانوا يملكون .. حين يسكر تتحول الحياة أمامه إلى نكتة حتى صارت نكاته مصدرا للإزعاج ، ورفيقا السهرة استمرا يضحكان حتى اشتبكت المعدة مع الأمعاء ، ومجدى ما زال فى الفضاء البعيد ، فينوب عنه حتيتة بك فى الرد : اكتب عندك يا باشا ليلة الواقعة ، كنا نمر معا فى دورية

مشتركة .. بدأنا من نقطة البحر وقطعنا مسافة كبيرة حتى الوشكة* لكى نطمئن بأنفسنا فى ظروف الحرب ، ووجدنا الأمور مستتبه وحدودنا الغربية مؤمنة والعساكر فى تمام اليقظة .. أى أوامر .. أى إيضاحات .. كتبت سيادتك .

وأنت تتآكل فوق يا قناوى ، كانوا يأكلونك وحولوا قضيتك إلى نكتة ، مع أنك تعلم جيدا أين كانا ليلة الأغنام ، وسألت عنهما قبل تحركك وعلمت أنهما ساهران، مثل كل ليلة ، يلعبان البوكر والكونكان مع باقى المنفيين وقيادات المدينة فى غرفة خاصة بفندق السلوم ويشاركهم محمد عقوب ضابط الجمارك الليبى وعاشق مصر . والشيطان وسوس لك ليلتها ، أن تباغتهم بالكرباج ، تشوى ظهورهم ، ليتك فعلتها .. كان أشرف وأفضل لك من موقفك الحالى . حلبوها يا قناوى وأنت تشربها سادة بعد أن ضحكوا عليك بوسام من البرونز ، ويبيعون بقاياك الآن بصندوق بلاك ليبل . السهرة الهمجية ما زالت ممتدة .. يحددون مستقبلك وهم سكارى . وأنت تصلى ، تدعو عليهم مولاك . وهذا الصنف الخنزيرى لا ينفع معه دعاء ، إنما السوط . سوطك كان ينبغى توجيهه إليهم وليس للبدو الفقراء والقاضى يسأل جلادك .

- المساعد قناوى ، يتهمك صراحة فى تقريره بالرشوة .
- النقيب مجدى ، الضابط المتعلم ، الذى يتفاخر بأصله ، ينزلق فى كرسيه ، يباعد ساقية ويقول كلاما هابطا للمحقق ، مشيرا إلى .. .. يأخذ هذا .
- ويقول إنك جردته من اختصاصاته ؟
- يحاكمنى يعنى ؟ كفانا صعيدى واحد !
- ومن هو رحومة السنينى هذا ؟!
- بتاع مبروكة .
- عاوزها ؟
- مجدى !

حتيتة بك يحذره كالعادة ويوضح لنائب الأحكام : رحومة هذا يا افندم مرشد معتمد من إدارة المخابرات ويتقاضى راتبا شهريا ، وهو الذى يذودنا بكافة

* الوشكة : منتصف المسافة بين واحة سيوة والسلوم على الحدود .

المعلومات التى تخص الصحراء . وهذه معلومات سرية أرجوك عدم ذكرها لأحد. وليس من حق صول سؤال قائده عن هوية أصدقائه .. هذا تطاول وقلة أدب ..

- ولماذا لم تنقله يا مجدى ؟!

- محمى يا باشا .

- ممن ؟!

- قائد الكتيبة.

- يحميه !

- ويسانده .

- لأى سبب ؟

- اللبيب بالإشارة ..

- هذا اتهام ؟

- اكتبه .

- راجع نفسك ..

- اكتب.

نائب الأحكام يتردد ، ينظر بحيرة لحتيتة بك ، طالبا المشورة ، فيجده موافقا ، ؤازراً محرضا : «اكتب خليها تولع ..» . فيكتب ثم يعيد قراءة تقرير المساعد ناوى المطول بدقة وتأن فيتشجع ، يناور ويقول لمجدى محاولا تخويفه وابتزازه :

- هذا التقرير ليس فى صالحك.

- طظ.

- لكنه مستند قد يدينك.

- وماذا ترى ؟

- إنما أبصرك .

– والعمل ؟

يتدخل حتيتة بك فى الوقت المناسب ويتحدث بطريقة موحية :

– اتصرف يا جميل ..

– كيف ؟

– حوره ، شوهه ، مزقه .

– التقرير ؟

– ما رأيك تبيعه؟

– التقرير ؟

– نفتح مزاد ؟

– والله فكرة .

الفرسان وصلوا لقمة النشوى والعبث ، تجاوزوا الواقع ، ولجوا عالما مجنونا لا يعترف بقيم أو حدود ، نهشوا الخروف كله ، بلحمه ودهنه ، مصمصوا عظامه . واستقرت الزجاجه الثالثة فوق المائدة تغرى وتزين . واعتلى نائب الأحكام مقعدا وهو يترنح ، الكأس بيد والتقرير فى الأخرى يزايد به : فرصة ذهبية .. من يا رجال يشترى ؟ من يزد يفز ؟ أنا بطقم قلم شيفرز . وأنا بجهاز تسجيل . وأنا بولاعة ديبون. وأنا بطاقم أزرار من الذهب . عرضوا كافة الأشياء المتاحة فى مدينة الهدايا .. والمزاد لم يرس بعد . هتف حتيتة بك : «يا ابن العفريته .. لقيتها.. انزل .. دا أنت صايع قوى » .

نزل نائب الأحكام من كرسى المزاد وجلس يترقب هذا الشىء الذى وجده وأوقف به المزاد ، تغيب حتيتة بك قليلا وأتى معه بحقيبة سمسونايت .. فتحها ووضعها أمام نائب الأحكام الذى أطلق صفيرا وقال مبتسما «يا أولاد الحرامية !» وأغراه مجدى مشجعاً : «شيل .. ما تتكسفش» .

وبخجل مصطنع ، سحب رزمة واحدة ، فأشار له حتيتة بيده : « كمان» فسحب الثانية . وجاء الدور على مجدى فقال له بنغمة تلحينية : «تلت» . تردد ، سحب الثالثة وأقفل الحقيبة بيده : «حلوة قوى كده .. إحنا هننهب » . وبدأت

المشكلة بين مجدى وحتيتة حول مصير التقرير ، هل يحتفظان به للذكرى ؟ أم يتم تمزيقه ثم حرقه ؟ . وقال نائب الأحكام بنزق : عندى فكرة مدهشة ، سلموه لقناوى ليسمح به ... ، ستكون ضربة قاضية ويموت بالسكتة القلبية . وقال حتيتة جادا. بصفتى أكبر منكما سنا وخبرة يخول لى قانون القبيلة سلطة إصدار القرارات فى المسائل القومية الحساسة ، وبما أن تسرب مثل هذا التقرير لأيدى أعداء الوطن يشكل خطورة جسيمة على أمنه وسلامته فدعونى أتصرف بما يمليه علىّ ضميرى والآن .. اتبعانى . وسار حتيتة بك يغنى ، يتمايل : «تقريرى الحلو .. يا تقريرى .. يا سيد التقارير محلاك يا جميل .. تخطر وتميل .. » . وخرج للعراء للهواء الطلق وأخذ يتلفت حتى وجد ضالته ، انحنى ، رفع غطاء البلاعة بعناء وألقى بالتقرير فى بئر المجارى : ياه الحمد لله ، لقد وفقنى .. خرا فى خرا .. هذا أنسب مكان لمثل هذه القذارات . صفقا له ، هنآه على عبقريته وعادوا لاستئناف السهرة .

تقريرك يا قناوى ، الذى سهرت الليالى لتكتبه .. وتصورته سيهد الدنيا ويقيل الوزارة ، انتهى مصيره بعد مزاد همجى فى بالوعة ، لكن يكفيك فخرا .. أنك الغائب الحاضر ، لقد توغلت بشكل مرضى فى شرايين نائب الأحكام ، أبداً لن ينساك ، لقد توقف عن الشراب والضحك ، ينظر ببلاهة لصورة الزعيم المعلقة على الحائط ، يدعك عينيه يدقق فى الصورة من كافة الزوايا والمسافات ، بالنظارة وبدونها ، يحتار يعود لمقعده خائفا ، ينظر لحقيبتى الهدايا ، يتحسس جيوبه ، يشعر بالفخ ، تتسمر عيناه على الصورة ، يهلوس : قناوى .. قناوى؟! المضيفان يفزعان ، يتلفت مجدى للباب والنافذة مضطرباً : «قناوى؟ هو فين؟» . وحتيتة يتحفز ، يمسك مسدسه ، يستعد .. لكن لا شىء لا أحد . ونائب الأحكام ما زال مضطربا ويشير لهما إلى صورة الرئيس فينفجران ، و«يسخسخان» من الضحك ..

- الأخ سكر.

- دعه يكف.

- سيفضحنا.

- جرده من الفلوس حتى يفيق .

ونائب الأحكام ، يستبسل فى الدفاع عن جيوبه ، يتشبث بالكأس . يقاوم ، والصورة يا قناوى تتضخم ، تتعملق ، تتقدم نحوه بالسوط ، فينكمش ، يتكور ، يبكى ، يهلوس ، يصرخ: أبعدوه عنى .. إنه قناوى المجنون . ثم يقوم هائجا ، يخرج الفلوس من جيوبه ، يرميها ، يشوط الحقيبتين ، يشوط السمسونايت ، يخرف: «مش أنا والله يا بيه أنا برئ حتى اسمعنى : طول ما أملى معايا وفى إيديا سلاح .. عاش قناوى عبد الناصر ، يا محمد نجيب.. يا حتة سكرة يخرب بيت فاروق.. يشمعه منوره .. إخوانى .. هيه .. قلنا هنبنى وآدى إحنا بنينا .. وقررنا تأميم قناة السويس هيه .. يا حتيتة بك يا بتاع نمى إلى علمنا .. خد دا.. ها .. ها.. ها ..» .

قام المضيفان، ضرباه برفق ، أسكتاه بالقوة ، سحباه للحمام ، فتحا عليه دشا باردا . وضعاه على السرير وبقيا بجواره ، كلما تحرك أو حاول فتح «خرارته» ضغطا عليه وكتماه حتى نام وشخر . جلسا لفترة فى حالة ذهول ، يدخنان ويشربان القهوة فى صمت وارتباك ..

- ما هذا ؟

كابوس .. كابوس حقيقى.

- يبدو أننا تسرعنا.

- مجرد هذيان سكير.

- أتظن ذلك ؟

- هذا تصورى.

- ربنا يستر ..

جاء حتيتة بك بأوراق من التى تستعمل فى البرقيات وقدمها لمجدى مزهوا:

- اتفضل يا باشا.

- يخرب بيتك يا قناوى .. أكل هذه برقيات ؟

- لم تخرج ولا واحدة من السلوم.

- وكيف دبرت هذا ؟!

- أنسيت أننى مسؤول أمن الصحراء فرع السلوم .

- آه .. هذه فاتتنى.

- وعطلت خطوط التليفونات .

- يا ابن الإيه !

- وجنابك نائم فى العسل.

- البركة فيك.

- كله تحت السيطرة.

- تقصد البدو ؟

- وأنت ورجالك أيضا.

- أنا ؟

- تلعب بذيلك .. أنسفك.

- يا قليل الأصل.

- الشغل شغل يا صديقى.

- صحيح .. إن كان صباعك مخبر اقطعه.

- المهم الآن .. أمامنا عمل ثقيل.

- أنا تحت أمرك.

- تكثيف حملات الضبط.

- والخطة ؟

رجالك يتفقون على دفعة أغنام صغيرة ويقوم رجالى بضبطها ، ثم نعوض التجار فى دفعات تالية ، وعليك أيضا ضبط أكبر كمية مهربات وإرباك الجمارك بها ، وسيأتى صحفى صديق للتغطية الإعلامية .. وكلام فى سرك ، عندى مرشدين يحاولون سحب تاجر مخدرات إلى ساحل السلوم .. لو نجحنا ستكون ضربة معلم .

- من الآن سنبدأ الحملة .

- وأرجوك .. كفى شرابا هذه الأيام.

- نصوم فى سبيل الوطن.

- هذا مهم جدا .. الانتباه .. اليقظة .

- ولا تنس .. لو نجحت فى حكاية المخدرات .. أن تحجز لنا «فردتين» قبل التسليم .

- يا مجدى .. كفاك مزاحا .. إنى أنذرك.

واستمرا حتى الفجر يخططان ، يضعان اللمسات الأخيرة ، يختاران الرجال الجدد للإحلال مكان آخرين انكشفوا أو رفعوا أصواتهم أكثر من المسموح . أو من قال . من لمح أو ثرثر . من أطلق نكته سمجة . من أقام علاقات خاصة مع البدو. من سأل . من باع بضائع لحسابه. من رفض التعاون .. وحتى من احتج على نصيبه . وبعد التنقيح والاختيار الدقيق ، تساءل حتيتة بك وهو يتأهب للنوم:

- هل لديك ملاحظات ؟

- العريف بلال.

- انتهينا منه بالفضيحة والإبعاد .

- والدليل عبد الرسول البشارى .

- انتهى أمره ، وكتبت فيه تقريرا محكما وأرسلته مع مخصوص .. أسبوع وتجده فى الباى باى . يعود من حيث جاء ، يرعى الإبل فى حلايب والشلاتين .

- أنت ولد .. وتصبح على خير .

(٩)

ســــــرى للغــايـة

الآن يا عم قناوى ، يا حامل الوسام البرونزى ومنقذ الحقيبة الكنز ، ومفاوض موقع زهر أبو طير ، وبطل وادى على ، ومنقذ ثورة الوطن الحيوانية ، الذى قطع سيناء سيرا لثالث مرة ورفض الرضوخ للمهانة والإذلال . يا رجل المواقف . الآن، وأنت قاعد تصلى ، وبطنك تكركب .. تنتظر عدالة السماء أو عدل أهل الأرض ، وتشرب الحرجل والشيح وحلف البر لإيقاف نزيف إسهالك . الآن ، يجهز لك حتيتة بك ، ضربته القاصمة. هذا يوم نحرك الحقيقى ، وينتقل اسمك من ملفات التحقيق التى ستحفظ منعا للشوشرة ، إلى تقارير الجحيم التى تهلك أكبر رأس فى صمت ، القتل السرى . الآن يكتب حتيتة بك تقريره لينسفك ، وينسف ماضيك . بعد هذا التقرير ، لن تكون البقية فى حياة أهلك ، كلنا لها يا عم الشيخ والبقاء لله وللعسكر وإلى اللقاء فى نعيم الآخرة ، لأنك لن تقرأ ولن تسأل فيما هو منسوب إليك ، إذا قالوا .. صدقوا . وإذا كتبوا عن أحد لا يطالبون بالأدلة. لأن تقاريرهم مثل القضاء الذى لا رد له .

من م . س . إلى الإدارة

عاجل مع مخصوص

نمى إلى علمنا ، من مصادرنا السرية ، تقارير مندوبينا ، وتحرياتى الخاصة ، أن المساعد أول قناوى الشريف من قوة سرية الحراسة ، والمنقول حديثا من الجبهة ، هو أحد أخطر العناصر فسادا وسلوكا وانحرافا . والذى عمل على تخريب اقتصاد البلاد ، دون وازع من ضمير ، بتقاضى الرشاوى من التجار والمهربين وإخلاء الطريق لهم وإرشادهم إلى المناطق الخالية من الكمائن ، وتضليل قائد السرية ورجاله . وقد علمنا أنه يفرض إتاوة ثابتة على كل رأس غنم تعبر السلك ، ويقوم كذلك ، بسلب العمال الفقراء نقودهم التى كدوا فى جمعها ، مستغلا موقفهم القانونى وخروجهم وعودتهم متسللين . ومن المعلومات التى وصلت إلينا مؤخرا ، أنه بصدد نقل نشاط تهريب المخدرات للساحل الشمالى ، وقد تم رصده فى عدة

لقاءات مع عناصر مشبوهة .. ونحن نتابع هذه الصفقة من المنبع ، فاستبعدناه ونسيطر على الموقف . وقد وردت إلينا معلومات مؤكدة بضبطه لكمية هائلة من الدخان الأخضر وتصرفه فيها بالبيع لحسابه . ومن تصرفاته الشائنة سلوكه المخل بالضبط والربط والأخلاق بمحاولته هتك أعراض البدويات نظير تركهن يعبرن بالمهربات ، وهناك واقعة محددة فى محضر قسم شرطة السلوم رقم ١٦ /٢بتاريخ ١٩٦٧/١٢/٤ . فيما يتصل بالواقعة الأخيرة المتعلقة بضبطه عشرة آلاف رأس من الأغنام البلدى ، والتى أفرجت عنها النيابة، ثبت من التحقيقات والتحريات أنها عملية ملفقة ، بسبب خلافات مالية بين قناوى والتجار ، لأنه يستحيل منطقيا ، مغامرة التجار بهذه الكمية كلها دفعة واحدة . وقد تأكدنا أن الأغنام مملوكة لعدة قبائل يتنقل بها الرعاه وراء المرعى ، على امتداد المسافة من برانى إلى السلوم.

ومن المعلومات الخطيرة – غير الموثقة بالأدلة حتى الآن – أن ثمة شخصية قيادية تقف وراء قناوى وتسانده . وتتركز الشبهات حول قائد الكتيبة ، وقد أخطرنا فرع مطروح بمراقبته ، وسنوافيكم بتقرير لاحق بهذا الشأن ، وكذلك بأسماء كافة الأفراد المشبوهين ، وعلى رأسهم العريف بلال عثمان . ونوصى مؤقتا ، باستبعاد المساعد قناوى من الصحراء الغربية وكافة المناطق الحدودية والساحلية .

الله . الوطن . بالأمر .

ملازم أول

حتيتة الزوام

قائد مكتب الأمن بالإنابة

١٩٦٨/٣/١

(١٠)

الرقيب حمد البخيت

هذا الجنوبى الثعلب يا قناوى ، هو أحد الأشقاء الوافدين ، جاء مع فيضان النهر، لا لإثراء تربة الأرض ، إنما لحلب البقرة السائبة، ولا لوم عليه وقد سبقه أهلها ، أرشدوه ، ساعدوه وأمسكوا له بأذنيها . جاء فى زمن الوطن الواحد وفاروق الأول ملك مصر والسودان. وهو هناك ، يعانى الضنك ، بلا حرفه ولا صنعه ، مهمشا ضائعا فى شوارع الخرطوم . سمع عن البقرة من عساكر الهجانة الذين يأتون لزيارة الأهل ومعهم المال الوفير ، كان بينهم رفاق له ، ويسألهم : «القروش دى من وين؟» ، ويسمع منهم حكايات وهم يشربون المريسة ، حكايات غريبة عن بدو سيناء والحشيش . عن مناطق وبلاد فى سيناء والبحر الأحمر ، الأدبية والزعفرانة والغردقة ، أبو زنيمة وأبو رديس ومناطق على الساحل ترسو قربها لنشات يهبط منها شياطين وعربان ينتظرون عند الشاطئ بالجمال ويدفعون ثروة. حلم وقرر .. فنصحوه بالتحرز من «ناس زينب» ومقالبهم.. وأيضا بالصبر، فقد تمر سنوات قبل الحصول على فرصته ، لكنها ضربة واحدة ويعود ثرياً ، فأمسك ذيل جلبابه وجاء راكضا من حلفا ، ركب الباخرة من الشلال ، استقل القطار من كوبرى الليمون ، تسطح فوق قطار الضواحى ودق أوتاد خيمته فى الجبل الأصفر والسلوم ، هذه كانت خارج الحساب وتدفق بترول ليبيا أنعشها و أثراها فكانت من نصيب حمد البخيت . هذا الجنوبى الذى بلا نظير اكتسب من الغابة مكر الثعالب ، غدر النمور ، شراسة الذئاب ، شقاوة القردة وخفة ظلهم ، وحاسة الغزلان وسرعة فرارهم عند الأخطار . هذا الكوكتيل الحيوانى ، كان يخفيه برداء فروسية سناجك السودان ، فأحبه البدو ووثقوا به لأنه لا يخون كما يعتقدون . وأهل الشمال اعتمدو عليه ، لأنه غريب ولن يكشفهم ويسهل التخلص منه وقت الشدة أو حتى التضحية به ككبش فداء ، هذا القرد ، النمر ، الذئب ، الغزال ، الفارس ، هو من ابتليت به الهضبة والبلاد ووقف فى طريقك أيضا يا قناوى . وبينما أخرجوك من الملعب مهزوما منكسرا ، فاز هو بنصيب الأسد ، غنم وأثرى ، وفى طريقه الآن لمرسى مطروح ، يستريح أياما ريثما تستقر الأمور فوق الهضبة الساخنة .. أجازة قصيرة لالتقاط الأنفاس

وترتيب المسائل . سينسلخ من بدلته العسكرية فى مطروح ويرتدى جلبابه الأبيض وعمامته المزهرة ويقوم برحلة خاطفة إلى الإسكندرية ، فتفتح له الأبواب ، أهلاً يا عمدة .. اتفضل يا عمده .. سيأكل أشهى الأطعمة ، ويشرب الدنبل ، يضاجع أجمل الجميلات .. بفلوسه طبعاً . وقد ركب من السلوم سيارة أجرة بالنفر كالعادة ، وجلس وسط الركاب يحلم بأمواج الإسكندرية وبالدهن الأبيض ، يحلم بعذراء يفض بكارتها مثلما فعلها مرة ودفع يومها ألف جنيه مقابل أسبوع واحد . يا سلام .. متعة عظيمة كونه أول الفاتحين ، سيذهب إلى المنشية ، يجلس فى أشهر باراتها واضعا ساقا فوق الآخر ، فيوافيه القواد ويسأله هامسا : «طلباتك يا عمدة .. رقاصة واللا ست بيت واللا أى كلام ؟ كله موجود وبحسابه» . فيرد عليه بجملة من كلمتين :

«بتول .. دايرها بتول » ، سيتردد القواد ، يحك قفاه ، يتمحك ، يتصنع الغضب، يلف ويدور ، يزين له الجميلات من ذوات اللحم الأبيض الناصع كما يشتهيهن ، وهو مصمم على موقفه : «بتول .. يعنى بتول» .. تماما مثلما يأنف من الخمور المفتوحه . فينصرف القواد يائسا من مطلبه العسير ، ثم يعود إليه راضخا ، يجلس بجواره هامسا «لقيتها .. بس غالية قوى .. باكو ومية وإيجار الشقة والذى منه عليك وحاسب عليها قوى حاكم أنت مفجوع لحسن دى تهمنى قوى .. وفى حاجة أونطه كده هنعملها ، كلمتين فى ورقة عند محامى لحسن تموت منك وأروح أنا فيها .. ماشى كده .. اتفقنا .. إيدك بقى على العربون» . وهذا الثعلب الهمجى لن يدفع مليما أحمر ما لم تصله البضاعة ويطمئن بالاختبار على جودتها. كان يحلم بالغزو والسيارة ما تزال عند البوابة الشرقية للسلوم واقفة لا تتحرك .. وأفراد أمن الصحراء يفحصون الركاب بدقة ويطالبونه بالنزول ودخول الكشك للتفتيش الذاتى فيشعر بالحرج والضيق ويقول لهم محتجا « أنا الرقيب حمد البخيت من قوة السرية .. وآدى الكرنيه يا زول دايرين* منى شنو؟ أنا لا مهرب ولا جاسوس وعندكم التليفون اسألوا عنى . الخبر شنو؟ عيب عليكم.. والله لأشتكيكم لسفير السودان » .

---

* دايرين : تريدون .

- انزل يا رقيب لو سمحت ؟

- فى شنو ؟

- انزل .

- والله بتندموا .

يهبط بكبرياء وشموخ ، يدخل الكشك واثقا ، يعرف هذه المماحكات واستعد لها. ويدرك أيضا السبب الحقيقى الكامن وراء هذا الفخ الأمنى . فمنذ شهور ، فعلها واقتحم المنطقة الملغومة . فى العادة ، كان رحومة السنينى يتفق معه على كمية الأغنام والموعد كوسيط ، فيتسلم منه الفلوس ويعطى نصفها بالتمام لقائد السرية ، والنصف الثانى للرقيب أول جعلوص ليوزعه حسب الأدوار. وحمد من البداية ، أدرك بالفراسة علاقة الشركة بين الضابطين ، ولم تكن تلك هى المشكلة ، ولا حفر وراءها . فهؤلاء كبار ولهم حساباتهم. شكوكه توجهت لرحومة السنينى وكمية الأغنام العابرة . وفى ليلة سكر وفعلها ، وقام بإغارة مباغته والأغنام ما تزال عند السكة الحديد ، ووضع البندقية فى صدر رحومة السنينى وواجهه بإصرار وحزم : أقتلك أو أعرف العدد الحقيقى ؟ تشاجرا ثم تصارحا وعرف السر وشالا الفاتحة وتقاسموا المبلغ الزائد على ثلاثة ، ورحومة احتفظ باسم الثالث كسر ، لكن حمد الماكر عرفه ، مستبعدا قائد السرية لأنهما يتصارحان. وحتيتة حين أبلغه رحومة بالكارثة ، كان يتربص لحمد البخيت ويتمنى الإمساك به بشكل قانونى ورسمى حتى لا يغضب مجدى وهو يجهل طبيعة هذا الداهية الجنوبى الذى عمل من قبل فى معظم المناطق الساخنة واشترك فى كافة عمليات التهريب من بضائع غزة والعريش لكراتين سجائر بمبوطية بواخر قناة السويس ، والمدرك تماما للحركات «بتوع ناس زينب» كما يطلق عليهم . وما زال يذكر أخطر عملياته التهريبية ، صفقة حشيش نقطة الأدبية عند جبل عتاقة .. طنان من الحشيش مقابل عشرين ألف جنيه كان نصيبه الربع. ولو بات واعيا لقيمة القرش لاكتفى وعاد إلى بلاده ، ولكنه صار مغرما ومتيما «بالدهن» أو حسب تعبيره «اللحم الأبيض اللى راقد رقاد» فبعثر الثروة على نساء حى الأربعين وعرايشية السمر ونوريات القنطرة شرق ، كانوا يسمونه الملك والنوريات يحتفين به ، واحدة ترقص له ، أخرى تجلس على

حجره ، ثالثة تملسه ، رابعة تنتظره فى «الخربوش*» . ويسكر ، يسخن ، يغزوها يعود للقعدة ، يمهدنه بالشراب والتدليك والرقص فيسخن ويعود للخربوش ، مثل الحمار يأكل النجيل وينط . وفى ليلة واحدة صرف عليهن نصف باكو من حصيلة عملية الأدبية والتى دفع ثمنها برئ . وقتها كان أقدم عسكرى فى النقطة وحكمدارها .. وانتظر صابرا يشمشم عن الفلوس ، فغازل الدليل والصول والوسيط وجاءته الفرصة ، عرضوا عليه أن تمر التهريبة من درك الخيمة ويهرب للسودان، ثم يتهمون المهربين بخطفه .. يومها ، فكر وبانت عبقريته من يضمن سلامته حتى حلفا ؟حتما سيقبضون عليه قبل أسوان ويلبسها لأنه هارب . ولماذا يتساوى معه الصول والدليل والقائد ؟ راوغهم وساومهم على نصف المبلغ .. فلما رفضوا ، طلب منهم تدعيمه بعسكرى جديد خام وهو يتولى الباقى . فطاوعوه ولبوا مطلبه، فى اليوم الأول أضحكه ، فى الثانى علمه الحكمة ، فى الثالث زوده بالنصائح الغالية : إياك والنوم فى الدرك ، إياك وعساكر السوء ، إياك ومصاحبة البدو . فى الرابع سقاه مخدرا خفيفا للتجريب ، فى الخامس وضع له مخدرا ثقيلا مع الشاى فنام كالقتيل وشرب المقلب ولبس الخابور ، وفى السادس دخل السجن. وحمد البخيت مثل دور الفارس بإتقان ، جمع التبرعات من الفصائل والسرايا وكلف محاميا للدفاع عنه وأعطى لأهله ورضاهم وصرف على الولد حتى حكمت عليه المحكمة العسكرية بأقصى العقوبة ، الأعمال الثقيلة المؤبدة . وصار بعد هذه الواقعة من أول الذين يقتلون ويمشون فى الجنازة .. وبحكم خبرته هذه يعلم تماما نية حتيتة بك الانتقامية ، فسرب كل نقوده لابن عمه الصول البشير فى مطروح ، والذى يتصرف بسرعة مع المسافرين للسودان بالعمولة ، حتى صار حمد البخيت مصدرا للدخل وحين أنزلوه من السيارة ، لم يكن معه سوى الراتب الشهرى . ووقف داخل الكشك محتجا ، ثائرا ، شاتما بالسودانى ، وقال لهم متحديا ساخرا : «يا زول حد الله من الحرام .. وما عندى غير قروش الحكومة.. إن كان دايرينه .. خدوه ، حلال عليكم ، ارسلوه للمجهود الحربى ، برضه مصر بلدنا .. براكم* قلتم مصر والسودان حتة واحدة » . فتحوا حقيبته ووجدوا بها أشياء بسيطه وتافهة : دستة أمواس ، لوسيون معطر ، قلم باركر ،

* الخربوش : مكان مخصص العشق عند الجماعات النورية . *براكم : بأنفسكم .

شياشب زنوبة وخدوجة ، ولاعة رونسون ، قطعة قماش قطيفة .. وهو واقف يتهكم : « يا زول خدوا القلم .. اكتبوا بيه التقارير أقول ليكم الريحة .. أخير* .. تنعشكم..» وأمسك بعلبة المعطر وأخذ يرش .. وهم مغتاظون منه ومن سخريته المرة ، فتمادوا فى تعنتهم يسألونه : أين الفلوس ؟ وهو ينظر إليهم ولا يرد ، فيعيدون تفتيشه من جديد: «الحذاء ، رجل البنطلون ، ياقة القميص ، توغلوا .. فخلع بدلته ووقف بالسروال ، تحسسوا .. ففعلها ووقف «بلبوصا» يلاعبه لهم بهمجية فأبلغوا حتيتة بك خلو الهدف بعد تفتيش درجة أولى ، وأبلغوه بوقوفه عاريا ويسألونه المشورة : هل يقطعونه له حتى يكف عن همجيته ؟ وبعد المداولة يزقونه للخارج باشمئزاز: «غور فى داهية يا سودانى .. الله يقرفك» . لكن حتيتة بك يعتقد أنه تحايل على رجاله وأرعبهم بشيئه المقرف ، فهاتف رجاله فى البوابات وأوصاهم بالحذر وتجهيز مدية حادة وساطور وإخصائه دون تردد لو تجرأ مرة أخرى . عند بوابة مدخل مطروح .. وجد فرقة تنتظره فتشوا الركاب واحداً واحداً .. لم يتركوا ثقبا فى السيارة حتى الإستبن ، على أساس تسريبه لثروته مع الركاب أو السائق . ولما أفرجوا عنهم ، بعد ثلاث ساعات ، تساءل السائق بدهشة : «هو إيه ؟ غريبه قوى الحكاية دى ؟» ، وجاء رد حمد البخيت موجزا : «الزول جن؟» ، ولم يسأل راكب عن هوية الذى جن وكان بالتأكيد يقصد حتيتة بك الذى يحاول الإيقاع به ويتساءل بدهشة : لماذا يغامر هذا البدوى الأحمق ؟ ألا يخشى لو ضبطوا معه نقودا وخرجت المسألة من يده ، أن يقلب عليهم المائدة ويفضحهم .. رغم قراءته الفاتحة مع النقيب مجدى على سرية التعامل ، ومن يطب يتحملها بمفرده . لقد وقفت علاقته عند حدود الخط الأخضر مع قائده ولم يتجاسر بالسؤال عن الشريك ، لكن بالحداقة عرف دور حتيتة . حين غامر بدخول حقل الألغام ، هتك الحلف السرى بين رحومة وحتيتة والأخطر .. وصوله لسر الأسرار . ففى إحدى بارات الإسكندرية ، التقى بأكبر تجار الماشية البدو ، أسكره واستدرجه فطب وثرثر ، فحتيتة له ضريبة كبيرة وثابتة وخاصة على كل رأس غنم تتحرك فى اتجاه الغرب .. وهو المهندس والمحرك ، ويتاجر أيضا بين المدينتين من خلال أقاربه . وقال لنفسه :

---

* أخيرا : أفضل .

حسنا يا حتيتة بك .. أنا وأنت والسلك والشاطر يفوز . وعندما وصل مطروح ، استدعى الصول البشير ابن عمه ، اختارا ركنا منزويا فى بار بنايوتى وشربا فى صحة أهل مصر وبقرتهم الحلوب ، التى تشرب من ماء النيل الذى يأتى من عندهم والمصلحة واحدة والنبى أوصى بالجار ثم بدأ جلسة العمل. لهذه المهمة أوفده القائد : انتقاء أفراد جدد مكان الذين سيتم تطهيرهم ، أفراد من نوع خاص، نادر، والأفضل أن يكونوا جنوبيين . ونوع يأخذ القليل ولا يفاصل ، يقتل القتيل ويتصدر المشيعين والصول البشير .. مستشاره .. ومن سيختارهم ، سيدفعون معلوما شهريا له .. وقائد الكتيبة يثق فى تقواه .. ويجهل أسرار الشبكة الجهنمية.. والبشير يسأله : «داير منو؟*» ، فيتنقلان بين مدن الجنوب ويستبعدان الشايقية والجعليين والبقارة لأسباب عرقية ، ويتوقفان عند النوبيين والجنوبيين ، يفاضلان ثم يستقران على أسماء محددة من الجنوبيين : غردون ديوم نانا . كمبالا . جمعة ماجاك . كتبه تيما . جبريل مرجان . وعلى بركة الله . حمد اختار وانتقى وكأنه رئيس عمليات ، مع أنه مجرد رقيب فى سرية على هامش الجيش . لكنه كوسيط كتوم ، ثالث أهم شخصية فوق الهضبة الملعونة .. وسكر وبدأ يخترف ويروى للبشير عن أدق الأسرار : «تعرف يا البشير يا ود عمى .. قناوى دا زول درويش ومخه خربان .. كل شىء عنده حرام . دا شنو دا ؟ بالله عليك يا البشير .. فى كتاب الله وسنة رسوله فى أى كلام عن التهريب ؟ عرب ودينهم الإسلام بيتاجروا مع أخوانهم ودا حرام من وين ؟ لا فيها خمور ولا خنازير ولا ربا ، شوية قماش وشاى والذى منه .. طيب ودا حرام من وين ؟ مش صلوات الله عليه قال تسعة أعشار الرزق فى التجارة ؟ هو بس اللى براه مسلم ؟ ونحنا شنو ؟ .. يعنى احنا سايبين بلادنا ومرميين فى جبالهم الخربانة علشان ناس صفر ومعانا واحد يدونا آخر الشهر ملاليم ؟ نسوى بيهم شنو ؟ كنا قعدنا فى ديارنا ونشرب المريسة أخير لنا . المهم .. طقت فى رأسى وسكرت سمح ومشيت للزول قناوى .. قلت لنفسى يا قاتل يا مقتول تصدق يا لبشير .. ألف جنيه لو مشيت بيهم للى ماسك مفاتيح مصر كلها .. هيقول لى أهلا وسهلا . وبعد السلام والصلاة على أشرف المرسلين ، قلت له سيدنا الشيخ .. أنت رجل على باب الله،

---

* داير منو : من تريد .

فقير دقة ، لا عندك ورث ولا أهلك عندهم مال ، وعندك بنات دايرين يعرسوا * يلزم لهم جهاز ، وعندك صبيان يحتاجون لتعليم ومستقبل .. بارك الله فيمن نفع واستنفع . والنبى قبل الهدية .. والإخوان كلهم يسلمون عليك .. طلاق تلات ما ترد الهدية ، هذه فلوس حلال من مال الله لأهل الله . وإن كان ما دايرها ليك، إرسلها لمقام سيدك عبد الرحيم القناوى يتشفع لينا ولك .. والفاتحة على الخاين وابن الحرام .. بسم الله .... ، تعرف يا لبشير .. الزول الكافر آبى* يشيل الفاتحة. قطع كلامى وعاين لى زين بعيونه الحمرا .. قال لى : إيه دا يا سودانى؟ قلت له .. قروش تجارة وما منكر ومن ناس طيبين وما دايرين منك غير الكلمة الطيبة . آه يا لبشير .. الزول الحلبى ود الغلفاء ضربنى كف .. ودانى طرشت وعضام فكى طقطقت ، لكن شنو .. الأيام بيننا ، إن كان ربنا طول فى أعمارنا.. هادعكه دعكه سمحة لمن أخليه يقول أنا مره .. وشرط قدام الخلق .. بس الصبر، خلينا نلم قروشهم الأول . والحكاية دى اتكررت مع الولد العرباوى رحومة السنينى ، ولد دكران زى أهلنا .. وما ممكن يكون من ناس أولاد على الخوانين ، أصله من ناس طارق بن ذياد ، ولد قلبه من حديد وعنده جنس دماغ تقول روميل . غايته .. مرة كنا نتباحث فى أمر قناوى قال لى : اسمع يا سودانى.. قناوى عندى .. خلينى أوقعه ، نصحته .. والله .. نصحته : يا عرباوى خليك بعيد ، قناوى زول كعب* ، وراهننى .. مائة جنيه منه ومليم منى.. وصمم وقال متفاخراً : «أنا رحومة السنينى ثعلب الصحراء ، وأهلنا دوخوا روميل ومونتوجمرى والطليان وساعدوا عمر المختار ، ورافقوا حملة طارق بن زياد أيام فتح الأندلس» كلام خارم بارم* ، كلام سكرانين ، مع أن أولاد على .. لا حاربوا حد ولا شافو الأندلس من أصله . ناس هاديين كده فى حالهم ، ولا معاهم نبابيت ولا سلاح من أى نوع .. تقول للمهرب منهم : عندك ، يسيب بضاعته ويمشى مدلدل راسه. وأكبر حاجه عندهم شوية طوب . لكن الخمرة شينة* .. زولنا رحومة سكر وقعد يلخبط : أنا رحومة السنينى عربى وسليل أشرف رجال العرب.. وما يغلبنى حتى الشيطان الرجيم ، أعطيت للعسكر والضابط والمصرى والسودانى والمغربى والشامى وما فى واحد رفض. واللى

---

* يعرس : يتزوج . * آبى : رفض . *كعب : ردئ . *خارم بارم : كلام فاضى . *شينة : سيئة .

يمانع ، ألف عليه بالهدايا . وما فلت منى مأمور ولا مدير أمن .. وفى النهاية كله واكل . غايته .. ركب راسه وحلف بتربة أبوه وشرف أمه .. يا هو فى السلوم يا قناوى . غايته فات يومين قول أسبوع ورحومة ما فى . فين وفين .. لقيته فى مستشفى السلوم .. مسلخ وموزم وكل فك فى ناحية . دفع الرهان وما قال كلمة .. وصار رحومة كالمجنون ، وركبه عفريت اسمه قناوى .

(١١)

قـناوى يتـذكـــــر

الآن ، والحافلة تبتعد ، والسلوم .. تتضاءل ، تختفى ، تبدو كنقطة باهتة ، تافهة وسط صحراء من الرمال والجبال ، وتشعر بالراحة ، تتنهد ، تستغفر ، تلقى بسوطك من النافذة . تنفض يدك من الماضى كله بخيره وشره ، تستند برأسك على الزجاج ، محتضنا مذياعك ، تحاول قطع الوقت بإغفاءة سريعة لكى تنسى ما فات ، لا تستطيع . تهاجمك الذكريات ، تكبس عليك الصور ، الوجوه بشعة، قاسية ، همجية . تتألم ، صدرك يضيق ، تنفخ ، أبداً لا تتخيل ما حدث ، أنت المساعد أول قناوى ، تقف بوقارك وماضيك أمام وكيل النيابة فى قسم شرطة السلوم مثل القتلة واللصوص ، والبنت مبروكة تمثل بوجهها المكشوف ولا تستحى، تقول كلاما قبيحا تخجل وأنت الرجل من قوله .. تقف وملابسها ممزقة ووجهها مخربش وشفتيها مجروحة ، ولا تدرى أى أبليس ألقاها فى طريقك وتفكر فى رحومة وحمد البخيت وجعلوص وينقصك الدليل . وهى تمثل ، تبكى وأنت مكسوف ، وعيون عساكر البوليس والمأمور تحاصرك ، تتخيل المصير المظلم الذى ينتظرك ، والبنت تكيل لك ، تتهمك صراحة وتقول باكية : يا سعادة البك القاضى هاك وجهى هاك شفتى ، هاك ملابسى وترفع جلبابها تتعرى ، تقول : وهاك سروالى . يا حضرة القاضى كنت ماشية لزيارة أهلى فى درنه* .. والصول هادا مسكنى بحدا السلك وقال لى : تعالى أسلمك .. ومشيت معاه . لأنه حكومة .. وفى الطريق قال لى : نريدك يا بدوية ، فسألته : وإيش تريد ؟ تريدنى نمشى للمأمور .. هيا .. مانى سارقة ولا مهربة ولا نورية ؟ أنا ست شريفة وماشية لأهلى غادى* ، تريد قروش ؟ هاك ما عندى غير دينار . قال لى : لا ، نريدك مثلما يريد الرجل الحرمة . أنا خايفة منه لأنه حكومة والدنيا خلا .. وقلت له : تحشم يا راجل كنك ؟ والكلام هادا ما عندنا .. وأنت شيبانى* خاف الله وإن كان تريدنى على سنة الله ورسوله .. الكلام ها دا ما يصير فى الصحراء ، إمشى لأهلى فى السلوم ومطروح ودرنه .. وأمسكنى يا حضرة القاضى ولوحنى* فى

---

* درنه : مدينة فى ليبيا . * غادى : هناك .
*شيبانى : كهل . * لوحنى : طرحنى أرضاً .

الأرض وبرك فوقى ، عضنى ، خربشنى ، مزق سروالى ودايرِ* العيب . أريت* يا حضرة القاضى . هادى الحكومة .. واحنا إيش نديروا .. الله غالب ..» . هى تحلف بمقام سيدها العوام ، وأنت تحلف بمقام سيدك عبد الرحيم القناوى وتحلف بالقرآن . ووكيل النيابة صدقها ونظر للسوط واتهمك بالتخلف والهمجية ، لتأثره بدموعها وتمثيلها وتوصيات أعدائك .. فهو صديق حتيتة بك ، ويستفيد من التسهيلات ، وصديق أعيان المدينة ، ولذا قرر إدانتك ، وكاد يلفقها لك بدون شهود . وأنت لا تدرى . هل هذه بنت عذراء أم امرأة .. وتخاف لو عرضوها على طبيب المستشفى أن يجامل الأوباش ويكتب تقريرا مزورا وتكون نهايتك . ما دام رحومة وراءك مثلما حدث مع بلال عثمان . وأنت لا تأخذ الناس بالظنون والشبهات .. ويكفى هذا الحقير الحرفوش ما ناله منك علقة سيحلف بها حتى يوم يبعثون ، حين جاءك بوجه مكشوف وعرض عليك ألف جنيه نظير كل صفقة أغنام تعبر بسلام .. وخمسمائة جنيه شهريا من التجار نظير الارتياح فوق سريرك من المغرب يوميا . وقال لك مهددا : إما تقبل أو نقتلك أو يصير معك مثلما صار مع بلال . وأنت لا تخاف هذا الصنف من البشر ، ضربته بالكرباج ودبشك البندقية والبوانى والشلاليت ولولا هروبه كالحريم .. لمات بين يديك . لكنك الآن تقف مكتوف اليدين وحزين على نفسك ، فبعد كفاحك الطويل ، سينتهى أمرك بالفضيحة على يد عاهرة . وكنت تستغيث بربك فى محنتك فأغاثك هذه المرة لحكمة يعلمها ، أرسل إليك ملاكا فى صورة كهل بدوى ، نفس الرجل الذى دافع عنك وحماك لحظة رحيلك .. وهذا الرجل الملاك ، كان يصلى بجوارك دائما صلاة الجمعة فى مسجد السلوم . ويبادلك الحديث الدينى ، يرتاح لك ، ينصحك الترفق بالفقراء من أهل المدينة ، لكنه أحبك لأنك لا تترخص «وتتفتف» مثل العساكر . رجل تتصوره كأولياء الله الصالحين أو بقايا الرعيل الأول ، نقى ، تقى ، فطرى . نفس هذا الملاك ، الرجل ، النبى ، اقتحم قسم شرطة السلوم بوقاره وحكمته وعصاه وقال لوكيل النيابة غاضبا : «هذا ملعوب يا سعادة القاضى ، والصول هادا لا يفعل العيب ولا يستحل ما حرمه الله» . ووكيل النيابة تجاهله وقال له : اتفضل استريح فى الخارج يا حاج وإذا كان لديك ما

---

* دايرِ : يريد .   * أريت : رأيت .

تقوله .. سأستدعيك للشهادة . لكن الرجل ضرب مبروكة المنحوسة بعصاه وشتمها : «تحشمى يا مره والكلام هادا عيب وحرام وما يصير عندنا .. ورحومة لن ينفعك يوم القيامة .. هيا .. هيا اخرجى» . وكيل النيابة أمر الحارس بطرده من مكتبه عنوة .. والرجل لا يتزحزح ، لوح بعصاه فى وجه مبروكة وهددها بعذاب الآخرة وشخط فيها : هيا .. هيا قولى للصول سامحنى .. قولى ، وشدها ، انهارت مبروكة باكية، خرجت تجرى مدلدلة الرأس والرجل يجرى وراءها . ولم يبق إلا إياك ووكيل النيابة الذى أقفل المحضر مؤقتا لانسحاب المدعية . ولو كان رجلا منصفا .. لأعاد فتح التحقيق على ضوء انهيار مبروكة وعرف منها الحقيقة واستدعى المحرض وسجنهما. والآن ترحل تاركا خلفك كل هذه الممارسات الهمجية ، وتتنهد بعمق بعد تخلصك من سوطك الأثرى الذى لازمك عمرك . فهذا الكون الخربان لن تصلحه وحدك ، لقد خلقت لتكون مقاتلا لا مطاردا للأغنام والحمير ومصلحا لخراب الذمم . وحنينك للبندقية لا يقاوم ، وتمنيت لو أبقوك هناك حتى يوم الثأر من الذين أرغموك للعودة سيرا ثلاث مرات ، ولترد اعتبارك من كلام البدوية العجوز التى كانت تحرس بئر عين أم أحمد فى مجاهل سيناء الجنوبية ، فسقتك بدل الماء علقما : «يا وليدى .. لوين ماشيين .. انتوا ديما لورا .. ما فى مرة لقدام ..» ، تعاتبك وأنت المغلوب على أمرك . وبعد أن سلمت حقيبة النقود ، رفضت الأجازة وبقيت عند حافة القنال تنتظر ، لكن الولد اللوطى القبيح يوميا كان يحرق أعصابكم ، يعرى لكم مؤخرته ويضرط فى وجوهكم ولا يكف عن حركاته الغبية . وأنتم مكبلون بوقف إطلاق النار والأوامر مشددة ، لأنهم انتصروا وما زالت قواتنا شاردة فى الصحراء وتحت رحمتهم . والولد لا يكف ، تمادى فى سفالته فأتى بمجندة وقام معها بأفعال فاضحة أمامكم ، ورفاقك يضربون رؤوسهم على حافة الخنادق كمدا وغيظا . وأنت لم تحتمل، لعنت وقف إطلاق النار ومن أصدره ، نشنت على مؤخرته ومزقت مصارينه بطلقة واحدة محكمة التصويب.. يستاهل ، ولولا هذا الحادث العارض ، لبقيت فى موقعك حتى يوم الزحف . ولما نقلوك بعيدا عن خطوط المواجهة ، وجدت نفسك فى مرسى مطروح ، واستقبلك القائد بالأحضان ، كان واحدا من أنبل وأشجع الضابط ، عملتما زمنا طويلا معا ، تنقلتما بين سيناء الجنوبية والشمالية وأطلقوا عليه حبيب العساكر ، يأكل معهم فتة العدس ويسهر

وسط الجنود فى الخنادق والخيام ، يعادى الضابط لصالح البسطاء ، يكره الباطل والقرش الحرام ، يحاول خلق عالم تسوده العدالة ، وقال لك : ليست مصادفة وصولك إلى هنا .. فقد طلبتك بالاسم من رئيس عمليات السلاح .. وسأكلفك بمهمة . أظنك سمعت عن السلوم ، لقد حاولت على مدى عامين إصلاح الأمور ولم أنجح بعد ، بدلت السرايا ، وغيرت الرجال .. أنذرت، حاكمت، ولا فائدة ، الذى يدنو من السلك تصيبه العدوى . العريف بلال عثمان، هل تذكره .. سبقك إلى هناك ونقل لى صورة قاتمة لا تبشر ، حتى وقوع النكسة لم يهز الضمائر .. فهل نستورد الشرفاء ولدينا أمثالك يا قناوى؟ تصرف بذكاء وحكمة ولا تصطدم بقائد السرية لأنه مسنود ، هو قريب فلان الذى كان قائدنا فى العريش .. هل تذكره ، كبر الآن وصار له شأن ونفوذ .. بالتوفيق واتصل بى فورا حين تصادفك المتاعب وستجدنى طائرا إليك . أنت وبلال وثلاثة جنود وسوطك الشهير . أشعلتم حربا ليس هذا أوانها ، فلا الجنود ولا ضباط الصف يتحمسون لها . لأنكم أقفلتم عليهم باب الرزق . ولا البدو الجياع صمدوا أمامها ، لكنكم حاربتم حتى سكنت الهضبة ، لقد لزم البدو خيامهم والعساكر قعدوا يهشون الذباب ، ومدير الجمارك يصرخ : «إيه دا ؟ جابوا الراجل المجنون دا منين؟ أمال هنشتغل إيه؟ » ، والمدينة كسدت تماما ، الأمر الوحيد الذى حيرك ، هو فشلك التام فى ضبط الأغنام حتى تشككت فى وجود نفق سرى بين شطرى الحدود، وكنت وقتها عاجزا عن الحركة مشلولا بعد تجريدك من بلال والجنود الثلاثة ونفيهم إلى «الملفا» بتهم ملفقة ، وقائد الكتيبة يتعجلك سرا لتهدئة ثورة مدير السلاح لأن وزير التموين شكاه لرئيس الوزراء ، فالأغنام شحت فى البلاد وأثمانها ترتفع ، وأنت حائر لا تدرى كيف تتصرف ، حتى خدمك الحظ وأمسكت بالخيط كله مرة واحد ، لأن الدليل البشارى انشق على جماعته وجاءك واشيا: يا عم قناوى الحكاية كيت وكيت ، الرقيب أول جعلوص وحمد البخيت والقائد وعساكر النقط ورحومة السنيني وحتيتة بك ، لأنك لا تثق فى هذا الصنف من الرجال ، وتؤمن بأن من نقل إليك نقل عنك ، ترددت ، تشككت ، قدمت له كتاب الله لكى يحلف عليه فحلف ، وقطع رغيفا لنصفين وحلف بالنعمة الشريفة وبشرف أمه وبمقام الشيخ الشاذلى ، طيب ، ما الموضوع يا بشارى ؟ نعم يا عم قناوى ، اللية موعدك

مع أكبر صفقة أغنام ، ستعبر بعد صلاة العشاء وقبل صلاة الفجر من نقطة «صلب النص»* اليلة بالذات قيدك القائد بعدم التحرك لأنه سيكلفك بمهمة خطيرة وينتظر ساعة الصفر بعد ورود إشارة بالشفرة ، وحين سألته عن نوع المهمة قال لك هامسا : المعلومات المتوفرة حتى الآن مشوشة ، عناصر من الضفادع البشرية ستنزل ساحل السلوم ، وهذا سر لا يعلم به أحد حتى تصلنى الإشارة . وعليك فقط بالانتظار . وأنت تسأل نفسك : أى ضفادع بشرية هذه التى ستأتى للسلوم ؟ ولأى هدف ؟ هل يترك العدو موانئ البحر الأحمر وبورسعيد والإسكندرية ويأتى إلى هنا لنسف الأغنام والحمير ؟ أتوجد فى السلوم قاعدة سرية مجهولة ؟ ترنو للأفق فلا ترى سوى السراب ، لكنك تنتظر كجندى ملتزم يفرح للمهام الصعبة لأنك أهل لها ، تنتظر وتخطط فى ذهنك تصورا للمواجهة ، لقد أبعدوك من هناك فجاءوا إليك ، والويل لهم من ثأرك المؤجل ستقبض عليهم ، ولن تسلمهم قبل ضرب مؤخراتهم بالسياط ، تنتظر والقائد لا يأتى ولا عريف الإشارة أفاد بوصول أمر عاجل ، لا شيء ، والدليل يتعجلك فى وجهك : « تبقى لازم يا زول واكل معاهم زى ما قالوا ؟» ، وأنت مغلول والوقت يمضى ، وبدأت تشك ، ثم تحول شكك إلى يقين حين بحثت عن جعلوص وحمد البخيت ولم تجدهما ، تحاول الاتصال بقائد الكتيبة تليفونيا فتتعثر ، تجرب إبلاغه لاسلكياً فيرفض عريف الإشارة لأن هذا من اختصاص قائد السرية ، تتوتر ، تتمرد لثانى مرة فى حياتك العسكرية ، تجمع السائق والعساكر بالأمر وكنت خلف النقطة فى آخر لحظة ، وتصورت أنك حققت نصرا وقضيت على الجماعة.. ولكن ..

* صلب النص : أقرب منطقة بين المدينتين .

(١٢)

عـــــودة قـــناوى

بعد هزيمتك ودحرك وتفجيرك وتسرب نصرك من ثقوب قانون الهمج ، استدعاك قائد الكتيبة فور وصولك وقال لك مؤنبا .

- كنت كلمتنى وأنا أطير إليك ، لهذه المهام العاجلة اخترعوا التليفونات يا قناوى .

- حاولت .

- أليس فى السرية جهاز لاسلكى ؟

- كله مراقب يا فندم .

- لهذه الدرجة ؟

- أقول الصدق ولا تزعل ؟

- إنى أسمعك .

- ألن تحاسبنى.

- قل .

- بدأت أشك حتى فى سيادتك .

- قناوى !

- قلت ما عندى.

- أنا يا قناوى ؟

- عليك بإثبات العكس .

- معقول يا قناوى؟

- يا افندم .. الإغراء هناك شديد .

- ولو .. سأحاول من جديد .

- لم يبق سوى وقوفك شخصيا عند السلك .

- انتظر وسترى .

وتحرك قائد الكتيبة ، لأول مرة يتدخل بثقله وكامل سلطاته ، استدعى قائد السرية ، وأرسله إلى إدارة الحدود مسبوقا بإشارة وخطاب سرى عاجل ، أعاد العريف بلالاً ورفاقه من منفاهم إلى السرية وأوصى بترقيتهم استثنائيا ، أبرق للنيابة العسكرية بالإسكندرية لكى تعيد فتح التحقيق مع العسكريين فى موضوع الأغنام ، سحب كافة العناصر المشبوهة ووضعها تحت الحراسة ، عدا حمد البخيت ، أمسك ذيل جلبابه بأسنانه « ويا فكيك» للسودان .

وبينما كان يقوم ، وفى سرية تامة ، بإنشاء وحدة جديدة انتقى أفرادها بدقة وترو وفحص ، جاءت عدة إشارات عاجلة ، الأولى بنقل عدد من الجنود إلى خطوط المواجهة ، والثانية بتشكيل مجلس عسكرى للعر يف بلال عثمان استنادا على محضر شرطة السلوم لإخلاله بالضبط والربط وحسن الانتظام العسكرى ، و الثالثة بإنهاء خدمة المساعد قناوى الشريف للاستغناء ، والرابعة بنقل قائد الكتيبة إلى ..

تمهيدا لـ ....

الجزء الثالث

بـــلال يحـــترق

بين عامى ١٩٩٣ ، ١٩٩٤

(١)

صوت الكورارث ما زال يقتحمك ! ينتزعك من عالمك الخاص المشوش .. برنين التوقيت الحرج ، تنام فلا تنساهم ، يدخلون أحلامك فيشوهونها ، لكنك تنام نوما متقطعا وتحلم ، تحلق ، تلج عالما آخر مغايرا لواقع مقلق . وليلتك كانت أحلامها عجيبة : كنت تحتضن قناوى ، تهدهده . تلقمه ثدييك ، ورأيته أيضا ملفوفا فى أعلام الوطن فوق عربة مدفع تجرها الخيول ، يتقدمها الجنود بخطواتهم العسكرية الجنائزية المهيبة ، وملايين البشر من الخلف وعلى جانبى طريق طويل .. طويل ، بدايته السلوم ونهايته رفح سيناء ، وبشر من كل صنف : بدو من الغرب والشرق ، عبابدة و بشارية من البحر الأحمر ، نوبيون من الجنوب، صعايدة ، بحاروة ، إسكندرانيون ، قاهريون ، فلاحون ، كلهم يودعونه: مع السلامة يا قناوى .. فى ذمة التاريخ يا قناوى . النساء ينشرن الزهور ، الأطفال يغنون .. بلادى .. بلادى .. لك حبى وفؤادى ، وأنت تجرى طوال الطريق ومعك مكبر صوت ، تسبق الجنازة ، تعلن ، تنبه : أيها الأصدقاء .. لا بكاء اليوم .. أرجوكم لا بكاء . والجنازة تسير ، تمر على الخيام ، بيوت الطين ، عشش الفقراء ، أخواص الصيادين ، قصور المرتاحين .. تسير والناس ينتظرون لإلقاء آخر نظرة على أخلص رجل وفى كل قرية ومدينة يعترضون الموكب ، يريدون خطفه ودفنه عندهم . والقناوية يتعصبون له . وأنت القائد الآمر وترفض تحويله إلى وثن درويش أو مقام تبرك . والجنازة تسير .. تتقدمها دليلا ثم تقف عند منشية البكرى وتقول لهم : هنا بجوار الزعيم .

والرنين المزعج يقطع عليك الشريط قبل انتهاء مراسم الدفن ، تقوم متثاقلا والشواكيش تدق رأسك من ثقل الأحزان وسهرة الأمس . تفكر فى تحطيم الهاتف، تفكر فى سبه ، تتراجع لأنه صار مصدرا للمعلومات .. ألو .. ألو ..! تبادر بالرد ساخرا :

- صباحنا مثل وجهك يا عسل .
- وهل تعرف لون وجهى .
- بالتأكيد فى لون الليل .. لأنك تنعق دائما .
- أراك تمزح .
- حتى لا أنفجر كما تخططون .
- سلامتك .
- لا سلمك الله .
- لسانك هذا سبب محنتك .
- ماذا عندك ؟
- غادر حالا .
- والسبب ؟
- الشرطة يجمعون رفاق سهرة البارحة .
- وهل كنا نتآمر فى بار ؟
- لا تتفلسف وارحل .
- حتى السكر يستكثرونه علينا ؟
- المسألة أكبر .
- تحريم دولى لشرب الخمور أم توصيات صندوق النقد ؟
- الشاعر الذى نقلوه أمس .
- هل هجاهم وهو سكران؟
- أصيب بالعمى والشلل .
- يا ساتر ؟
- الخمرة كانت مسمومة .
- مسمومة ؟

- والشكوك تحوم حولكم .

- كلنا شربنا منها .

- والعين عليك .

- أنا ؟

- هذه فرصتك الأخيرة .. إن ترددت .. هلكت .

وهذا خامس ضحاياك وينبغى التفكير جديا لو صحت الواقعة . تحرى ، تأكد ثم أحسمها مع نفسك : إما بالمغادرة لعدم وقوع ضحايا جدد ، أو بمواجهة دامية تستشهد فيها كرجل ، وتتغنى الأجيال بملحمتك . لكن السؤال : ستواجه من؟ طواحين الهواء؟ إنهم على قدر من الذكاء إذ تركوك أمام مساحة من الفراغ والوهم .. لأنك لا تملك دليلا واحدا لربط همج تأويل النص بالأشباح ، بحلاب البقرة ، بالمنحرفين من رجال التصدى . ثمة مصالح مشتركة تآمرات خفية وأيد تعبث من وراء الستار يحركها الهمج المتربصون على أبواب رفح. أين أدلتك ؟ من ستواجه ؟ تلك هى المشكلة والكارثة . تستعيد بدقة شريط السهرة : لحظة بلحظة ، قبل تفرقكم المذعور حين انتابت الشاعر حالة مرضية مخيفة : صعوبة التنفس ، وجحوظ العينين ، ارتعاشات الأطراف .. فحمله صديق مقرب وأسرع به للعلاج . اعتقدتم وقتها أنها مجرد وعكة ، لكنك الآن تلوم نفسك وضميرك يعذبك .. كان بوسعك منع وقوع الكارثة .. أيها الهمجى المذنب . أنت مجرم وتستحق شرف الانضمام للملكة الهمجية عن جدارة . تشككت فى الكأس الغريب من البداية : لماذا أبقيته على المائدة ، إذن ؟ الشريط كله أمامك .. الكؤوس فوق المائدة زجاجات البيرة أطباق المزة ، مكعبات الثلج ، وجوه الرواد ، الجارسونات، باعة المناديل والفول السودانى والمتسولون . وكؤوس التحية تنزل على مائدة أهل الفكر والأدب من المريدين والمحبين وعشاق الكلمة : ربع ڤين يا سيد لصاحب ديروط الشريف ... دوبل يا حماد لمبدع بيضة النعامة الذى افتتح الرواية باغتصاب مؤلفها . وواحدة ساقعة كمان لمطر. وصديق يسأل: «مالك يا جدع ما تفرفش امال ؟» وأنت صامت تطلب ، تشرب وحدك .. لا تتبادل معهم الأنخاب . والليلة بالذات ، بعد موت قناوى ، كنت تشك فى أصابعك ، فإذا كان صاحب الرقم قد فشل معك فهل صمد أمامه فقراء الكتاب ؟! وقد خافوا من

مجنون .. فماذا عنك ؟ كنت مستهدفا والرؤية الآن واضحة والرسالة وصلت لغير المرسل إليه . الأوغاد : خططوا للقضاء عليك فى لحظة فوضى وسكر وشيوع .. تدميرك ومسحك فى موقف شائك فاضح . كنت تبكى قناوى والدمار قابع فى قاع كأس على بعد سنتيمترات منك : شلل عمى فقدان ذاكرة. تلوث صحفهم القذرة سيرتك ويكتبون عن أدعياء النضال الذين يتفسحون فى البارات ويموتون بالتسمم الكحولى ، يقضون عليك ماديا وأدبيا ويستريحون منك إلى الأبد .. أيها المشاغب المناكف . ضاقوا بك فلجأوا للخمرة المسمومة ، شربها الشاعر وافتداك ، تتذكر الآن أدق التفاصيل : فى زحمة البار ، الصخب ، تبادل الكؤوس ، الحوارات الساخنة ، القهقهات ، غياب الإدراك والفوضى : اقترب منك همجى تراه لأول مرة ، وقف بجوارك وقدم نفسه كقارئ معجب وأثنى على كتاباتك ورفعك لمستوى نجيب محفوظ وحدد لك موعدا فى زهرة البستان وسيوافيك ومعه مستشرق غربى اختار أحد نصوصك لترجمته . كان يتحدث بصوت خفيض منحنيا حتى لا يسمعه الحساد .. وبيده كأس مملؤ للحافة ، وعند انصرافه ، قدمه لك .. تحية مودة وتعارف من معجب لأديب متميز ، زاعما أن حماسه لقيمتك سبب ترشيحك للمترجم .. لا سعيا وراء منفعة خاصة وإنما إعجابا بموهبتك ، وعند توقيع العقد ، لن تزيد مكافأته عن سهرة فى الجريون . وأنت مهما شربت ، حتى الكحول الخالص .. لا تسكر . تمسك دائما بالخيط الفاصل بين الغيبوبة والوعى وتظل قادرا على الحركة والتمييز . ولحظة وصول كأس الهلاك إليك ، كنت منتشيا بالثناء وحكاية المترجم الذى هبط عليك . وكتبت الموعد كى لا تنسى ، ومع ذلك ، كنت واعيا ونظرت للكأس باستغراب .. لأنه ممتلئ للحافة ، لا هو دوبل ولا دوبلين ، تشمه فلا تجده مخلوطا بالبيرة . فإما أن الرجل فلاح شرب أو مبتدئ أو سكران طينة ، تتلفت لتراه كيف يشرب ، يتعامل، عن ماذا يتحدث ؟ .. فلا تجده . تجوب بعينيك الموائد الأخرى ، منصة البار ، ترصد المبولة .. فلا تعثر عليه . تسأل عنه الجرسون .. فيفيدك بأنه زبون جديد يأتى لثانى مرة ، ويبدو عليه ممن يسافرون لبلاد المال :« بس إيه .. كده .. جدع قوى وفنجرى .. تعرف يا أستاذ .. أحسن زبون النهارده .. تقول اداني كام.. مش هتصدق .. حتة بعشرة .. حد فيكم عملها قبل كده .. دا أنتو عالم آخر فقر» .. فتشككت فى الرجل والكأس وأزحته بعيدا عنك ، ليس أمامك أو أمام أحد، فى

المنطقة المحايدة بين الكؤوس ، فظل مهملا .. متروكا . قوة خفية حذرتك منه ، تنظر إليه وكأنه عفريت . كأس الدمار أمامك والفأر داخلك ، وكان المفروض وقتها أن تريقه أو تحمله لمعهد السموم لكى تحسم المسألة وتقطع الشك باليقين وتتضح الأمور، جنون ووهم أم شبح مطارد فعلا ؟ لكنك تركت المسألة معلقة ، انشغلت تفكر فى قناوى ، تسترجع نصيحة أمك الغالية : «يا ابنى خليك فى حالك .. أنت مش قدهم . دى ناس قادرة وفاجرة وما يعرفوش ربنا .. ودين النبى هتموت قتيل .. أنا أهه وأنت أهه » .. كانت فيلسوفة بالفطرة . هؤلاء الهمج سلالة معاوية والمماليك ، التآمر ، الخسة ، الدربة ، المناورات . وتفكر فى موتك بنفس طريقة قناوى ، داخل قبو أو تخشيبة : يفتعل رعاع المساجين مشاجرة تذهب ضحيتها .. سجين ضربه المساجين . وكنت تفكر فى حادث عارض وقع لك .. أثناء عودتك من زيارة قناوى : وصلت إلى شارع الجبلاية بعد المغرب ، فى طريقك إلى عوامة صديق من عشاق الكلمة وقريب للطبيب النفسى الذى اخترته ليحل لك لغز قناوى ، تسهر معهما وأنت تتأمل النيل فى تلك المنطقة خافته الإضاءة ، فباغتتك سيارة مسرعة وكادت تفرمك ، قفزت ، نجوت ، وقفت ترتعش، قلبك يدق وقلت الحمد لله .. تذكرته وقلت مع أنك تخاصمه كثيرا وتسأل نفسك : هل يؤمن به القتلة بكافة أنواعهم وتفريعاتهم ؟ الهمج والأشباح والذين أبادوا شعوبا وما زالوا يبيدون ؟ وهل يؤمن به الذين يمارسون اللواط يسكرون ويزنون فى قصورهم ثم يقيمون الحد على سارق الرغيف ؟ وهل يغفر لهؤلاء ويشملهم برحمته لو غسلوا أيديهم من جرائمهم وصلوا وحجوا وزكوا واعتمروا ؟ وأين تذهب الدماء التى أريقت والأرواح التى أزهقت ؟! أنت تسأل وتشك : لكنك تحبه فى الزهرة المتفتحة ، نسمات الربيع ، أنبياء التسامح والخيرين والطيبين والرحماء والجمال ، تحبه وأنت تأكل والناس يأكلون ، وحين تهطل الأمطار فى مناطق الجدب فتزدهر الحياة ، ثم ترفع عينيك للسماء حائرا .. حين تغضب الطبيعة وتقذف بالحمم والزلازل والموت والدمار ، عندما تسمع دوى القنابل ولمعان السناكى والسيوف ، عندما يلجأ الناس لصفائح القمامة كالقطط والكلاب وتزداد حيرتك حين يسود الهمج ويغتنى الأشباح والأوباش ويقولون هذا من عند الله .. يعطى لمن يشاء ، ثم يذهبون بعد ذلك للحج والعمرة ويقيمون موائد الرحمن فى رمضان ويبنون المساجد حتى يغفر لهم ويضمنون الآخرة بعد الدنيا

التى خربوها ، وتسأل نفسك هل يغفر لهم حقا ؟ وتتمزق بين تراثك الدينى وعقلك. كنت تفكر ونسيت كأس الموت فى المنطقة المحايدة بين الشاربين .. كأس الإغراء المجانى . وكان الواجب الإنسانى يحتم عليك إبقاءه تحت سيطرتك. وقبل ذلك مر بذهنك خاطر سريع فى لحظة تشويش ينفى عن واهب الكأس صفة التآمر وإنما هو ابن بلد ، شهم جدع ، اصطفاك وحياك بكأس محبة ، وأردت التأكد فتركت الكأس على المشاع لمن يجربه لك وبذلك لبست قناع الهمج، وتخليت فى لحظة ضعف عن إنسانيتك ، ولم تعد ذلك الطفل الذى يحذر الناس من اللبن المغشوش ولحم القطط وأنقذ ابن جارته ورد العقل لأبيه . فحين تركت الكأس للتجريب فقدت مصداقيتك ، والشاعر كان همجيا أو غائبا عن الوعى حين سطا على الكأس لو استأذن أو سأل ، كنت بالتأكيد ستمنعه أو تحيطه علما بوساوسك لكنه شربه دفعة واحدة وراح . وحدثت هوجة ذعر وتفرقتهم ، خرجت وذهنك خال تماما من حجم الكارثة ، ولم تتخيل أنهم بهذه الدرجة من الوحشية والغلظة وحاولت طمأنة نفسك بالتهوين ، غسيل معدة ويرتاح ، حقنة بسيطة ويشفى ، حاولت النسيان ، تمشيت لتبعد الصورة عن ذهنك، شغلت نفسك بأشياء أخرى ، وقفت تتفرج على سيارات الشرطة المستعدة فى ميدان سليمان باشا .. بجوار جروبى وسط الدائرة تماما .. وأماكنكم على الأجناب : الأتيليه ، التجمع ، الحزب الناصرى ، زهرة البستان ، المستودع . وهم جاهزون للتحرك الفورى والإسكات . وكنت تتساءل : لماذا يقفون هنا بهذه الكثافة ؟ فالمنازلة ليست بينكم وبينهم .. هناك لبس ، تداخل خطوط ، تمييع مواقف ، ومحاولة ماكرة للوقيعة بينكم لكى تتسع مساحة الهول وتتشتت الجهود مع أن الأعداء واضحون كشمس النهار ، الهمج الذين عند بوابة رفح ، الهمج الذين يؤولون النص على هواهم ، حلاب البقرة الأشباح ، وكنت تدنو منهم لتسألهم لماذا تقفون هنا ؟ تدنو حتى صار بينك وبينهم مسافة ذراع ورأيت عن كثب : وجوها جامدة حجرية وعيونا حمراء شريرة وبنادقا مسنودة على حافة مؤخرة السيارات وفوهاتها موجهة إلى الجميع والسناكى مفرودة تلمع مع الضوء . خطأ بسيط ويفتح الجحيم أبوابه . وكنت تبحث عن قائدهم لتسأله : ما هى المهمة بالتحديد والتعليمات التى تلقيتها ولقنتها لجنودك ؟ متى يضربون ؟ومن؟ تود لو تفتح معه جسرا من الثقة والود وتحدثه عن الأشباح الذين ترتبط مصالحهم بهمج أبواب

رفح فيحركون من خلف الستار همج الداخل ، هذا المثلث الشيطانى الرهيب .. وددت لو يعرفه ، لكن الضابط كان يقف مزهوا بدبابيره وسلطاته على الناصية ، يراقب الجميلات ويقول صائحا ، مشيرا إليك : «مشوا الجدع اللكع دا..» ، فيندفع نحوك ثور فطرى هائج ، ينطحك ، يدفعك بيده البدائية ، يصيح : «مش سامع الباشا قال إيه ؟ أنت أطرش؟ أمشى انجر من هنا .. اتلحلح يا بجم..» ، الأسلوب الهمجى سمرك ، المباغته شلت قدميك ، تود لو ترد أو يعتذر لك أحد ، أو يتدخل عابر يطيب خاطرك ، تود لو يهبط رخ أسطورى ، يخطفك ، يبعدك عنهم بإرادتك بعد الإهانة .. لا تقدر . مذهولا تنظر للعسكرى كالأبله وتسمع صوت الضابط من بعيد : «ماله الحيوان دا؟» ، فترى ثورا آخر يقفز من السيارة صارخا : عا عا .. يتقدم نحوك فى وضع قتالى .. يتقدم ، فتتراجع بظهرك ، تتعثر بالرصيف ، تقع.. تتبعثر : كتبك فى ناحية ونظارتك فى ناحية أخرى .. جسدك ممدد ، رأسك تتحسسها فلا تجدها . أين رأسك ؟ يسندك المارة.. «يلمونك» يعيدون توضيبك ، يثبتون رأسك مكانها ، تحرك رقبتك ، تطرقعها ، تطمئن على قوة التثبيت ، تقوم ، يأخذك أحدهم بعيدا ، يسألك : «عملت لهم إيه؟» ، بماذا تفسر ؟ تسكت . فيضيف : «كله إلا دول ..ما عندهمش هزار .. على طول طخ» ، وأنت تبتعد عن الميدان ، وشوارع وسط البلد كلها . كنت مندهشا مجروحا مهانا : البجم نعتك بالبجم والهمجى نعتك بالحيوان. ماذا لو قالها بأدب : لو سمحت يا أخ . كنت ستذهب لحالك مرتاحا . الآن .. أيقظوا فيك الشر والغيظ ، نفخوا فى الرماد، دخلت بارا وشربت لتبريد جوفك بالنار . وعدت إلى شقتك . ممرورا عدت . تتحسس رأسك التى هذبتها وحشوت بها عصير الكتب وفكرت بها ، مجرد رأس بجم ، تثور ، تبعثر أوراقك ، أقلامك .. والحريق داخلك .. نار . تفتح النافذة ، تفرغ شحنتك فى الهواء تصرخ بأعلى صوتك . يا بجم .. يا حيوانات . لم تنم ليلتها . كان يومك حافلا : موت قناوى ، حادث البار ، موت كبريائك فى الميدان، والآن جاءك خبر الشاعر .. وأمر بالمغادرة . حادثت صديقا وتأكدت من موضوع الخمرة المسمومة ، استسلمت وقعدت تنتظر المداهمة، هيأت نفسك لها. وسهرت الليل مع رواية أسطورة قناوى والهاتف يرن لثانى مرة ، لا ترد ولا تريد : لأنك قرفان ، أفكارك تهبط ، تتدنى لأسفل .. تفكر فى الثأر والرد.. لكن ترد على من ؟ وكيف ؟ وتفكر جديا فى الرحيل .. لكن إلى

أين ؟ والرنين لا ينقطع ، ترفع السماعة وتشخط : نعم من تريد ؟ ويأتيك الرد من الجانب الآخر، حادا ، جافا ، عدائيا ، منذرا .. وفى أول الليل هذه المرة ، بضمير المتكلم، ويقذف بجملة واحدة دون مقدمات : على باب شقتك ستجد رسالة .. كإنذار أخير .. أرحل أو أحرقك حيا .

(٢)

تنظر من العين السحرية برهة ثم تفتح الباب بحذر فلا تجد سوى علبة من الصفيح مليئة بالبنزين وفوقها علبة ثقاب .. وتلك هى الرسالة. تدير قرص السماعة على الرقم السرى فيرد عليك صوت الجهاز : عند سماعك الصفارة أترك اسمك وعنوانك ورسالتك .. وسأتصل بك فى وقت لاحق . تلجأ لأرقامه العادية ، فيعتذرون لك لسفر الباشا فى مهمة ولا يمانعون من استلام بلاغك أو رسالتك ، لو كانت ذات أهمية تتعلق بالعمل . والرسالة أمام باب شقتك وأنت على أبواب الجنون . ترفع السماعة من جديد لتطلب النجدة ، ثم تتراجع يائسا : تشكو لمن ؟ وعن ماذا ؟ وتقرر بكل إرادتك .. تقرر الرحيل وأنت فى كامل صحوتك ، تقرر لأنك لن تحتمل وقوع ضحايا جدد . وتفكر .. كيف .. سترحل والمنافذ الشرعية مقفلة أمامك بفرمان من الشبح ، وليس أمامك خيارات سوى التسلل من المنافذ البرية وتحاول الاختيار : الهمج على أبواب رفح ، فإن ذهبت إليهم .. بادلوك بجاسوس أو مهرب مخدرات .. لأنهم يكرهونك ويعرفون ماضيك وحاضرك والجسور بينك وبينهم مقطوعة ومهما كانت الأخطار هنا .. فلن تبيع . والهمج ينتظرونك جنوبا لإقامة حد الردة. عليك حتى لو استتابوك وتبت طلبا للنجاة ، وأنت لن تذهب إليهم وتقايض حياتك بقناعتك . ومن باب أولى أن تتنازل هنا وترتاح . لم يبق أمامك سوى الاتجاه غربا فتهرب من مدينة تحاصرك إلى مدينة محاصرة ، تستبدل موتا قائما بآخر محتملاً مثلما قالوا عن النار والرمضاء. لقد قررت الرحيل إليهم ولم تحدد بعد : ماذا ستفعل هناك ؟ تلملم حاجاتك الضرورية فى حقيبة بسيطة : كتبك المهمة ، ملابسك ، أوراقك ، أصول روايتك الفريدة المزعجة . وتجلس لتودع كتبك ، ذكرياتك ، حوائط شقتك، نوافذ الجيران، تهاتف أصدقاءك المقربين : وأهم وأغلى وأحب من عرفت : الأرملة . تسمع صوتها الدافئ العذب فتهدأ ، ترتاح ، تطمئن . قلت لها أحبك .. وكنت صادقا . قلت لها أريدك الآن وكنت فى حاجة ماسة لصدرها الحنون ، تريح فوقه رأسك وكأنها أمك . قلت لها نتزوج الآن ونرحل معا إلى أرض الله الواسعة فتعللت بالأولاد .. وكانت على حق . قلت لها : اتركى ما بيدك وتعالى حالا لأنى أريدك .. ظمآن ظمأ التائه فى الفيافى الموحشة .. فسمعت ردها المتعقل لأنها تجهل هول ما تعانيه : ومستعجل قوى كده ليه ؟ بكره .. بعده .. ما كنت

عندك من يومين وسيبتنى وقعدت تقرأ .. أنت تلح تتذلل وهى تسوق لك الأعذار والأسباب. أنت مصمم وهى عاقلة تهددها متهورا : انتظرينى .. أنا قادم إليك حالا . فسمعت صرختها الفزعة عبر التلفزيون ، أوعى يا مجنون الولاد زمانهم جايين .. هيدبحوك ويدبحونى .. وحين لم تترك لها خيارا صدمتك بالسبب الحقيقى : بقول لك إيه ؟ أصل الراية مرفوعة . فتلعن الأولاد والموانع وبوكس الترحيلات والبارات التى تغلق أبوبها في منتصف الليل والمناسبات الدينية .. فتكتوى بنار الظمأ والحنين.. فتعلمها بالخبر مخففا بأنك راحل فجرا .. ولمدة قد تطول ، وأوصيتها على شقتك وكتبك ، فجنت وجاءت إليك طائرة كما هى : برايتها وشوقها . وتمارسان حبا مجنونا كالمراهقين .. أجساد عارية تتلاصق ولا تلتحم ، شراب لا يؤدى لارتواء . جنون ما بعده جنون . وتسمع صوتها المحذر وكأنه آت من مكان بعيد .. بعيد : أوعى يا مجنون .. أوعى .. لحسن تعيا وتموت .. طيب استنى .. أنا جايية معايا مانع .. لكنها وفى آخر مراحل الجنون، نزعت المانع بنفسها وخضتما معا آخر المعارك .. وتغامر .. تهاتف أولادها .. تخبرهم أنها مع صديقة تعانى من المخاض وتقضى معك الليل ، تبكى على صدرها ، طوال الليل تبكى . وتسأل نفسك مؤنبا : كيف تغادر تاركا هذه الأرض العطشى الطيبة الوفية. ومع نسمات الصباح .. تقطعان الشوارع سيرا حتى باب المحطة .. متشابكى الأيدى . وتقبلها على الرصيف كالأجانب دون خشية . وتركب متردداً القطار : قطار الرحيل إلى المجهول . وكانت تبكى ، وكنت تبكى.

(٣)

الفرا ر. الانسلاخ من دفء الجلد وحرارة الدماء إلى زمهرير العراء والعرى . القفز إلى المجهول . تفر الآن تاركا أشلاء ضحاياك خلفك وحب الخريف .. الأرملة . حبك الوحيد الحقيقى . المرأة .. الوطن . ثريا كانت وهما ولكنك شغلت نفسك بها زمنا . وزوجتك العابرة كانت سوء اختيار .. فكرهت كتبك واهتماماتك، لكن الأرملة .. أحبتك كما أنت .. بكتبك وهوسك وهلاوسك وشطحاتك وعزوفك عنها أحيانا . وهبتك عواطفها وجسدها وحنانها . وكان ينبغى أن تكيف نفسك لتكون محطتك الأخيرة . لكنك تخليت عنها وفررت تاركا مدينتك فى قبضة الأشباح والهمج . أيها الجبان المذعور من شبح قد لا يكون له وجود سوى فى أوهامك . فأين دليلك أن الشاعر لم يبلبع حبوبا تفاعلت مع الكحول وأهلكته ؟ وبأى دليل برأت الإهمال من حريق المطبعة ؟ ومن أدراك بأن صاحب المطبعة الثانية ، وقد طبع روايتك الشائكة ، كان يرفض ما يعرض عليه سعيا وراء الكسب ؟ ألم تفكر للحظة بأن الذين قتلوا قناوى مجرد مجانين يصعب تحريضهم وتوجيهم ؟ وعلبة البنزين تلك .. أليس من المرجح اعتبارها لعبة خسيسة من تفانين صاحب العقار لكى تترك له الشقة ؟ وروايتك هذه .. هل تظنها من الأعمال الإبداعية رفيعة المستوى ؟ ولم لا تعلل رفضها بسبب الركاكة ؟ وقناوى هذا .. بطل روايتك .. هل يستحق التمجيد ؟ ألم تسأل نفسك بموضوعية .. كيف يكون من العدل ضرب البشر بالسوط فى نهايات القرن العشرين ؟ وشادى هذا .. هل تحريت عن مصادر تمويل مجلته ؟ أبدا ليست بيدك وثيقة واحدة دامغة ، وبنيت كل استنتاجاتك على افتراضات واهية وخاطئة : أيها الجبان .. أنت جرذ .. مجرد جرذ .. يركض هربا من مواء قد يكون من ألاعيب طفل . وأنت تجرى تسمع المواء وتفر ولا قط .. تتوجس فتبدل القطار بسيارة أجرة وتراوغ .. تتخيل أشباحا كأنهم تفرغوا لك ، مع أنك ولا حاجة . القافلة تسير وأنت تنبح .. وفى الطريق البرى ، من العامرية على امتداد الساحل الشمالى : القرى السياحية الجديدة تخرج لسانها لك .. وتقول : موتوا بغيظكم . ولما قالها الزعيم لهم .. ردوا عليه عمليا فمات هو غيظا .. انفجر . وهذه الفيلات الأنيقة فى قرى الساحل يصطاف فيها الذين أعطوا قناوى شهادات الورق وشرائط الدمور وأوسمة البرونز . وأخذوا هم الذهب والمجد . ومت أنت

بغيظك . اكتب ، تشرد ، اصرخ ، اهتف ، ارفع لافتتك فى وجوههم : لا تصالح . لكن ولا حاجة.. طظ فيك .. تصالحوا وتزاوروا وريحوا من البزنس ويجلسون الآن على يمين الطريق فى فيلاتهم بأرواب الكشمير يستجمون ويعيشون وأنت تفر خوفا وفشلا . ولو كنت مناضلاً بحق عد إليهم قاوم ، واصل تحديك لو كنت مقتنعا بأن ما حدث حقائق لا لبس فيها ، وأن اختيارك لهذا الطريق الوعر كان عن قناعة ، ولم تكن مجرد رافع شعارات ركب الموجة تقول كلاما وتؤمن بالعكس، لأنك خرجت من رحم أمة تعشق القول لذاته . تنتبه فترى السيارة تجنح أمام نقطة مرور الضبعة لتفسح الطريق لمرسيدس شبح آخر موديل ، الأشباح تطاردك حتى فى ماركات السيارات . ويتزاحم العساكر والصولات لتحية ملك الصحراء وتفخيمه .. فينفحهم بسخاء ، فكادوا يسجدون له : هؤلاء الوثنيون . إله بدوى ، ثرى ، قوى ، فمن يكون ؟ أ هو ملك ملوك آبار النفط ؟ كل يوم يفتح بئرا جديدا فتضخ زيتا أسود يشوه الوجوه والمدن والذمم ؟ من يكون ؟ تسأل ؟ فهذا وجه جديد بين الوجوه المعروفة ، أم هو تاجر رقيق عصرى ممن كانوا يجلبون البشر من هنا إلى هناك تحت ستار العمالة ؟ هو بالتأكيد أحد الملوك الجدد وهم كثرة. فكل سيارة شبح وراءها ملك حقيقى .. يملك مساحة من الأرض والبشر والمصائر.. ويحكم . وإن لم يكن كذلك ، فلماذا احتجزوكم وأفسحوا له الطريق ؟ وترد عل نفسك متهكما : إنما هو أحد المردة الذين خرجوا بعد دعك خاتم سليمان. وتسمع بدويا خلفك ، يدعو له : الله يعطيه ، الله يبارك فى ماله ، الله يطول عمره. وتسأله قريبك يا حاج ؟ فيرد متباهيا : «هادا قريبنا كلنا .. هادا يا خوى رحومة السنينى.. شيخنا وعمدتنا ونائبنا وحاكمنا .. وإيش نكون لولاه ؟» . تستغرب .. فتأتيك التفاصيل من آخر : «هادا أغنى واحد فى البلاد .. أغنى من السنوسية والجدافى* والمحافظ ، وأنا ديما نمشى لمجلسه ويحكى لنا عن المرحوم.. إيش اسمه هاداك لما كان ييجى للاستراحة يقول له : ولادك عاملين إيه يا رحومة .. عاوز فلوس خد .. عاوز قروض خد افتح لهم مصانع ومشاريع.. بحبح عليهم يا رحومة علشان الولد المجنون* ما يلعبش بيهم ويقول الصحراء الشرقية وأولاد على .. أنتم مصريون يا رحومة .. مش كده .. طيب

---

* الجدافى : القذافى . * كان السادات يطلق هذا اللقب على حاكم ليبيا .

الولد المجنون دا عـاوز إيه؟» يسكت البـوق فـيـتـولى الأول اسـتـكـمـال المنشـور الدعـائى : «هـادا وين توا * عنده مـصـانـع فى الإسكندرية وكـفـر الدوار ومـزارع وأراضى فى الصـحـراء وفيلات فى الحمام والعامرية والضبعة وجراولة ومطروح وبرانى .. وزوجات بدويات ومصريات وشاميات وأولاد بلا عدد .. راجل عادل، مؤمن مثل هاداك سيدنا عمر بن الخطاب .. وتوا هادا .. ليش ما يحكم .. والله مصر كلها تشوف الخير لو هادا حكم .. " ، وأنت تسأل نفسك متهمكا : نعم لماذا لا يحكم؟ لقد جربنا كل أنواع الحكام من ملوك وباشوات وعسكر ، فلنجرب البدو سلالة الفاتحين . لكن ثمة مشكلة ستواجهه وتواجهنا ، ما الذى سيوزعه علينا بعد زوال عصر الفتوحـات والأسلاب والفىء والغنائم ورؤوس الرقيق ؟ وإذا جاء عام الرمـادة .. كـيف سيوزع بالتساوى ؟ لكن بدويا شابا من جيل الوعى والتمرد .. يعلو صوته زاعقا.. ويقذف حـمما : " إيش الله يعطيه .. الله يعطيـه .. هادا ما أعطاه أحـد لكنه لص .. أكـبـر لص . هادا المهـرب .. السـمـسـار .. آكل حـقـوق البـدو.. خـارب البـيـوت الملون.. الانتـهـازى .. الذى أخذ من السنوسى والقـذافى وناصـر والسـادات . هناك يقـول نحن بدو وهنا يكذب .. وأخـذ أصـوات البـدو بالشعير والقمح والتزوير .. هادا ملعون فى الدنيا والآخرة " . حمم .. براكين .. زلازل . ران صمت مترقب فى جوف السيارة الأجرة التى تقطع طريقا طويلا ضمن نفوذ ملك الصحـراء والذى يتمنى البـدو تنصيبه ملكا على مصـر كلها . والشاب البركان .. يهدأ قليلا ، يتابع بصوت أقل حدة : أما نحن أولاد على وباقى قبائل الصـحـراء فلسنا مع أحـد ضد آخر ، ننتمى لمصر جغرافيا وسياسيا .. لكن عـواطفنا وتقـاليـدنا .. ومـشـاعـرنـا .. تتـشـابك بطول الصـحـراء .. ولا دخل لنا بالأسلاك والحـواجـز التى افـتـعلهـا الأتراك والطليـان والإنجليـز . نتنقل بين هنا وهناك بكامل حريتنا ، أغنامنـا وجمالنا تتـحـرك على راحـتـهـا وراء الكلأ والماء .. وقد يهاجمنا الجفـاف .. فنذهب إلى وادى النيل لنرتوى .. ثم نحن لريح الصحراء وسمومـهـا .. فنعود . والجزء بغير الكل يضمـر ، والكل بغير الجزء .. يتآكل.. ينكمش، تلك هى المسألة وأى كلام آخر مزايدة وجنوح .

* وين توا : أين الآن .

سكت المدفع تاركا غبارا ودويا وإصابات . وسمعت بدويا غبيا يسأل جاره وهو يحشو ورق البفرة بالدخان الأخضر :

– إيش قال هادا ؟ فيرد عليه زميله مندهشا حائرا :

– والله ما ندرى .. بالك بيرطن ؟

– كنّه * .. هادا مهبول ؟

والمدفع صمت تماما .. لا يضيف . لا يفسر . لا يعلق . زلزلها وسكت . وأنت فهمته . تربت على كتفه بود شديد وتشجيع : جميل .. جميل جدا .. رائع ، فنظر إليك شاكرا . فتمتلئ ، تستعيد حيويتك . هذا الشاب الصحراوى .. شحنك وأعاد إليك ثقتك . لست وحدك أبدا وكتيبة الدفاع لا تتركز فى القاهرة : هنا فى قلب الصحراء .. ثورة . تكتشف مقاتلا صلبا .. لا يهاب عشيرته ويستل سيفه فى وجه أميرها الجبار .. وتفكر جادا فى دراسة موقفك .. لكنك لم تحسمها بعد ، تواصل فرارك مع أن موقعك هناك وليس فى أى مكان آخر ، ليس حنينا للأرملة وسهرات المستودع ومقاعد زهرة البستان المتهالكة ، إنما .. هذا قدرك . والمعلومات الجديدة .. أفادتك ، فاسم رحومة السنينى ليس غريبا عليك ، بصماته هناك فوق هضبة السلوم منذ أكثر من ربع قرن . فإذا كان هذا ظل شبحك .. فكيف يكون الأصل ؟ الآن يمكنك إعادة صياغة روايتك على ضوء المعلومات الجديدة .. فتتوهج . قد يفنى جسدك لكن وثيقتك ستبقى . اكتب أيضا عن الهمج الذين تركتهم خلفك بلحاهم وجلاليبهم البيضاء وجنازيرهم ، قل عنهم الحقيقة ، أنت تعرفها . لك رؤية معينة عن المحنة : كانوا بشرا عاديين مثل قناوى بينهم فقراء وفلاحون وعامة ودراويش .. ولديهم مثلهم الفلاحى العريق المتوارث : «تراعينى قيراط أراعيك قيراطين » ، لكنهم أهملوهم ، تركوهم لمفسرى النصوص الحالمين بالمجد الإسلامى الذى كان .. فى الماضى . استفزتهم الأشباح والأوباش وحلاب البقرة . وكانت الساحة خالية والتربة ممهدة . الهزائم والغلاء وشدة العوز. فلاذوا بالنصوص القديمة باحثين عن حل . هؤلاء الفقراء المتروكون المأزومون تصوروا أن النصر يأتى ، الخير يعم ، العدل يسود حين

---

* كنّه : ماذا به .

يتمسكون بالنصوص القديمة بتفسيراتها المعدلة المشوهة : فضاعوا وضيعوا معهم المدن والبلاد ولطخوا الحاضر بالدماء ، وصار الغد مقلقا . وأنت يا بلال كنت مؤهلا بثقافتك ووعيك فى مساعدتهم ، لكنك انشغلت عنهم بحروبك الجانبية . شغلك الشبح فانشغلت به ، احسمها وعد ، قاوم حتى آخر رمق . والسيارة تقترب من مدينة مرسى مطروح كنت ما تزال .. مترددا وممزقا .

(٤)

مـرسى مطروح ، جـوهرة الصـحـراء ، لهـا غنت ليلى مـراد :" يا سـاكنى مطروح.. جنية فى بحركم .. الناس تيجى وتروح وأنا عـاشقة حـيكم " ، أجمل مـدن الساحل الشمالى ومـدينة ذكرياتك . مـحطة رومـيل بخندقه الاستـراتيـجى المحـفور فى عـمق الجبل . نفس الجنية تجـذبك لتمـر بها وتسـتريح فـى طريقك لمنفاك المجـهـول . بها قضيت عامى تسعة وخمسين وستين : جنديا مستجدا ضـمن قوة الألاى الرابع . شتاؤها سكون مميت ، صيفها بهجة ونعمة . تسكعت فى شوارعها، سبحت فى مياهها الصافية ، تمرغت فوق رمالها البيضاء الناعمة، تعلمت الشرب فى باراتها هربا من قسوة حـياة الجيش ، النوم وسط المجاميع فى عنابر طويلة . وقضاء الليل سهدا وأرقا من شخير النائمين وسخونة أنفاسهم ، المقاومة البائسة لحشرات مقيمة كالبق والناموس والبرغوث الطائر . التعامل اليومى مع عساكر قساة على الفطرة الخشنة ، المشاجرات اليومية حول أحواض الغسيل ودورات المياة وأطباق فتة العدس ، التقزز من لعق الأصابع والطريقة الهمجية فى تناول الطعام الساخن : يرمى البشارى بالمعلقة رافضا :" يا زول .. خبر ما يجيب " ، والسودانى يغرز أصابعه الجاروفية فى الطبق الساخن ويقول لك مشجعا: «يا زول .. نعم وابلع» . والصعيدى يقول بارك الله فى الخمسة . وأنت بمعلقتك وتأنيك تقوم جائعا فيضحكون من تنعمك ويتندرون عليك : تأكل معهم تظلم ، تنعزل .. وحدك .. يغضبون .. القطيع . حتى إنارة المصباح ليلا كانت مشكلة ، بين متمسك بأوامر تحدد ساعة النوم ، وساهر يقرأ خطابا للمرة العاشرة، وعاشق للجندية يقضى نصف ليله فى تلميع الحذاء وقايش الوسط وكى الأفرول بالنشاء. وبين حالم مثلك يقرأ كتابا يهرب به من الموت الكابس إلى الخيال الرحب ويحلق . وكل صباح .. يتشاجرون ويتعاتبون ويتقاضون عرفيا بعد وقوع السرقات الصغيرة للعهد الأميرية المتشابهة بعد محو العلامات والأسماء : من خوذات وبطاطين وملابس . حتى حكايات ما قبل النوم فى أوقات خلو البال ، كانت تثير غثيانك ، «العسكرى فلان طرى وباين عليه كذا .. والعسكرى فلان ملزوق جنب الشاويش ، والمراسلة اللى عند الضابط الحليوة .. خلص وركبه سابت وقرب يموت " . وحكايات قبيحة عن غلمان المدينة وحميرها ونساء من الأخيلة والمزاح الجنسى المغلف بالعض وضرب المؤخرات والاحتكاك المتعمد

والعادة السرية المنتشرة كالوباء . تلك الفترة العصيبة لا تفارق ذاكرتك ، الطوابير التكديرية السادية بسبب خطأ جندى واحد .. استنادا على مقولة تركية أو مملوكية: «الخير يخص .. والشر يعم » . أو «تتعبهم .. يريحوك » . والشر كان مقيما : كلمة عابرة ، نكتة سمجة ، إهمال فى الخدمة ، وقفة مائعة ، التواجد على البلاج بين أهل القمة والحظ . والشر يومى فى شهور الصيف ، العرى والجمال والمرح والحوريات النائمات على بطونهن يحتضن الرمال . والعساكر يهربون للفرجة ويأتون بزاد لأحلام ليل المحرومين . والقائد يقوم بدور الشرطى العسكرى، يطارد جنوده فى الشوارع والبلاچات يقبض عليهم ، يحبسهم فى المعسكر ، ينهكهم بمزيد من الطوابير و" طلبة " النظافة ووقفات " الداخلية " والتتميم الليلى على الأسرة .. فلا يجدون منفذا غير السلك ، يتصلبون عنده طوال الوقت للتفرج ومعاكسة البدويات العابرات على الطريق ، لأن المعسكر كان يحتل مفترقى طريق السلوم والقصر على مشارف المدينة ، وعندما يقفون فى طوابير تدريبات الرشاش الخفيف ، ويشاهدون بدوية عابرة ، يأمر المعلم : أرقد.. عمر .. عندما تكون جاهزا .. اضرب . يضغط العسكرى على كلمة عمر ، ينغم ، يرفع صوته عاليا .. فتسرع البدوية هاربة ، تشكو للعمدة الذى يأتى شاكيا للقائد الذى يحتار ويبحث عن بديل لكلمة " عمر " * هذه التى تعنى النكاح فى لغة البدو ، فيجدها ويحرمكم من مسرتكم الوحيدة . فأصابكم الإحباط ولم تعودوا تتحمسون لطوابير الرشاش . كنتم تتلذون من ذعر البدويات وتبحثون عن بدائل تفجر الضحكات من قلوبكم المتيبسة ، فتضحكون على الصول السودانى عطا المنان وأطلقتم عليه لقب " لخبيطة " لأنها كلمته الأثيرة دائما : " أنت لخباط وأنت بتلخبط وأنت ملخبط" . وعندما كان يقف فى طابور الهتاف المسائى بالجملة الجديدة ، كان هو نفسه يتعثر ، يلخبط ، يبدل أماكن ترتيب العبارة ، ينطقها كل مرة بشكل مختلف: تحيا العربية المتحدة الجمهورية . تضحكون فيغتاظ ويكدركم بعد الهتاف ويظل يلوك فى الكلام الفارغ لمدة ساعة . وكنت تتزعم الحملة ضده لأنه أهانك وأطلق عليك : " ود الحلبية " لأن أمك شمالية وأبوك جنوبى . فتسخر من جهله وغبائه بدورك مع فارق الرتبة ، فهو القائد الفعلى ومن أشهر صولات

---

* عمّر بالكسرة : النكاح .

الحدود وأقدمهم وأكثرهم خبرة بالصحراء الغربية منذ أيام الإنجليز ، وكانت خبرته بالصحراء ودوريها تجعلة مدللا . فيرد على هجومك بالضغط اليومى ، يخرجك من الصف فى طابور التمام الصباحى ، يعرضك على الجنود ساخرا : "بلال دا .. جابوا حتة طين .. لكلوكه .. لكلوكه* .. بسرعة وعملوا له عينين وقالوا .. روح كون بلال " ، لأنك لا تتأنق ، مهمل فى هندامك ، أفرولك مكرمش، طاقيتك مدللة ، حذاؤك مترب . لأن همومك كانت أكبر من هذه المظاهر وفوقها بمراحل . كنت تستغل وقت فراغك .. تقرأ .. تكتب .. تفكر ، وكنت تصطدم به دائما ، تهاجم هلوساته ، وغيبياته الجنوبية عن السحر والعمل والأحجبة وقراءة الفنجان ، حيث يلجأ إليه العساكر المأزومون والبدو فيعمل لهم أحجبة ويسترزق . وعندما سمع بسخريتك منه عن طريق الوشاة ، وعلم أنك مخترع اسم «لخبيطة» انتقم منك وسماك .. الشيوعى . تعال يا شيوعى . انتباه يا شيوعى . سريعا مارش يا شيوعى . وكان يهينك ، يدمرك نفسيا : يفتش تحت إبطيك وشعر عانتك ويبصق على الأرض : «أفو* عسكرى وسخ » . ولفت لقبك الجديد نظر الضابط السورى الذى كدروه ونقلوه من دمشق إلى القاهرة ثم كرموه ونفوه إلى مرسى مطروح فبدأ يقترب ويشملك برعايته ، وحاول إنقاذك من تعنت لخبيطة وهمجيته ، فطلبك بالاسم لتقف كمراسلة على باب مكتبه . وعاملك بشكل راق وناقشك فى قراءاتك وأعطاك كتبا من عنده وكان يندهش ويستغرب من ظروفك ويعدك بالكثير .. كان يحترم الجميع ويعاملهم بطريقة مختلفة عما تعودوه ، يحدثكم عن أشياء كبيرة ، يدخل الميس والعنابر ، يمد جسرا بينه وبينكم . وكنت ترفع يدك وتسأله عن سوريا وعساكرها وناسها . وكان الصول لخبيطة يكرهه منذ سرق الأضواء منه وازداد كرهه لك لأن الضابط السورى يحميك : تجلس طوال النهار أمام مكتبه ولا تعمل شيئا . وأحيانا كان يفاجئكما داخل المكتب تتناقشان وتضحكان كالأصدقاء . فبدأ يشنع فى السر ويتقول عليكما بكلام قبيح سمج وكان الضابط يأمرك بالجلوس أثناء الحوار .. فتأبى : لأن الصول لو دخل ووجدك فى هذا الوضع ، سيضربك «زمبه» عند القائد تركى الأصل الذى لا يرتاح من تقرب أى ضابط للجنود . ولما اطمأن إليك وعرف

---

* لكلوكه : كوروه .   * أفو : أف .

حدود ثقافتك وقناعتك ونوعية قراءاتك من جوركى لديستوفيسكى لتليستوى لجوجول لهوجو وريشار درايت ، بدأ يأخذك فى جولات خارج المعسكر وأعطاك كتاب رأس المال وكتاب عن لينين ومنشورات الحزب الشيوعى السورى .. لتقرأها فى السر وتخبئها بحيث لا يصل إليها الجن الأزرق . فكنت تتسلل وتقرأ بعيدا وتضعها فى حفرة بعناية بين الصخور . وقبل أن يمتحنك ويكلفك بمهام أكبر ، قبضوا عليه واستدعوك بعد أيام للمخابرات الحربية فى ضاحية روكسى وحبسوك فى قبو ضيق لمدة أسبوع . وكل صباح سين وجيم .. ومحقق مختلف. وأنت فهمت المسألة وهيأت نفسك للمراوغة والإفلات من الكمين بكل خبراتك الحياتية ومخزونك الثقافى . ويسألك المحقق عن الضابط السورى وعلاقتك به ، فتستعبط: «أنا يا سعادة البيه .. كنت عسكرى مراسلة .. أودى ورقة .. أجيب كباية شاى .. وبس .. ولما مرة أمرنى أغسل هدومه رفضت طبعا .. لأنى عسكرى متطوع لحمل السلاح وموش غسالة.. وإذا كان سعادتك تريد محاكمتى لهذا السبب فأنا مصمم على موقفى هذا ومتظلم وأطلب مكتب سيادة المشير» .. والمحقق كان يفاجأ بردودك الغريبة ، لأنهم تحروا عنك وسألوا عدوك الصول لخبيطة فلخبطهم ، ويبدو أنك كنت مؤلفا بالفطرة ، فتخترع لهم فى كل مرة أكاذيبا وحكايات لا أصل لها . فبدأوا يضغطون عليك ، يمنعون عنك الطعام ، يغرقون أرض القبو بالماء لتظل طوال الليل واقفا ساهرا ويداعبون قفاك ، ويهددونك بالسجن الحربى لكى تضعف وتنهار وأنت صامد تناور ، تتثعلب ، تذهب بهم للنهر وتعيدهم عطاشا . فيغيرون المعاملة ويستدعيك المحقق ويقدم لك شايا ساخنا وسيجارة : «بص بقى .. انس الميرى ، أقلع الطاقية ، اقعد على راحتك ، ولع سيجارة واعتبرنى أخوك .. أنا عاوز أساعدك علشان ترجع لأهلك.. بس عاوز أعرف .. هو الواد السورى دا .. كان بيكلفك بإيه ؟» ، وأنت منتبه ولا يخدعك أسلوبه الناعم .. فتواصل استعباطك، تتصنع الجدية وتقول له غاضبا : نعم يا افندم كان يكلفنى ويطالبنى بمهام ليست فى القانون فيعتدل ويدنو برأسه ويسألك : جميل جدا .. مثل ماذا ؟ نعم يا أفندم: كلفنى مرة بتسليم خطاب غرامى لبنت بنايوتى صاحب البار . ومرة طلب منى تدليك ظهره فرفضت لأنه عيب . ومرة يا افندم سألنى عن النساء . فكدت أشكوه للقائد .. فيقاطعك بعصبية قائلا فى غيظ : هذا كله كلام فارغ ولا يعنينا .. أدخل بنا فى الأهم . فتظل

تختـرع الأكـاذيب ، لأنك تعـرف جـيـدا مـا يريـد ، تلك الأوراق المدسـوسـة بين الصخـور ومـدى تورطك مع الضـابـط السورى . وعنـدمـا يضـيق بك، يسـتـدعى الجلاد الذى يضرب تعظيم سـلام ويسأل : افندم ؟ فـيشـيـر إليك غـاضبـا : «ابن القحبة دا سايق فيها العبط .. خلّوة يجرب المسائل» ، فتجد نفسك معرضا لكل أنواع المسائل الهمجية . فتغيظهم : لا تصرخ ولا تطلب الرحمة ، فيعيدونك للقبو ويتوعدونك بالمزيد ، فتقضى ليلك واقفا وتشحذ خيالك للحوار الجديد وتهيئ جسدك للانتهاك القادم . وعندما فشلوا فى كسرك ، أعادوك لوحدتك مع خطاب سرى وتوصية بحبس قشلاق طويل الأمد . وكانوا فى الوحدة ، يراقبونك ، يشنون غارات تفتيش على فراشك ، مخلتك ، كتبك .. وكل نكتـة أو كلمة تفلت منك تحاسب عليها . والصول لخبيطة كثف حملته ضدك .. كلما وجدك تقرأ ينزع الكتـاب من يدك ويدورك مكتب لرئيس الأركـان ، محـرضـا :«تمام يا افندم .. الزول لسه مخه ضارب وبيقرأ فى الشيوعية» ، وكان الكتاب الأخير ، غلافه أحمر، مرسوم عليه رجل بشارب كبيـر . فيضحك الضابط من بلاهة الصول وجهله وعدوانيته ويقول له ساخرا : " ما تسيب الرجل فى حالة يا حضـرة الصول.. دى رواية بين القصرين بتاعة نجيب محفوظ .. ودا مصرى مش روسى " . ومع ذلك لا يكف عنك ، يقول للعساكر إنك كافر بلا ملة ، لا تصلى ، ابن حليبـة ، لا تحب العشرة لأنك دائما لوحدك . وأنت لا تتحـزب ، تشجب الانتماءات القبلية والعرقية ، و ترى الإنسان من منظور مختلف : مساواة ووحدة مصير ، تتحداه بهذا الكلام فيتهمك بالخلط والهبل ويقولها فى وضوح دون خجل: " يعنى أنا شايقى وأهلنا عرب وأشراف والزول كباد غردون .. جنوبى .. وكانوا عبيدنا .. وكنا ندق الواحد منهم من ودانة فى شجرة لمن يغلط وهالساعة ما يقدر يرفع عينه عليا .. يا جماعة المسائل معروفة .. وكل واحد له أصل وفصل .. لكن الزول الشيوعى الحلبى دا .. دايرها سلطة .. وزمان قالوا : عدوك عدو دينك ونحنا ما رحنا بعيد . وبتشوفوا المسألة عملى . يا شاويش كباد .. تعالى بالخطوة السريعة . اسمع .. كده قول ليهم .. أنت منو .. وأنا منو ؟ .. وأجدادك . كانوا شنو ؟" . وكباد يقف انتباهاً أمام الصول كالعسكرى المستجد . وأنت تتجاسر وتهاجم صولك ورئيسك والحاكم بأمره ، تقول له متحديا : إذا كانت هذه نظرتكم لأهل البلاد .. فأنتم استعمار ينبغى له الجلاء .. ومثل هذا الكلام

العنصرى تقوله هناك فى الخرطوم .. لأنك الآن فى جيش مصر وكباد متساو معك فى الحقوق.. وسأنقل للقائد وجهة نظرك هذه للنظر فى أمرك . وأنت تعلم أن القائد لن يسمعك فالصول عطا المنان ، رغم شطحاته : خبرة ، جندى منضبط، نادر.. ويكاد يكون من المؤسسين لسلاح الحدود من أيام مستر هتوين الإنجليزى . وما من بعثة عسكرية إلا استعانت به كدليل بلا بوصلة ولا خرائط ولا نجوم .. وما من شركة بترول باحثة إلا ولجأت إليه ، وما من قافلة ضلت إلا وأعادها ، وما من محافظ أو مأمور أو هاوى صيد إلا طلبه .. وهذا الكلام الذى يقوله كان ظاهرة عامة متفشية ، فالصعايدة حزب ، الجعافرة حزب ، العبابدة والبشارية حزب ، وأهل المدن حزب ، والسودانيون حزب ، ينقسمون داخلهم إلى أحزاب صغيرة ، عرب ونوبيون وجنوبيون . وأنت تائه فى الزحام ، منقسم بين أهل أمك وأبيك وقناعاتك الخاصة. وأهل المدن يطلقون على غيرهم " البقر " والآخرون ينعتون الغير بـ «ناس زينب» . وأنت تسمو فوق هذا كله ، تختنق فتخرج لتتسكع أو تحتمى من الجنون ببار فوتى أو بنايوتى . لكن حبس القشلاق الطويل فرض عليك صحبتهم ليلا ونهارا وحرمك زيارة العاصمة والتزود بالكتب الجديدة ورؤية ثريا وزملاء الدراسة ورفاق الحى . وثريا عذبتك ، أول حب فى حياتك ، تعالت.. وكأنك كمال عبد الجواد وهى عايدة شداد . كانت جميلة ، أجمل بنات الحى وابنة صاحب البيت . وأمامك الوقت كله ولا تتحاوران ، حب أخرس من طرفك ، فهى تعلو وتجنح وتتقدم وأنت تقرأ ، تتصعلك ، تتأخر .. وتنتظرها على الناصية.. توصلها متابعا وحارسا من بعيد كالكلب الأمين . كانت أمنيتك الوحيدة الجلوس معها على كورنيش النيل أو حديقة النزهة ، كنت تحلم ساهرا لكى تسمع صوتها منادية على أم بلال أو مقلدة عبد الحليم . تسمع صوتها.. فتطير ، تتمنى لو يفنى كل الرجال ولا يبقى فى الكون سواك . وتحلم بحقيبة نقود كبيرة تعثر عليها وتصير سيدا وطظ فى الشهادات . وتسرب إليها أحلاما بأنك ستتفوق يوما على العقاد وطه حسين وتصبح علماً . ثم تفيق من أحلام يقظتك وتحاول اللحاق بها ، فتذاكر ، تحفظ ، تدخل الامتحان وترسب – للغرابة – فى اللغة العربية التى تقرأ بها .. وفى مواد أخرى لا تطيقها . تلتهم روايتين فى اليوم وتزهق من سطرين فى الجبر والهندسة . كانت تعلم كبواتك الدراسية فتشيح بوجهها عنك . تنتظرها ولا تعبرك . لكنها تشعر بوجودك وحبك،

وربما بادلتك نوعا من إحساس غامض لم يتبلور . ولما قذفت بك ظروف أسرتك متطوعا في حرس الحدود .. ونزلت أجازتك الأولى بالبدلة الميرى والحذاء الضخم ، وانتظرتها كعادتك لتحصل على بسمة تقاوم بها أيامك وعذاباتك ، ضننت عليك حتى بانفراجة الشفتين ، فأدركت أنها ضاعت منك للأبد ، أيامها ، كان الضابط فوق ، وفتى أحلام نساء المدينة من عذارى ومتزوجات . والجندى تحت ، لا تحلم به سوى بائعات الفجل والجرجير فتعود لوحدتك محبطا ، تقرأ ، تحلم ، تقرر حذفها من مشاعرك ، لكن ما تكاد أجازتك تهل ، حتى تسرع بالنزول وتذهب للمكان ذاته ، تقف بالساعات وقلبك يدق . وتمر أمامك ، تتمنى لو يطاوعك لسانك فتنطق ، تقول شيئا تحسم به هذا العذاب .. ولا تقدر فتقف وتواجهك بغضب محبب : " وبعدين .. عيب كده " أو "ارجع بقى" أو "أنت عاوز منى إيه ؟" . أو تهددك : " اسمع بقى .. أنت زودتها خالص .. أنا مضطرة اشتكيك لأم بلال .." . كان من حقها التطلع لأفضل الرجال وليس للهامش .. فبضاعتك كتب قرأتها . ومستقبلك غامض . ولا توجد فى المدينة فتاة حصلت على الإعدادية تحلم بشبه أمى يدخل عليها بالحذاء الميرى ، لم تكن ثريا لك أبدا. وبعد عام حبس القشلاق الطويل ، نزلت ملهوفا مشتاقا فاستقبلتك أمك مبشرة : "فرح ثريا كان إمبارح" . وقالت أيضا : " سألتنى عليك كثير وقالت عنك ابن حلال بس مالوش حظ " ، وأضافت متفاخرة : "خدها ظابط قريبها .. إنما إيه .. قمر .. كانت زى بنتى تمام .. وأنا رقصت رقص.." . تصور .. أمك كانت ترقص فوق جثتك .. والضباط وراءك حتى فى الحب . ونزلت يومها كالمجنون إلى شارع عماد الدين وشربت مثلما يفعل أبطال الأفلام "السكة " . وصوت أمك يملأ مساحة الدنيا .. "سألتنى عنك كتير" .. يا رب هذا الكون ، لقد سألت عنك وأمك رقصت . ولبثت أياما تشرب وتحوم حول مسكنها من بعيد . حتى رأيتها مرة مع ضابطها الحليوة يسيران فى تواؤم ويضحكان فى سعادة . قررت بعدها مقاطعة القاهرة ولا تأتى إلا قليلا لزيارة أمك وانكفأت على نفسك . وأحيانا .. تزور خلوتك .. تنبش التراب وتعيد قراءة كتاب رأس المال ومنشورات الحزب الشيوعى السورى ، تقرأ وتحلم بثورة الجنود والعرفاء المهمشين لمحو الخلل وإعادة التوازن . أو تحلم بمجد عظيم لكى تشتهر فتسمع عنك وتندم ، كأن تقوم الحرب المتوقعة ، تخوضها وتقوم بعمل مجيد لا نظير له ، فتتحدث عنك الصحف

وتلتقى بالرئيس ويتم ترقيتك إلى رتبة اللواء فتأتى بزوجها تحت رئاستك وتشكل عليه . مع أنك تعلم بأن الجندى مهما حارب واستبسل حتى لو "جاب الديب من ديله " لا ينال سوى شريطين من الدمور . وكلما أنجز عملا بطوليا يضيفون له شريطا آخر ثم يقف محلك سر عند رتبة الصول . وإذا تقدم به العمر ، يرقونه إلى رتبه الملازم ثان شرف ويسمونه ضابط جرابندية . وكنت تحلم أيضا بكتابة رواية عظيمة مثل البؤساء والحرب والسلام والإخوة كرمازوف وقصة مدينيتين أو حتى ذهب مع الريح .. فتشتهر وتربح نقودا .. وتقول لها : ها أنذا . مع أنه لم يحدث أبدا أن واتت الشهرة كاتبا عربيا بسبب رواية أو كسب نقودا من عدة روايات . ولما دخل كل الذين قرأوا كتاب رأس المال السجون ، بدأت تحلم بمعجزة من السماء تبدل أحوالك وتصير شيئا ، لكن المعجزة تأخرت ولا بشائر بإمكانية حدوثها مستقبلا . فانفصلت عن السماء ووقعت على الأرض بكل تضاريسها ووعورتها وهمجيتها . فهجرت كتبك وأحلامك وصرت ترافق العساكر السودانيين فى جولاتهم الليلية المنفلتة ، تذهب معهم إلى العزبة وتشرب المريسة والهوب هوب ، وتأنف من مضاجعة المرأة السوداء صاحبة الدار وصانعة هذه المشروبات المميتة التى تمزق الكبد . كنت تنتحر . وأحيانا كانوا يشربون حتى الثمالة ويقومون بغارات على حمير السوق فى ظلمة الليل ، يحلونها ويركبونها حتى قرب المعسكر . وبعضهم كان يواصل الركوب : يربط أرجل الأتان بمنديل ويضع حجرا خلفها ويطأها .. ويطلبون منك التجريب ، فيقشعر بدنك وتبتعد . ويأتى البدو الباحثون عن حميرهم المفقودة فيعثرون عليها ويشتكون للقائد بالدليل : المناديل الميرى . فيقف فى طابور الصباح زاعقا : "حمير يا غجر ؟.. وأنا إيه ؟ قائد حمير ؟ سفخص عليكم " . وكان الصول يهمس للقائد بأن هذا من أفعال الصعايدة ، مدافعا عن أقاربه .. مع أنها كانت حالة وبائية بين المحرومين فى الليالى الباردة الكئيبة وصحراء ندرة النساء وتزمت التقاليد . وكانت ثمة نكتة بأن الحمير عندما تمر بجوار المعسكر ، تعمل لليمين انظر وتنهق .. تحيى عشاقها . وكنت تتنقل بكامل حريتك بين أحزاب المعسكر ، لكن السودانيين كانوا يحبونك ويطلقون عليك "زول الجن " أو "ود القبيلة " لأنك الوحيد الذى يقف فى وجه الصول الشايقى العنصرى . وكانت أول محاولاتك مع المرأة التى فى العزبة :

ورأيت أمامك جاموسة سوداء راقدة بشكل همجى ، وأنت واقف مرتبك لا تتحرك ولا يتحرك فيك شيء . فتقول لك . هيا وتتساءل مستغربة: " كنّك*". وأنت تقارن بين المثال والواقع .. بينها وبين ثريا . فتراجعت مشمئزا لأنك لم تجد فرقا كبيرا بينها وبين حمير الحفر . ومع أنك وهبتها أجرا مضاعفا ، فضحتك وقالت لهم :" إيش هادا وحياة سيدى إدريس إنه مربوط " . وكانت تحلف دائما بالسنوسية وملكهم . ويقولون إنها كانت جارية عندهم وعتقوها . ومشيت تلك الليلة تشعر ببشاعة الحياة وعبثيتها ، انحطاطها . وشربت عند فوتى لتنسى الجاموسة وتحاول العودة لكتيبك وإنقاذ نفسك ، ولكنك تتأزم فتنحدر ، يشدك القاع بحكم الواقع والبيئة ، وكان هذا القاع يتبدى أحيانا بشكله المخيف ، تقوم منتصف الليل فزعا على أصوات معركة همجية بالشلاليت والبوانى والبصق وأحزمة الوسط . وشتائم منحطة من النوع الثقيل : لأن سكيرا همجيا جاء يتخبط بين الأسرة واختار جنديا مستجدا ، اندس معه فى الفراش .. محاولا غزوه دون تمهيد سابق ، انسياقا وراء الشائعات ، لكن الكارثة يتم دائما احتواؤها داخل العنبر .. تتدخل الأحزاب ويعقدون حق عرب ينتهى بالغرامة والاعتذار وتقبيل الرؤوس ، إذا كان المعتدى عليه من أهل المدن ولا ظهر له . لكن المسألة تأخذ أبعاد أكبر ومعارك ثأرية خارج المعسكر ، لو مست الحكاية مناطق الجنوب . وقد تنتقل عن طريق الوشاة للقائد فيصدر أوامره للصول بالتكدير الجماعى وبلا رحمة .. طوابير طوابير حتى يجف الماء من أجسادكم بفعل الحرارة . ويقف الصول أمامكم يحدثكم عن الأخلاق والدين : من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع .. فعليه بالصوم . يقول هذا الكلام مع أن العسكرى الذى يخدمه ولد طرى ، خسيس ، يغسل له ملابسه الداخلية ، يجلس معه متجملا ، يدعك له قدمية بالماء الدافئ ينش عن وجهه الذباب فلقبوه "بمرات الصول" . والذى يؤكد الشائعات ، عدم مبارحة الصول للمعسكر إلا نادرا ولا يسافر لزوجته فى السودان . وكنتم تقاطعون هذا الولد ولا تعاملونه كرجل . ومرة رأيته متكحلا بحجة وجع العينين فتفلت عليه فشكاك للصول الذى اضهدك ومرر حياتك وصعّد حملته ضدك وكلفك بأحط الأعمال إيلاما للنفس . كان يتمم عليك فى السرير ليلا ويمر عليك فى

---

* كنّك : ماذا بك .

الخدمة هابطا برتبته لمستوى حكمدار الخدمة والرقيب النوبتجي، مسجلا عليك أتفه الملاحظات ، يدورك مكتب بسببها.. ويجازيك . فبدأت أفكارك تهبط .. تفكر في النيل منه مثل الهمج . وذات ليلة وأنت تقف في الخدمة ، بعد منتصف الليل، شبه نعسان من نسمات الهواء التي يرسلها البحر ، حاول سرقة بندقيتك ، فتنبهت في آخر لحظة وجننت، سحبت الترباس بسرعة .. فهرب من أمامك مستنجدا : حرس سلاح .. حرس سلاح.. وأنت خلفه حتى ضاع أثره منك ، والبروجي ضرب "صحيان" ، والخدمات الأخرى زعقت: حرس سلاح .. وأنت فعلت مثلهم وعدت لموقعك مستعدا لملاقاة العدو المحتمل . وفي هذا الوضع القانوني وجدك الشهود . ولما سألوك في مجلس التحقيق قلت لهم: إن الصول بالتأكيد كانت مؤخرته عارية وكان يحلم . ولم يكن ثمة شهود فاكتفوا بنقلك إلى الجبهة في سيناء عقابا لك ، فالتقيت هناك بقناوي لأول مرة . تلك الذكريات مر عليها أكثر من ثلاثين عاما . وأنت ما تزال في مطروح .. محطتك قبل الأخيرة . التردد يمزقك . تشرب شايا في مقهى جالون ، تفكر وتقطع شارع إسكندرية بطوله متسكعا حتى صرت قريبا من النجع القديم . وعلى الطرف الجنوبي من النجع ، فوق أعلى ربوة ، كان ثمة بيت معزول .. سكنته بدوية اسمها مسعودة .. يذهب إليها العساكر أول الشهر بالطابور والحجز . وكانت هذه واحدة من تجاربك بعد الجاموسة . في المرة الأولى تراجعت قبل الزيارة ، في المرة الثانية دفعت لها الفيزيتة دون مقابل، فسألتك حائرة : " إيش بيك " وأنت مرتبك وحائر ، تتخيل العسكري الذي كان قبلك والذي ينتظر بعدك ولا ترد ، ففهمتك وضربت لك موعدا خاصا في ساعة معينة .. وردت إليك نقودك قائلة : " أراجيك غدوة* .. لوحدك ونشوف إيش حكايتك " . فأعدت المحاولة ولديك رغبة ملحة لحسم هذا الموقف المؤلم ، فوجدتها غير من كانت ، ملابس شفافة ، شعر مندسل ، رائحة طيبة أسنان لامعة. وتركت المسائل تسير بشكلها الطبيعي ولا تتعجل ، تتسامران كبشر أسوياء، تنقلتما من الأرض للكنبة للسرير تدريجيا ، نمتما كالعشاق والأزواج. وكانت أول تجربة ناجحة في حياتك حفرتها ذاكرتك . وكانت ترتب لك موعدا خاصا في غير أوقات الذروة وتسميك العاشق المجنون . لكنك انقطعت

---

* أراجيك غدوة : انتظرك باكر .

عنها حين أصيب أحد العساكر بمرض سرى من الجاموسة السوداء . ومررت على أماكن كثيرة حتى وصلت إلى بار فوتى . ووجدت قلة فوق مقاعد متفرقة وغرفة كبار الضيوف مغلقة ، ليبيان وضابط سودانى متقاعد مكث هنا بعد زواجه ببدوية وعمدة مدينة من مدن الصحراء وبعض سكان المدينة الأثرياء . وعرفك بدوى وحياك بزجاجة بيرة وقال عنك كلاما طيبا أراحك وجمّل صورتك: " هادا والله كان عطيب* .. لكن بالحق .. رجال : زمان .. مسكنى عند السلك وسألنى البضاعة هادى لك ؟ قلت له يا وليدى حالتنا عطيبة* وعندى صغار وهادا رزقهم . والبضاعة بالدين .. وما عندى لا زرع ولا غنم .. خدلك تفتوفة* وخلينى يرحم والديك . لكنه لا أخذ التفتوفة ولا البضاعة ، قال لى : روح يا بدوى .. مربوحة .. الله يسهل لك وين هادول .. الله يرحم أيام زمان..". وأنت لا تتذكر الواقعة ولا الرجل من كثرة ما ساعدت مخترقا القوانين ونظرة قناوى الأحادية للأمور والتى لم تفرق بين فقراء الهضبة وصبيان التجار . ولفت حديث البدوى انتباه الضابط السودانى فتبادلتما الكؤوس واتحدتما فى مائدة واحدة. وسألك عن وحدتك السابقة وعملك الحالى .. وعرفك : " أيوه .. أنت زول الجن بتاع البروجى " ، فضحكت لأن اسم عطا المنان الشايقى ضاع ، أنت أسميته لخبيطة وهم نادوه بالبروجى : لأنه تطوع فى سلاح الحدود برتبة نصف عسكرى بروجى . وأنتما معا تضحكان وتتذكران نوادره ونوادر الحدود حتى وصلت بكما الحكايات للداهية حمد البخيت الذى حكم الهضبة وأثرى وفر بالغنيمة. فيقول عنه ما تجهل : هو الآن من أعيان الخرطوم ورئيس حزب دينى ويشارك بأعوانه فى الحكم وصار رجلا مبروكا يفتى فى الدين والسياسة ومن عتاة المنادين بتطبيق الشريعة الإسلامية وتطبيق الحدود ، سبحان مغير الأحوال . وعندما كان هنا ، لم يترك ماخورا فى الإسكندرية إلا ودخله ، ولا غلاما إلا وخدشه ولا حمارة إلا ووطئها . دنيا . ربك لما يريد .. يهدى . وقد فكرت مرة فى العودة إلى السودان لكى أدفن فى أرض أجدادى وتراجعت عندما سمعت عن حكاية تطبيق الحدود . قلت معقول آخر العمر يجلدوك من أجل زجاجة عرقى . يا أخى النميرى عملها وكان ما كان .. الله حيجازيه .. يا فوتى اتنين دوبل.

---

* عطيب : بائس . عطيبة : بائسة . * تفتوفة : رشوة .

ويدخل بدوى فى زفة من الأتباع .. متجهين للغرفة الخاصة ، نفس الرجل صاحب الشبح عند نقطة الضبعة . وهو أيضا الذى شارك فى وقائع الهضبة منذ ربع قرن أو يزيد ، رحومة السنينى . ويتناقل الزبائن اسمه .. رحومة بك .. رحومة باشا . رحومة .. رحومة . فتشعر بالقرف والضيق وتغادر المكان فورا . أثرياء فى الصحراء والخرطوم وأشباح فى القاهرة . وأنت مشرد مطارد . وتسأل نفسك عن العلاقة بين كل هذه الشخصيات والمسائل ، وتوجع رأسك ولا تجد إجابات . فتركب سيارة بيجو أجرة بالنفر فى طريقك لمنفاك المجهول دون حسم نهائى لموقفك .

(٥)

قبل بوابة السلوم الشرقية بعدة كيلو مترات ، تبادل سائقوا السيارات الأجرة الإشارات الضوئية والمعلومات .. " إيش فى مغرب .. وإيش فى مشرق .. وإيش أخبار المرور ؟" . ويحيطكم السائق علما بالموقف : المدينة مغلقة والتفتيش دقيق ، فالذى ليس معه أوراق أو " هيكى ولا هيكى " .. فلينزل ويكمل باقى المسافة سيرا حتى لا يتعرض لوجع الرأس . وحدك تغادر السيارة بحقيبتك . وحدك فى ليل الصحراء والوحشة والتبدد . وحدك المطارد ، مع أنك لا رفعت السلاح ولا بعت وطنك فى سوق المزايدين ولا حلبت مع الحالبين . تتخبط وسط الحفر والمطبات والليل المعادى المقيم الطويل . ظلام بلا نهاية . والكلاب تنبح ، تتحاشاها ، تلف حول المدينة من بعيد وتجلس تحت بطن الجبل كالمتشردين وقطاع الطريق . تترقب حمارا أو مهربا لترافقه بالأجر ويعبر بك للمدينة الأخرى . ومع أنك ملم بهذه المنطقة ، وتعرف مسالكها ، إلا أنك تجهل التغيرات التى جدت خلال السنوات الماضية . فلابد من معلومات أو مرشد . تنتظر وحدك مع الليل ، الغربة، التمزق ، التردد ، الحيرة ، تحت الجبل تجلس والليل ضاغط ، مخيف ، لن تقطعه بالنوم . والنجوم لا تبارح السماء . والشمس لن تشرق . والمدينة لا تستطيع دخولها . والنوم أمل بعيد المنال . تجوس بعينيك فى الظلام ولا ترى . والكلاب تنبح ولا تدنو حتى فى قلب مدينتك وفى فراشك كنت تسمع هذا النباح المستفز . وكالحالم ترى شبحا يقترب . تنتبه . تركز . تستعد تنتفض خوفا .. تظنه ذئبا أو ضبعا أو كلبا مسعورا . فى صمت مريب يقترب . تمسك حجرا تستعد ببطارية الطوارئ ولا تضيئها حتى لا ينكشف موقعك ، ليس معك مسدس أو خنجر تدافع به عن نفسك . أعزل . مطارد . مرعوب . والثوانى تمر بطيئة . مدمرة . وتفكيرك أصابه الشلل . فتجمدت لا حجرا قذفت ، ولا بطارية أضأت، ولا فرارا شرعت فيه . ولا صرخة استنجاد خرجت من حلقك . صرت حجرا كالحجارة التى تغز مؤخرتك ، ولا حتى تشهدت . والشبح صار على بعد خطوات منك وأقعى ، فتتنفس وتستعيد روحك التى كادت تفر .. ثم يقوم ويقف بجوارك تماما ، يهز ذيله فتمد يدك حذرا ، تداعبه .. فينام فى مواجهتك مطمئنا ويطمئنك . هذا الكلب الجربان المتشرد هو أنيسك ومنقذك من الوحدة والخوف والقلق (وعوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى.. وصوت إنسان فكدت أطير) .

فيا له من بيت شعر ويا له من شاعر ، وكأنه أحس بك منذ مئات السنين فترك لك هذا الكلام البديع المعبر عن حالتك . فتشعر بالسعادة فتجود ، تطعمه من زاد الطريق لتغريه بالقاء ، فيأكل ويهز ذيله ممتنا مع أنك مدين له بحياتك فى هذه الليلة الحالكة ، وفى صحبته وحراسته تغفو قليلا وتصحو مع آذان الفجر فلا تجده ، هذا الخائن أكل طعامك وتخلى عنك ، لكنك تمتعت بالنوم متوهما أنه يحرسك.

وبدأت مع بشائر الصباح تفكر فى المرحلة التالية ، تقيس المسافة من هنا إلى مساعد ثم درنه ثم طبرق . كم يوما ستقطعه مشيا حتى تصل ، إن كان ثمة وصول؟ وماذا بعد الوصول؟ ماذا ستفعل هناك وأنت فى خريف العمر؟ الأعمال الشاقة ، وهمجية بدو النفط ، أم تعلن عن نفسك وتبيع ؟ لكنهم محاصرون هذه الأيام ولا يشترون بعد أن أوصلتهم الشعارات والتصرفات العنترية للمأزق والطريق المسدود. وأنت نفسك لا تبيع : ولو كنت كذلك لبقيت فى مدينتك تكتب كلاما للمشترين. صحيح .. ماذا ستفعل هناك ؟ والأغراب مستهدفون؟ ماذا لو أعادوك للشبح وقايضوك بمعارض ؟ فعلوا هذا من قبل مع آخرين واختطفوا رجلهم من قلب مدينتك . وشبحك ليس سهلا .. هذا مقابل ذلك، فتتحول من موقف إلى سلعة. والفجر يدخل ببطء شديد حتى الكلب الجربان هجرك ، هذا الخائن أبدا ليس من فصيلة الكلاب .. بالتأكيد رضع من ثدى ذئبة أو أمه كانت تضاجع الذئاب . وأنت وحدك تهرب من سموم البار لسموم ريح الصحراء . ومن حريق المطبعة لحريق الغربة . ومن شبح واحد خفى لمئات الأشباح على جانبى الحدود . وتحلم بكوب شاى تبل به ريقك وكوب ماء تغسل به وجهك بعد أن قضيت حاجاتك فى العراء . وتظل تنظر للسماء ، تتابع النجوم وهى تتلاشى وتنظر للأفق ، وترى نور الصباح فتفرح كالأطفال وتكاد ترقص بعد نجاتك من محنة الليل . وتشاهد بدويا يسعى فيا لك من موسوس ظالم ، هو نفس الكلب الأصيل : لم ينس طعامك فجاء بمن ينقذك .. فتتقدم نحوه ، تربت على جلده الجربان بامتنان ، رغم جهلك بهوية القادم : فقد يكون شرطيا سريا أو عميلا للشرطة . لكنه يجلس بجوارك فى حالة تفاوض ومساومة ..

- خير يا سيدى .

- خير .. أهلا وسهلا .

- مغرّب ولا مشرّق .

- مغرّب .

- وإن شاء الله .. ما فيش هيكى وللاهيكى .

فتطمئنه بأنك باحث عن عمل وليس معك أوراق تجيز لك الخروج من البوابة الرسمية .. فتتفقان على الأجر ويطالبك بالتروى والانتظار يوما أو يومين حتى تهدأ الأمور لأن " العبدّة* شادين " فتشرح له المشكلة ، بأنك لست متشردا حتى تقضى هذه الأيام فى العراء والفندق لن يقبل إيواءك بدون أوراق وخير البر عاجله . لكنه يعتذر بصعوبة الموقف ، ولن يغامر بحميره العزيزة مهما كان المبلغ المدفوع .. ويقترح عليك فندق الفقراء : حوش مبروكة الذى فى آخر النجع ويقودك إليه بعيدا عن العيون ، فندق عجيب يبدو كساحات السجون ولا رواد غيرك : أبراش وألحفة وبطاطين سوداء ، سجن ترحيلات مفتوح وبدوية فى خريف العمر وبقايا جمال وأنت حالة فريدة عابرة بحقيبتك وملابسك ، والمرأة الذكية اكتشفت موقفك ، فقالت تطمئنك : " الدار أمان . تشرب شاى عربى ولا مصرى ؟ " . توافق على العربى وتجلس مستندا بظهرك للحائط ومبروكة تنشط، تأتى بعدة الشاى وتتربع أمامك .. تغنى " شاهى بالنعناع اللى ما خلى للراس وجاع " ، وتبدأ بكوب الشاى الخفيف ثم تقوم بطقوس الشاى الأسود الثقيل ، ترفع الأبريق لأعلى مثل بائع العرقسوس ، وتعيد العملية مرات حتى يمتلئ الكوب بالرغاوى البيضاء. فتشرب بصعوبة وامتعاض وتختلس إليها النظر، فى الخريف مثلك ، محناة الشعر واليدين، قوية، عفية، كحلاء تفوح منها رائحة «البارزتا» الإيطالية الزاعقة، متعبة ومثقلة مثلك ، بالتجاعيد وآثار السنين . تدردش معك فتغفو متوسدا حقيبتك. تقوم فزعا بعد لحظات قصيرة فتسألك: ليش كنت تهذر وأنت نايم؟ الكوابيس، الشبح، الخوف من المداهمة، التهم الملفقة. وتسألك : إيش تاكل؟ فتعطيها نقودا بلا حساب لتأتى بما تريد وبزاد للطريق المجهول . فتطهو لك طعاما حضريا سريعا تقدمه فوق صينية عربية، فتحلف عليها لتأكل معك ، وتقول لها منبها ومحذرا: اللى يخون العيش والملح بيروح النار يا ست مبروكة. فترد عليك

---

* العبّدة أو العبد : لقب يطلقه البدو على عساكر الحدود .

معاتبة : نحنا بدو والكلام هادا ما يصير عندنا . وأنت تعلم هذا عن سكان الصحراء الغربية : تركيبة خاصة مسالمة مثل أهل النوبة والعبابدة.. ويختلفون تماما عن بدو صحراء سيناء، وكان هذا يحيرك : عدوانية وشراسة هناك ووداعة ومسالمة هنا .. كيف؟ هل هي بطون عربية مختلفة؟ وكنت تفسر ما حدث لك قديما مع الغلام كمجرد بثور مرضية عابرة. ثم مع قناوى بعد ذلك من البنت مبروكة. ويستوقفك الاسم.. وتكاد تسأل مبروكة هذه عن أصل الموضوع القديم ثم تسكت حتى لا تتعقد الأمور وتبررها بتشابه الأسماء وشيوعة اسمها بين نساء البدو. ويأتى الحمار ، يطالبك بالتريث لأن الهضبة ما زالت ساخنة . ويسألك:«تريد رفاقة؟» فلا توافق أو تمانع وتترك المسألة للظروف: لأن رحلة طويلة كهذه يهونها أنيس ، لكنك تكره الانضمام لقطيع من البشر المجهولين . ويهل عليك ليل كئيب، تفكر فتشعر بالحبس وقسوة الانتظار. تدخن طوال الوقت.. تفكر فى التراجع . وتطل عليك مبروكة بين وقت وآخر: تريد شيء .. تريد شاهى؟ وتشرب شايا وراء شاى حتى صار اسمه يثيرك فتسحب الزجاجة الوحيدة المدخرة للطريق وتشرب وتسمعها تغنى للهباب الذى بالنعناع. وتسمع دبات أقدامها ترج أرضية الحوش. لا تهدأ . لا تنام. مرة تأتيك ببطانية نظيفة ومرة براديو ليؤنسك ، مرة لتسألك : تريد شيء؟ مخلوقان وحيدان فى صحراء الوحشة والأفول . ورائحة البارزتا تصدمك مثل الشاى الأسود الثقيل. فيفلت لسانك وتسألها عن نوع هذا العطر الجميل؟ تغيب عنك فترة، ثم تعود بطبق فاكهة من طيبات المدينة المجاورة: تفاح أمريكانى وموز مستورد. وتفاجأ بها قد تبدلت، لم تعد مبروكة ذات الملابس القاتمة البدوية. والبارزتا* تلاشت، غطت عليها رائحة صابون كاميه وجلست بجوارك تقشر الفواكة بعناية وتقدمها لك بأمومة وسخاء ، فتشعر ببوادر مغامرة عبثية كأنك تشاهد تفتح وردة بين المقابر، وتسأل نفسك : هل لديك استعداد للتواصل؟ وهل يمكن اشتهاؤها؟ وهل هذا أوان الحب؟ وأنت فى مأزقك الحرج ضاعت منك ملامح الأنثى ، كنت فاقدا التوازن والإحساس بالمتعة. وسألتك وهى تلملم قشر الموز: الليل طويل بدك تأكل؟ .. قلت بدى. تجاعيد الوجه، ترهل الأثداء، الأسنان الصدئة . تشرب وتدس الزجاجة

---

* البازرتا : نوع من العطور الزاعقة .

تحت البطانية تسرح ما بين القاهرة والصحراء ... مقبرتك القادمة: الجوع، العطش، البنادق . لكن.. لماذا؟ وجاءت بالطعام ، تربعت ، شاركتك هذه المرة دون دعوة . وكلما تحركت ، انحسر قميصها حتى تجاوز الركبتين بمراحل ، فرايت سيقانا كالحليب بياضا لم تؤثر فيها لفحات الشمس، وحين أتت بالإبريق والطشت لتغسل يديك، وانحنت لتصب الماء: رايت بطنا عارية عرياً متعمدا .. وأنفاسها كاللهب . وأنت حائر فى أمرها وأمرك .. وكأنك تحلم ، ليلة تحت بطن الجبل مع كلب أجرب وليلة مع امرأة ، فهل تتخيل شيئاً ليس له وجود؟ .. لكنها تسألك لتقنين مشروعية وجودها معك بعد انتهاء حفل العشاء:

- إيش اسمك؟

- بلال..

- وليش مغرب؟

- قدر ونصيب.

- وعندك أوراق ؟

- طبعا..

- وليش ما عديت من البوابة؟

- هيكى..

- تضحك لأنك ترد بالبدوى وتسألك.

- بالحق .. ليش؟

- الحكومة .

- إيش درت.

- قتلت قناوى .

- وهادا من الحكومة؟

- من الشعب.

- ستار يا رب.

تبتعد عنك قليلا وتلمح الرعب البادى على قسمات الوجه ، تبتسم فتفهم مدى عبثك ومزاحك .. تطمئن وتضربك برفق على فخدك ، تقول معاتبة : وحق الله خوفتنى . ويدها ما زالت ساكنه ، دافئة ، حيث استقرت ، فتشعر بالصحوة والانتباه. تلاقت الأنظار فى لحظة خاطفه وتم التعارف ، وضعت يدك فوق يدها ولبثتما صامتين . لا أحد منكما يبادر .. خوفا من احتمالات الفشل ، فهذه الصحراء البور المتروكة بماذا تحرث وكيف تروى؟ وأمطارك فى مواسم الخوف والقلق تشح .. مجرد سحب خادعة . تسحب البراندى بيدك الخالية وتشرب دون تحرز ومن الزجاجة رأسا . تبعد يدك بهدوء. تقوم ، تخرج. فتندم لأنك خدشت مشاعرها الفطرية بتعاطى المنكر ، تنهض لتعتذر ، لكنك تفاجأ بها قادمة بوجه بشوش وكوبين فارغين تمدهما وتقول بجرأة أدهشتك : هيا .. دير . تصب كأسين وأنت منبهر : فهذه أول مرة تشاهد فيها بدوية تسكر . وتقول لك ممتعضة: «هادا الشيء مصرى .. ملعون والديهم .. حتى هادا ما يديروه مليح» . بدوية تسكر وتستخف بالصناعة المحلية .. يعنى فى جانب المعارضة . تشرب وتنافسك . هيا دير.. هيا دير. ثم غنت : يرحم بوك الخيمة طاحت .. يرحم بوك وتفسر لك معنى الأغنية ، بأن عروسين فى ليلة دخلتهما ، داهمتهما رياح عاصفة وأطاحت بالخيمة .. فانكشفا عاريين أمام الناس الغرباء . وأنت تضحك وتقول لها : من حسن الحظ أننا لسنا تحت خيمة وإلا ذبحنا البدو ، فتلتصق بك حتى دخلت معك تحت البطانية وغنت أغنية البدو الفاضحة : ظنبورك طار طرف عينى .. يا بنية بايش تداوينى . لقاء الغناء ونهايات الأعمار ويدها الدافئة تضغط ، تجوس حتى لامست منبع الحياة وسر الأسرار وأنشودة الكون .. فاشتعلت ، وكان الحريق وكان الجنون الحقيقى . أنت وهى قلب الصحراء ومحاولة يائسة للبقاء ومقاومة عوامل الدمار. لا عقل ولا منطق . كيف صرت كما أنت الآن : فحلا قويا، قادرا على اختراق ألف امراة فى ليلة واحدة هل من تفسير؟ أى شيطان لبسك فأصبت هذه البدوية المهملة بلوثة؟ فتعرت وعرتك وبدأت تهلوس بلغة لا تفهم منها سوى القليل: الله .. الله .. زيد يا مصرى .. زيد. وتأكلك بأسنانها الصدئة فأصابك السعار مثلها ، تتمادى فى مجونك ونزقك فتسكب أمطارك الغزيرة فى الشقوق والنتوءات والكهوف. كل قدراتك تتحرك : أناملك تعبث ، أسنانك تعضعض ، لسانك يلحس ، أنفاسك نيران ، صوتك الهامس

كالموسيقى الملائكية تصدر أنغاما تنصت لها عفاريت الكون ، وكان الرخاء . ارتوت الأرض الشرقانة وتوقفت السيول إلى حين . وقامت تغنى ، تكاد ترقص . أعدت لك حماما بدائيا .. حممتك وليفتك كأنها جارية وأنت الأمير ، أنت الطفل وهى الأم. أنت العمدة وهى شلبية ، تدعك جسدك بالليفة وتداعب مناطقك فتتجمع السحب من جديد .. تشعر بنذير البرق والرعد . أكلتما معا ، عدتما للفراش ، نمتما عاريين . واستمرت تناوشك ، تغنى للأمطار لكى ترخ . وتسمع دوى الرعد يأتى من تحت لا من السماء . أعطتك الناى فعزفت ، لم يكن لحنا مجنونا صاخبا كالسابق ، كان هادئا شاعريا ملائكيا . وتسمع صوتها هذه المرة مغايرا : الله كفى .. هلكتنى يرحم والديك .. يرحم بوك .. كفى .. كفى . تقولها وهى متشبثة بك ، تطوقك بأيد من حديد، وانتهت الحرب بالسلام والطمأنينة والشبع والارتواء . تبدد الجفاف وازدهرت الحياة ، فتوسدت يدك ونامت فى حضنك . ونمت مثلها نوما هادئا عميقا لم تهنأ بمثله منذ عشرات السنين .. وكأنك قادم لتوك من حرب طاحنة انتهت بالنصر والسلام والحب : نصر لم يكن متوقعا ولا فى الحسبان ، وكانت أحلامك ، تدور كلها فى أرض غير الأرض التى عرفتها ، وبين بشر غير الذين طاردوك . كنت فى الجنة التى يتحدثون عنها فى الكتب المقدسة . وقمتما على نداءات الحمار الذى جاء يسألك ويخبرك بمغامرة العبور فى جو الحصار ، فأنابت عنك فى الرد : المسكين مريض .. خليه اليوم .. هاك .. إشرى* حاجة لصغارك . رشته فانصرف ، فاستسلمت للنوم والكسل لا تود المغادرة .. تتمنى ديمومة هذه اللحظة، تتوقف عقارب الساعة ودورة الأرض ، فتتجمد الحياة : هنا ، ومنذ الآن.. إلى الأبد .. حتى يوم القيامة . لا تصدق .. تظن نفسك تحت بطن الجبل فى الليلة الفائتة والشبح الذى احتميت به ونمت ، حيوان مفترس ، أكلك فرحمك الإله وأخذك للجنة رأسا دون حساب لشدة ما عانيت وتعذبت ، فغفر لك ما تقدم وما تأخر فاحتج أحد الملكين بدفتر الحساب ، متجاوزا حدوده ، لأن ربك أدرى بالقلوب . ثم تنتبه وتصحو على نداءات مبروكة : إذن .. أنت فى الأرض ما تزال، وهذه البدوية البسيطة ، أتكون مصدر انتقالك لواقع مغاير تماما ، كيف؟ وأنت الذى مرت بك كل أصناف

---

* إشرى : اشترى .

النساء . هذا العطاء السخى وهذه القدرة الإنسانية الفذة على إسعاد الغير ، من تكون؟ مبعوث السماء؟ وسام عذاباتك؟ أهى من نساء الأرض حقا ؟ وتشدك لصينية الطعام: كبدة محمرة ، دجاج مسلوق ، فاكهة .. وتمد لك ورقة ملفوفة ، تفرح بها .. تهتف : يخرب عقلك يا مبروكة .. مش معقول .. جونى ووكر؟ وتسألها عن الثمن ، فتأبى .. تلح ، ترجو ، فتحلف بمقام سيدها العوام . هذه المجنونة تبدد تحويشة العمر لقاء ليلة ، أبدا لم تمر بحالة كهذه فى مشوارك الطويل المضنى ، أم هى معزوفة ما قبل النهاية؟ وأنتما تقطعان ساعات النهار فى هدوء وألفة ، سألتك عن حكايتك ، فرويت لها القصة كلها فقالت مشفقة : والله إنك مسكين .. لكن رحومة السنينى هادا خليك منه ما يخاف فى الدنيا من مخلوق .. مثل مبروكة .. أنا نعرفه كويس .. الإبليس القواد وتسألها عن الضابط حتيتة الزوام ، نائب مدير مكتب أمن الصحراء وابن هذه المنطقة .. الداهية المسيطر فتقول : هادا والله كان زمان.. وتوا وين .. بيقولوا صار شىء كبير غادى. وتسألها بدورك عن مشوارها ، تصب لنفسها كأسا ، تشعل أول سيجارة ، تشفط نفسا طويلا عميقا .. تنفخه مع زفرة وتعود لنقطة البداية : كان أبوها يجمع ويتاجر فى مخلفات الحرب مثل معظم بدو الصحراء ، يرص كل ما يجد من دانات نحاسية وخلافه ، يضعها فى جوال حتى تمر سيارة التاجر الكبير ، وفى أسبوع مولدها ، والأسرة تحتفل ، انفجر جوال المخلفات وطارت الخيمة بكل ما فيها ومن فيها وعثروا عليها مرمية تبكى .. لم يبق من أهلها سواها ، فاطلقوا عليها مبروكة المنحوسة . وكبرت وكانت جميلة ، انتظرت عريسا ، لكن البدو نفروا منها متشائمين فالتحقت كخادمة عند الأكابر : المحافظين والمآمير ، فأعجب بها مأمور متسلط وتزوجها بالفاتحة ، ولما حملت ، أخذها سرا للإسكندرية وأجهضها وكادت تموت ، فتركته وهجت رغم أنها حكمت الصحراء من خلال نفوذه ، ثم تزوجت صولا من الحدود على سنة الله ورسوله ، كان طيبا سخيا حنونا أحيانا وهمجيا بشعا حين يشرب العرقى ويصعد للفراش ، يتوه منه الطريق فتقول له ناصحة ، زاجرة ، محزرة : يا خوى يرحم والديك .. أنت لوين ماشى؟ وإيش تريد ؟ أنا حرمه والطريق من هيك. مثلما الله قال .. كنك يا رجل.. هادا حرام ، شهر بطوله ، ثلاثين يوما وهى تحاول معه تعديل مسار عينه

الحولاء بلا جدوى . فتبرأت منه ونزحت للسلوم وكرهت كل الرجال بسببه ، فتاجرت وهربت وكسبت وبنت دارا واسعة واشترت دكانين تؤجرهما : ثم اقتنصها رحومة السنيني .. اتخذها وسيلة ومخزنا للأسرار والبضائع في ذلك الزمن منذ ربع قرن ، ولم يكتب عليها أبدا ذلك الفاجر السمسار وما زال مدينا لها بالمال. تتوقف عن الحكي ، فترى دمعتين تنحدران ، فتشعر بالألفة والأسى والتقرب .. شقيان في كون شقي : دانة تركها الحلفاء وكانت الضحية ، ومأمور أناني بحث عن متعة عابرة ونسي عذابات البشر ، وصول همجي شاذ نشأ في عالم الكبت والقمع فانحرف وجرح كرامتها .. غابة وأنت مثلها ضحية . وهذه المرأة ، ينبغي اعتبارها محطتك الأخيرة ، فللأرملة أولادها.. وهذه لك . هدية إن أضعتها .. ضعت . وكلما جاء الحمار ، ترشوه : المسكين ما يقدر على الطريق .. وحين يصر على مقابلتك تلف رأسك بفوطة وتضع فوقك البطاطين ، «كنك المسكين ما يقدر على الطريق» . في الليله الخامسة نمتما في هدوء وصمت ، صباح اليوم السادس تقرر الرحيل فتسألك جادة : ليش ما تقعد في السلوم ؟ وتزين لك الإقامة : بمتجر تفتحه وتساعدك بنقودها ونفوذها، بعمل تختاره وتلحقك به بمالها من علاقات ، تغريك بكل ما تملك عاشقة من طرق : تعدك بتوفير ضمانات الحماية من رحومة السنيني لأنها تملك أسراره ، ومن أي شبح آخر ، فهذه مدينتها وهؤلاء أهلها وستكون في عيونها وتحت مظلتهم . ولما صممت ، قررت توصيلك بنفسها حتى درنه* . فلها أقارب هناك وسيجدون لك ملاذا وعملا ، وربما بقيت معك لفترة حتى تستقر أمورك . وتصارحك دون خجل : اسمع يا خوي .. أنا نريدك .. تمشي مشرق معاك .. مغرب معاك.. أو تمكث هنا لكنك سترحل . أنت والليل والطريق وامراة عاشقة ، مغامرة ، مقاتلة ، عنيدة، جديرة بالانتماء للمملكة الإنسانية في أرقى صورها ، فما صادفت مثلها ولم تصادف . درة الصحراء ووجه المعارض . أنشودة نساء العرب وهل في مدينتك مثلها ؟ كل من صادفتهن سراب . حتى الأرملة كانت تفضل أولادها عنك . ومبروكة الآن تتقدمك وستفتديك عند الخطر . لها عينا زرقاء اليمامة وشجاعة نساء الفاتحين الأوائل. قبل السلك بمسافة تخيرت حفرة عميقة من مخلفات الحرب ، اختبئتما حتى أواخر الليل لينام العسكر . نفضت المكان ، فرشت بطانية ، قيدت الحمارين وفاجأتك بزجاجة ولحم مشوي . وكنت في حاجة لكأس

يشجعك على محنة العبور ، ولواحدة مثل مبروكة ترافقك ولديها حاسة خاصة تتعامل بها مع ليل الصحراء وغموضه ، تعرف جيدا أين يكمن العساكر وعن أى صيد يبحثون: «اللى مغرّب .. إيش عنده ؟ إنما اللى جاى من غربة ... هادا معاه ويعطى » . لكن الحمّارة .. نبهوها ، فهذه الأيام عصيبة ، والعساكر يترصدون الخارجين أكثر من العائدين . ردّى بالك يا مبروكة . طوالى.. طخ .. ولهذا تحاول المرور من منطقة بعيدة هادئة نوعا ، فقطعت بك شوطا طويلا بالعرض باحثة عن مخرج آمن . زرقاء اليمامة لها قدرة بصرية تفوق أجهزة الرؤية الليلية المعاصرة ، وتعرف متى يغفو جنود هذا الجانب ، ومتى يهمل جنود الجانب المقابل ، وتقول لك : قبل الفجر، فتفزع لأنك تتشاءم من هذا التوقيت : فكل الكوارث جاءتك أخبارها قبل الفجر .. تقول لها ، ترجوها، بلاش قبل الفجر، أى توقيت يعجبك .. حتى قبل القيامة ، لكنها القائد والخبيرة وتريد ضمان سلامتك : وليش لا . هادا ضرورى ، فى الوقت هادا كله يرقد يريح حتى الشياطين. هذا صحيح ، لكن شيطانك كان يباغتك قبل الفجر ، فهذه الأنواع من الكائنات ليست بشرا ولا جنيا ولا شياطينا . نوع جديد أوجدته ضرورات العصر.. لكنك لا تقول لها الأسباب ، تستسلم لقدرك . أكلت وشربت وتمددت تنتظر : أمامك .. أضواء مدن النفط ، وخلفك ظلام ، فراغ ، ذكريات ، طموحات ، أشباح ، مطاردات ، حنين غامض قوى ، رغبة عارمة فى التراجع بعد كل هذا العناء . وفوقك السماء : فراغ واسع عميق ، سماء محايدة ، ليست معك ولا ضدك، ولا علاقة لها بكل ما يدور فوق هذا الكوكب الضئيل الحجم . ومبروكة سارت منحنية، تحرت ، تصنتت ، ثم عادت ، تمددت بجوارك وقالت : ما زال . توسدت يدك ، داعبتك، غنت لك بصوت خفيض ساحر ملائكى ، همست قالت : أنا نريدك ونمشى معاك حتى لجهنم . انطلقت دفعة رشاش ، مزقت السكون وأرعبت الكائنات الصغيرة والتى تظن نفسها كبيرة فانكمشت فى حضنك مثل طفل رضيع . الليل ، الخوف، الفناء وحياة تزدهر وتتفتح وسط احتمالات الشر : مؤخرتك للريح والعراء وثديها المترهل فى فمك تلقمه لك فترضع، هى أمك وعشيقتك ووطنك .. وتهتف تحتك .. الله .. زيذ .. زيد .. وترجوك ؟ هيا

* درنة : مدينة ليبية .

نرجع .. أنا أعطيك وأعطيك وأدير لك .. عندى فلوس ، فلوس تحت البلاط .. فلوس عند التجار .. فلوس عند الناس.

وإيش ندير بيها، لا عندى ولد ولا بنت ولا أب ولا أم .. هادا كله لك .. تريد تمشى مصر أنا معاك .. هيا .. بالله هيا .. يرحم والديك .. نرجع . تقوم فتشدها، تحتويها بقوة وتعيد قراءة الكتاب من جديد .. صفحة .. صفحة ، حتى ظهر الغلاف ، ولم يعد لديك المزيد. سرتما صامتين حتى توقفتما أمام فتحة الاجتياز بمسافة ، وستحدد هى ساعة الصفر : قبل الفجر . وتقول لك هامسة: الأنوار هاديك .. مساعد .. وإن قابلنا عسكرى من مشرق .. أنت تسكت .. هادى تقول .. وتشير لقبضتها الممسكة بالعملات الورقية الكبيرة، وتضيف : وإن قابلنا عسكرى من مغرب .. أنت ما تزعل .. وهادى ترد .. وتشير إلى جسدها . فترفض . تغضب . تثور . تقول : لا .. أموت ولا يقع هذا. أموت ولا يمسك أحد. أموت ولا تدفعين ثمن نجاتى بهذه الوسيلة.

وتحذرها : إياك يا مبروكة .. إياك، إلا هذه . ومبروكة تندفع نحوك ، تقبلك.. تقول لك : راجل .. والله راجل . وتبصق على رحومة السنينى ملعون الوالدين، الخسيس . أنت الآن على أبواب الخطوة الأخيرة، قبل القفز إلى المجهول . وتفكر بعمق و موضوعية: شبحك هناك فى القاهرة .. ماذا لوغيرت خطتك ومكثت فى هذه المدينة الحدودية وتقود معركتك الفكرية منها وتفتح مكتبة فى قلب القفار ، لديك هناك مئات الكتب ، تبيعها هنا وتعيش، هذا مشروع جديد على الصحراء . وليكن موقعك فرعا يضم عصارة فكر رواد حركة التنوير . وكل ما ينادون به فى الأتيليه وزهرة البستان والتجمع والناصرى من مبادئ ورؤى وظلال وفن وأدب : تنقله هنا .. كمركز إشعاع حضارى . لن تعود للقاهرة أو تفر غربا . هنا .. مع هذه البدوية المقاتلة العظيمة ستكون المحطة الأخيرة .

وتسألها قبل اتخاذ القرار النهائى ..

- تريدينى يا مبروكة .. ؟

- نريدك ...

- وتساعدينى.

- وأموت معاك الحين.

- هيا نرجع ..

- لوين؟

- عندك..

الذى حدث بعد ذلك ، شيء لا يصدق ، كان التوقيت قبل الفجر تماما ، ليس قبله ولا بعده ، ومبروكة الحريصة المحنكة ، صدمت . ذهلت . جنت . فرحت . كان قرارك المباغت أمرا يفوق بمراحل مساحة عقلها . مبروكة أصيبت بلوثة عارضة فزغردت . زغرودة وكأنها في عرس فكشفت عن موقعكما ، فزغرد معها الرصاص . عرس همجى على أبواب مدينتين . دفعات من الرصاص الأهوج . تنزف . تجرى فى اتجاة السلك ، تحاول اجتيازه بالقفز فوقه . فتصطدم بسيخ مدبب طويل ينغرز فى عينك . ألم هائل يمزقك . وكنت تفلفص . تحاول الخلاص ولا تقدر . ثم تهدأ .. ودمك يسيل .. يسيل.

(٦)

جئتك الآن ، معلقة بين مدينتين ، فوق سيخ مدبب طويل اخترق عينك وغاص داخلك حتى ارتطم بعظام الجمجمة . والأسلاك مغروزة فى جسدك ، ودماؤك على الرمال . حتى موتك يبدو غريبا .. أيها الغريب الذى عبر الكون فى الزمان الخطأ ، زمن الهمج والأشباح والفوضى والجنون والرصاص . الذباب الوحشى ، يتراقص حول وجهك ، والنمل يأكل دمك المتجلط ، نجوت من اليمن وسيناء وسم البار والسيارة المداهمة ، لتموت هنا .. مجانا ، فى موقف ملتبس ، وكأنهم خططوا لذلك وفازوا. وكلهم أبرياء من دمك ، مجرد متسلل، حادث عادى يقع نظيره كل يوم ولا أحد يدان. أيها الأحمق : ألقوا لك بالطعم وسحبوك بذكاء للشرك فلقيت حتفك بيدك ، وجاء قرارك متأخرا . ومبروكة ، عاشقتك ، ومعزوفتك الأخيرة ، نجت من الموت وهوت فى قاع الجنون ، نادت عليك .. يا بلال .. ولمّا رأتك هكذا ، معلقا كالذبيحة ، بين مدينتين ولا ترد ، جنت . أنطلقت تعدو فى البرارى ، النجوع ، قرب معسكرات الجنود ، تغنى .. الأغنية التى غنتها لك طوال خمسة أيام خالدة وعزيزة من عمريكما ظنبورى طار طرف عينى .. يا مصاروة بإيش تداوونى. الفتيات يتجنبنها ، يخفين وجوههن خجلا ، والنساء يندهشن ، يردن معرفة الحكاية ، الرجال يغضبون ، يطاردونها ، يزيحونها خارج المدينة والنجع صائحين : تحشمى يا مره .. ليش المصاروة .. والعريان وين راحوا ؟ وهى لا تتحشم : خلعت ملابس البدويات ، ارتدت قميص الأيام الخمسة ، وتعطرت بالكولونيا التى كنت تحبها وعادت للمدينة مغنية ، متحدية.. فيطاردها الأطفال ، يرجمونها بالطوب صائحين : مبروكة المنحوسة.. مبروكة المصراوية .. مبروكة السلكاوية .. وهى لا تبالى .. تغنى لك ، تغيظهم: يا مصراوى هيا .. نريدك تسهر لى حتى الفجرية . وتصعد للهضبة ، تمر على خيام الحدود المنتشره قرب السلك ، ترجمهم بالطوب وتشتمهم : قتلتوه .. يا مساخيط.

لا تخشى بنادقهم .. تخلدك ، حاولت الوصول إليك وخطفك وإقامة ضريح يليق بك لكن العساكر حالوا بينها وبينك ، فتحلف لمن يقابلها بمقام سيدى بلال . صرت وليا دون رغبتك ولك مقام : مع أنك معلق هنا ، على السلك : شكلا ..

جثتك فى الجانب المواجه للوطن ، قانونا .. أنت خارج الحدود . حتى الطليان تآمروا ضدك ، أقاموا السلك الشائك على بعد عدة أمتار من الحدود الدولية حتى تميع قضيتك بين المدينتين . وحمارك الميت يبدو فى حالة دهشة لكنه داخل الحدود ، ولن يتنصلوا من دمه . وأنت لا هنا ولا هناك ، حالة فريدة ، ملتبسة فى وجه الريح والذباب والعفار والنمل والكلاب . وقديما تنبأت أمك: «ودين النبى هتموت قتيل..» . حياتك مشاكل وموتك مشكلة . من أين جاءت الرصاصات القاتلة؟ من الذى سيغسلك ويكفنك ويدفنك؟ لكن مبروكة تغنى لك: يا سيدى بلال الله يخليك .. يا سيدى بلال بارك فى الدار الله يخليك ، وتردد اسمك ، بركاتك ، معجزاتك ، تهلوس ، تخلط . فيردد البدو والعساكر هلاوسها ، يضيفون ويهولون حتى أشاعوا أنهم فشلوا فى قتلك لأنك محجب لا يؤثر فيك الرصاص ، فاستعانوا بصواريخ الطائرات ، مدفع الدبابات ، قاذفات اللهب ، استنجدوا بالأسطول الأمريكى الذى أمطرك بوابل من صواريخ كروز وكافة وسائلهم الحديثة . ولما فشلوا ، جاءت فرقة كوماندوز خاصة من خارج الحدود ومعها سلاح سرى خطير ، سلطوه عليك فطرت فى الهواء ثم انكفأت فوق السيخ كما أنت الآن . وإلا .. كيف حدث هذا ؟ أى قوة شالتك وحطتك فوق السيخ هكذا؟ كنت لحظتها جريحا تنزف .. فكيف أتتك القوة لتقفز: لا لعبت بالزانة فى شبابك ولا كنت بهلوانا؟ ورأى بدوى جثتك ، فى وضعها العجيب ، وسمع حكاية الفرقة الخاصة ، فقال مصدقا : هادا هو ولولا هيكى .. ما صار إللى صار. ورد عليه آخر برأى مخالف: يا جماعة .. هادا بركة .. ولى .. بركاتك يا سيدى بلال. هلوسات ، شائعات ، أغان ، لكنك للأسف ، خرجت من التاريخ والذاكرة العاقلة : منبتا .. مجهولا . وعزاؤك الوحيد أنك قضيت أيامك الأخيرة فى أحضان امرأة، كانت أما ووطنا وحبا وعشقا ، كانت رمزا .. فمسحت عنك غبار السنين .. فرحلت ممتلئا سعيدا . وكانت ثريا سرابا ، وكانت زوجتك حالة مستعصية ، وكانت الأرملة حالة انفصام بينك وبين أولادها ، لكنها ما زالت تنتظرك ، وتحافظ على كتبك وشقتك وتنتظر ، ووضعت لك على المكتب ثلاث خطابات جاءتك من واحد اسمه شادى الصافى من بيروت . وهى أحبتك . بينما أنت مشغول عنها وعن نساء العالم بقضيتك . حرقت وقتك وأعصابك فى شوارع مدينتك وزهرة البستان ، توقع على العرائض وتصرخ مع الصارخين : لا

تصالح. لكنهم تصالحوا رغم أشعاركم وعرائضكم وتفرغوا لكم . آلاف العساكر بالعصى الكهربائية والخوذات والدروع ، يقفون أو يجلسون محنطين فى اللوارى أمام الجامعات والنقابات والمصانع وميدان سليمان باشا . وأنتم بين فكى الوحش : الهمج من ناحية ، والعسكر من ناحية . والذى سينتصر منهم ، سيلتفت لكم . وحين حاول بعضكم ، تلقيتم إنذارين : واحد استقر فى صدر فرج فودة ، والثانى فى رقبة العملاق . والويل لكم بعد انتهاء معركة البقاء . الآن ، يتسلى عليكم الأشباح وحلابوا البقرة . وثمة وحش رهيب .. ينتظر نتائج الصراع على أبواب رفح . وأنت هربت والأرملة بكت وهى تودعك . ومبروكة جنت حين خطفوك منها ، انتزعوك بقسوة فى نفس التوقيت الهمجى : قبل الفجر .. توقيت قدرى محدد . ومبروكة كانت محطتك الأخيرة ، أغنية ومعزوفة الوادع . ولا أحد فى الكون يتذكرك سواها .. تنتقل بسرعة غريبة وتبدل الأمكنة ، وتغنى عن فقدك؟ كانت أنبل وأسمى من لاقيت : أمتعتك ، أسعدتك ، ثم تخلدك .. اختصرتك فى الجزء الأسفل ، تدعى للبدو أن العساكر تخلصوا منه ، خوفا من مدفعه الذى أوله عند الأهرمات ونهايته فى مراكش . وتزعم أيضا : ما عند أولاد على والسنوسية والطوارق والمغاربة والبربر وأهل الصعيد والسودان والشوام وعرب الجزيرة وأهل بلاد برة شيء كهذا، لو ذاقته أى امرأة من الأنس أو الجن ، لصار لهن ما صار لها، شيء يظل كالمنارة لا تؤثر فية العواصف والرياح ، كالخيل العفى يركض ، كالوطواط يسهر ، كالحديد لا يلوى .. شيء يدخل من تحت ويخرج من فوق ، ثم يمتد ويمتد ، ويمكن أن تتعلق به عشرات النساء ولا ينتهى ، ولهذا قتله العساكر لأنهم خافوا على حريمهم منه ويمكن (ملعون الوالدين هادا رحومة السنينى) حرضهم لأن عنده من الحريم عددا لا يحصى . وتستدرجها امرأة مطلقة بعيدا وتسألها: «يا مبروكة .. المسخوط هادا .. كيف كان؟ وإيش درتى معاه؟ إيش دار معاكى؟» . فترد بتأن ، وعلى وجهها مسحة حزن وفى صوتها .. رنة أسى ودموع .. تتجمع كسحب تنذر بالسيول : «والله يا بنيتى .. إيش نقول لك : خمسة أيام وهو راقد فى الحوش كالتمساح .. يقول لى : هيا يا مبروكة . أمشى له خايفة، قلبى يدق وجسمى يرتعش .. واسأله بعد مدة : تميت يا مصرى؟ .. يقول لى : ما زال . وأنهض أمشى للسوق أسوى أمورى وأرجع .. ألقاه راقد : وهيا يا مبروكة . استعيذ بالله من الشيطان الرجيم وأغمض عيونى وأرقد .. وأسأله

وروحى قريب تطلع: توا كيف يا مصرى؟ يقول لى ما زال . أنوض* وأكركب فى الحوش وأسوى الأكل واسأله : تريد حاجة؟ هيكى باهى؟ يقول لى: هيا يا مبروكة، وأقول له مانى قادرة . تاعبة * يا سيدى. نح الشيء هادا يرحم والديك وقلت له : اسمع يا مصرى يا ملعون .. الكلام هادا ما يصير .. أنت من لوطة* وأنا من فوق وظليت يا بنيتى أدير له ألاعيب الحريم وأسأله بين الحين والحين: توا كيف؟ توا باهى؟ يقول لى : زيدى .. زيدى . وظليت يا كبدى هيكى لما طلع النهار ، تعبت ونمت فوق هادا المسخوط ، وقال لى قومى يا مبروكة ونبدل المسائل خلينى أنا من فوق وأنت من تحت . قلت موافقة .. لكن راجينى وخرجت من الحوش وهربت وظليت نجرى .. نجرى .. لتوا . وما ندرى إن كان ما زال فى الحوش واللا حريم العساكر خطفوه ..» .

وأنت مبدد هنا ، معرض للفناء ، ومعلق بين مدينتين ، مبروكة تخلد جسدك ، فينسجون حولك الأساطير ، وقد يقيمون ضريحا ويطلقون عليه مقام سيدى بلال أو الشيخ مسخوط أو مولانا سيدى أبو صارى أو حتى أبو بتاع . فتقتل جسديا وأدبيا ، وستتوافد على مقامك العاقرات من نساء العرب من شتى المدن ، للتبرك بمقامك ووضع النذور فى صندوقك ، وحتما ستقع مشاكل معقدة عند توزيع حصيلة الصندوق بين أهل الصحراء الذين خلدوك وأهل المدينة الذين طاردوك . ومهما قالت عنك مبروكة وشوهتك ، فهى النقطة المضيئة فى حياتك: احتفت بك، استضافتك ، غامرت معك ، حافظت عليك ، وكادت تموت بسببك. هذه المقاتلة الباسلة ، أم نساء العرب ، أصدقهن أشرفهن ، وهى الآن تغنى للسانك الأسطورى حتى صدقوها . فصعد بدوى على نياته ليراك : فلم يجد غير جثتك المعلقة ، ولما عاد حائرا وسألوه : قال لهم إن الحكومة قطعته وحملته بقطار البضائع ليعرضوه فى المتاحف فيأتى السياح للفرجة.

وأنت هنا ، لا تجد من يدفنك ، يمسخون سيرتك ، يشوهون تاريخك ، يمجدون أسفلك ، مع أن قيمتك وقوتك ينبعان من جمجمتك المعلقة فوق السيخ . حتى قناوى ، كان أفضل منك : كرموه بشهادات الورق وشرائط الدمور وأوسمة

---

* أنوض : أنهض . * تاعبة : متعبة . * لوطة : تحت .

البرونز، ووجد من يدفنه . وأنت لم تأخذ حتى وساما من الصفيح . وما كنت تستحق هذه الميتة البشعة ، النمل الهمجي يأكل دمك ، الذباب يطن ، الكلاب تحوم ، الذئاب تشم رائحتك .. تعوى .. تعوى وثمة مؤامرة حيكت ضدك . فقبل موتك ، ومنذ خروجك من مدينتك والعيون تترصدك ، تتابعك ، آلو .. واحد ينادى .. حول . آلو .. أسمعك بوضوح.. حول ، الهدف فى قطار الإسكندرية ، الهدف على الطريق البرى ، الهدف يتلكأ فى مدينة مطروح ، الهدف اختفى فوق الهضبة الهدف داخل الكمين ، وتسلمنا رسالتكم لا يخرج حيا وليس مطلوبا حيا .

منذ خروجك من مدينتك ونهايتك محددة : الموت فى موقف ملتبس . لهذا دفعوك للهرب لكى تنتهى بعيدا عن رفاقك كتاب العرائض وحتى لا تتحول إلى شهيد ورمز . لعبة الهمج فى زمن الهمج . وليلة موتك ، كثفت الحراسة وأعطيت الأوامر : اضرب فورا . ولا أحد يجتاز السلك حيا .. اضرب ولا تنشن . وكانت أجهزة الرؤية الليلية مثبتة فى الكمائن .. كانوا سينالون منك مهما تحرزت وتخفيت ، وزغرودة مبروكة عجلت بموتك ولم تكن السبب.

ومع شروق الشمس ، تحرك مسؤول من الصحراء شخصيا وفى سرية تامة لفرز حصيلة ليلة التوتر والشفرات والرصاص الحاصد . فمر على الضحايا واحدا واحدا حتى وصل إليك ، وعرفك ، فاستولى على بطاقاتك وحقيبتك وتأكد من وجود الأوراق المطلوبة بداخلها ووضع تحتك حقيبة أخرى بها مواد الإدانة وجلس بعيدا.

وقبل استدعاء وكيل النيابة ، بدأ يقرأ روايتك بدقة ، فصلا فصلا ، كلمة كلمة.. وكلما توغل ، ينظر إلى جثتك مغتاظا ، يبصق عليك ، يقرأ .. فينفعل ، يتمنى إحياءك وإبادتك مرة أخرى بيده ، تمزيقا بالسكاكين ، حرقا بالبنزين ، تقطيعا لأطرافك وأناملك التى كتبت .. وأنت حى تتألم ، تصرخ ، تستغيث ، يسمعك تقولها بفمك: «حرمت .. أنا مره ..أنا ..» ويسبك ويسب أهلك .. ولما جاءه عسكرى يسأل ، عن تعليماته بشأن استدعاء سيارة إسعاف أو دفن موتى : صرخ بحدة وجنون : «إسعاف إيه؟ ودفن إيه؟ هنولع فى أمه هنا ..» .

(٧)

وأنت تغنى هنا ، فى وضعك الدرامى الفريد ، وكلاب الدنيا حولك تنبح ولا أحد من رفاقك يعلم بمصيرك ، مقطوع الصلة بمدينتك وأهلك وماضيك ، ولا ورقة تفصح عن هويتك ، أو حانوتى جاء لغسلك وتكفينك ودفنك . ومبروكة تولول ، ترجم العساكر ، تغنى لبتاعها الذى طال حتى طرف عينك ، ولسانك الذى أوله فى السودان وآخره فى الشام . كان شبحك .. هناك على شاطئ مرسى مطروح فى فيلا صديقه ، رجل الصحراء الشهير رحومة السنينى وصديقهما رجل الأعمال المعروف ، الحاج حتيتة الزوام ، يستحمون ، يتابعون عن كثب أنباء حرب ما قبل الفجر ، وحين سمعوا عن السيخ الإيطالى الذى أودى بك ، هتف الحاج حتيتة مكبرا : سبحانك يا رب .. تمهل ولا تهمل .. وأمر سكرتيره بتوزيع صدقات بلا حساب من مال الله لأهل الله . وقلده رحومة السنينى ، فأضاف لأموال الزكاة دفعات سخية لدور العبادة وملاجئ الأيتام وخص مقام سيدى العوام بهبة كبيرة ، لأن كراماته ظهرت كما قال الحاج حتيتة .

وكان شبحك يفكر فى كيفية مكفأة رجلهم الذى قام بالمهمة . اجتمع الثلاثة ورصدوا من أجله عشرات البدائل ، ليختار بنفسه الأنفع : فيلا أنيقة فى مراقيا أو ماربيلا . شقة فاخرة على نيل القاهرة . قطعة أرض منتقاه ومميزة. شبح على الزيرو . شيك على بياض . حساب بالدولار فى بنوك سويسرا . منصب رفيع فى السلك الدبلوماسى . وتركوا له حرية الانتقاء ، مع التوصية بترقية لأرفع المواقع الأمنية ، كوطنى مخلص وحارس أمين على سلامة الوطن وأمنه واستقراره .

واحتفالا بالمناسبة السعيدة ، أقاموا وليمة همجية ، دعوا إليها أبرز الأعوان والأعيان وأهل القمة وجلبوا الطعام بالطائرة من أحدث مطاعم العاصمة .. وكانت ليلة احتفلوا وأنت معلق هنا ..

طلبوك ميتا وقد كان . ومسؤول الأمن الإقليمى بجوارك ، يقرأ روايتك ، يقرأ وينفعل . فهذه ليست منشورات ضد النظام أو أسرارا عسكرية كما زعموا ، لكنها أخطر ، إنها حكايات فاضحة عن رجال حكموا الصحراء منذ أكثر من ربع قرن ، ربما ماتوا أو تهمشوا أو صاروا مهمين .. تدينهم ، تشوههم وتمجد (حتة صول) وكأن البلاد خلت من الشرفاء ولم يبق سوى هذا الجلف .

ويتساءل : أهذه حقائق وقعت أم هلوسات كاتب مخبول؟ وهو حائر فى تفسير سر اهتمام الباشا بأمرك . وثمة من وراء الباشا ، من هو أكثر اهتماما ولا يدرى من يكون ؟ وعلى أى جهاز جهنمى يسيطر؟ ويفكر فى ظروفك أيضا : فأوراقك لا تبين توجها دينيا أو حزبيا مناهضا ، بطاقتك توضح: قوات مسلحة بالمعاش. وكرنيهات عديدة تبين اعتدالك: عضو اتحاد الكتاب ونادى القصة وجماعة أتيليه الفنانين والأدباء وعضو نادى رياضى ، فما هو أمرك يا ترى؟ ولماذا تقول التحريات والمطاردات عكس هذا كله؟ ففكر وحسم موقفه منك ، فلو أعلنك إرهابيا كما طلبوا ، ستجد من يخلدك ، يكتب عنك ، تتناقل وكالات الأنباء اسمك ، وقد يجعلون منك بطلا ورمزا . فقرر تبديل الخطة وإخراجك من التاريخ وكأنك لم تكن ، سحب حقيبة المفرقعات من تحتك ورأى تجميد وضعك .. هكذا ، معلقا بين مدينتين . ولما جاء وكيل النيابة لمعاينة جثتك ، أمره مسؤول الأمن ، بعدم الاقتراب ..

– حذار يا أستاذ .. الجثة ليست فى حدودنا ..

– وماذا أكتب إذن؟

– لاشيء .

– وهذه الجثة؟

– لا شأن لنا بها.

– لكنها شكلا ناحيتنا ..

– وقانونا عندهم .

– ومن الذى أطلق عليه الرصاص؟

– لا ندرى.

– وبماذا تأمر سعادتك؟

– لا رأينا ولا سمعنا.

– ونتركه هكذا؟

– هذا شأن الجانب الآخر.

وهكذا بقيت فى وضعك الدرامى : لا أنت هنا ولا هناك . وعندما عاد المسؤول إلى مكتبه ، جهز سلة حديدية ، وفى تكتم ، حرق أوراقك كلها حتى صارت رمادا ، وهكذا ، خرجت من التاريخ رسميا .

(٨)

وأنت معلق هنا ، فوق سيخ مدبب ، بين مدينتين ، فى وجه الريح ، لليوم الثالث، تنتظر الديدان ، تتوالد منك ، تفنيك ، تبيدك ، والذباب يتكاثر فوقك ، الكلاب تنبح .. تحلم بالوصول إليك ونهشك . وجنديان يقظان يحرسان جثتك ، واحد من هنا والثانى من هناك ، حتى يتقرر مصيرك . والمكاتبات تتوالى بين مأمورى الجهتين ، لوجود جثتك فى المساحة المائعة بين الدولتين ، خطأً وقع فيه مهندس إيطالى منذ سنين ، وربما الأتراك أو السنوسية ، وتدفع أنت الثمن الآن . وبالتأكيد سيحولون مشكلتك لجامعة الدول الناطقة بالـ ... ، التى ستفشل كالعادة وتلجأ للأمم الـ ... ، التى ستحتار وتكلف خبيراً دولياً للاطلاع على وثائق الحكومة الإيطالية لمعرفة السبب الذى أقاموا السلك من أجله بعيدا عن الحدود الدولية بعدة أمتار . وحتى يصلوا إلى قرار ، ستظل معلقا هنا ، لا ورقة تفصح عن هويتك ولا شاهد يحلل ملابسات وصولك هنا . وشبحك هناك مع صديقيه رحومة السنينى وحتيتة الزوام ، يحتفل بخروجك من رأسه ، بعد أن سببت له سرطانا ، وكدت تبدد ثمرة كفاحه على مدى سنوات شاقة . وعلى مسيرة دقائق من جثتك ، كان قائد مكتب الأمن الإقليمى ، وبعد حرقه لأوراقك ، وروايتك الملعونة ، وإخراجك من التاريخ ، يحاول النيل من هذه المجنونة، التى تشوش وتهلوس ، فأصدر تعليماته المشددة باعتقالها وقطع لسانها . لكنها تراوغهم ، وتزوغ، وتجوب البرارى ، تتحدث عنك ، تخلد جسدك ، تبقيك فى الذاكرة ، مشوشا ، مشوها . ويتساءلون : «إيش هادا؟ نبى؟ ولى؟ جنى؟ شيطان؟» أنت الذى حاربت هذه المسائل فى حياتك ، أسقطتك مبروكه من مملكتك العقلية بعد مماتك ، وأسمتك «سيدى بلال» تخلد جسدك الذى أهملته ولم تنتبه له إلا قبل فنائك ، ولو اكتشفت مزاياه فى وقت مبكر ، واستثمرته ، لصرت الآن شيئا مهماً، تساندك نساء الخريف بمالهن ونفوذهن وتطل يوميا من الشاشة الجميلة وتتصدر صورك أغلفة المجلات . تكتب كلاماً فارغاً وتنشره فى أماكن إعلامية بارزة . لكنك أهملته وشغلت نفسك بوطن بعيد المنال حتى المرأة التى كانت زوجتك .. رفضتك . شكتك لأهلها وفضحتك ، قالت لهم بوجه مكشوف : يا ناس .. افهمونى .. هذا رجل مجنون .. يحتضن الكتب ، يحاورها ، طوال الوقت .. كتب .. كتب. فتنصحها أمها العاقلة : يا بنتى .. هذا إنسان طيب يتفقه فى الدين ..

فكيف تتجاسرين على طلب الطلاق؟ فتثور ، تصرخ ، تشد شعرها : يا أمى .. صدقينى .. هذه ليست كتب دين ، إنها كتب مساخيط ، قلة أدب ، كفر. يا أمى.. هذا لا يصلى ولا يصوم ، أنصحه مليون مرة : يا رجل .. قبل أن تهبب معى .. سم .. حتى ننجب أطفالا صالحين .. ولا فائدة . ولأنه لا يبسمل.. لا أنجبنا .. ولا روانى .. أقوم يقتلنى الظمأ ويكوينى الشوق ، يتركنى وينصرف لمساخيطه . يا أمى .. هذا ليس لى ولا لأى مؤمنة سوية ، لقد رأيته مرة يقبل كتاباً ولا يستحى . ولو كانت ضرتى امرأة .. لهزمتها ، لكنها كتب من ورق .. زحم بها الأرفف ، الدواليب ، المقاعد .. حتى جاء بها إلى فراشى .. يا أمى .. لقد رأيته يضاجع كتابا فوق سريرى . اعتقونى حتى لا أجن فأحرقه مع كتبه وأحرق نفسى وأرتاح . كانت تجربة قاسية ، أليمة .. والهوة بينكما واسعة . كل وقتها كرسته للصلاة وسماع القرآن المرتل وأحاديث الشيخ المشهور ولم تترك لك مساحة تتحرك فيها سوى الفراش ، فهذا وحده الحلال عندها ، وكل ما عداه حرام . حتى صورة زفافكما أخفتها .. لأن الصور تطرد الملائكة .. فتخليت عنها غير آسف ، واكتفيت بعدها بالسياحة بينهن كلما عضك الجوع .. تأتى بهن من الشوارع ، المشارب ، محطات الحافلات ، كزائرات لليلة واحدة . بعضهن كن يفزعن : تصرخ الواحدة منهن هلعة : «يا نهار أسود .. كل دى كتب .. أقعد ازاى أنا بقى والا هنام فين؟» ، وتزيح كتبك بهمجية ، ترميها على الأرض .. فتثيرك وتذكرك بزوجتك ، تسد نفسك ، فتنصرف عنها .. تقرأ كتابا ، وتهينها تغتاظ ، ترتدى ملابسها بعصبية .. وتشتمك : «اخص عليك .. لما أنت كدة .. أمال جايبنى هنا ليه؟» . واحدة فقط تفاعلت معك ، تفوقت عليك؟ هزمتك ، التقطتها من بين مخالب قناصة زهرة البستان ، وكان المزيفون والكذابون يصفقون لنثرها المتواضع ويشبهونها بالشاعر نزار قبانى ويبدون إعجابهم بشعرها وهى تظنهم يقصدون شعرها . فتدخلت مفسرا الفرق بين الكلمتين رغم مصدرهما الواحد ، الرأس .. لكن الشعر للزينة والشعر للعاطفة والوجدان والجمال والسمو . تشاجرت معك وسبتك .. ثم اختارتك للسهرة واستكمال الحديث فى مكان أهدأ . تسكعتما تتأملان وجوه المتعبين ودخلتما مقهى على بابا .. لأنها تعبت من المشى ..

– مانجو أو ليمون للأنسة .. وبيرة لى.

اعترضت لأنها لا تحب أن يختار لها أحد وطلبت بيرة مثلك . وفسرت سبب ثورتها هناك لأنهم شبهوها بشاعر النساء والمخادع الذى صنع من حلمات أثدائهن أهرامات ومن جلودهن عباءة .. قالت : همجى . وهى تحب أمل وصلاح عبد الصبور وعفيفى مطر ومحمد سليمان وغيرهم ، وشتمت شاعرا شابا تعرفه وقالت عنه كلاما وقحا لأنها وثقت به وطارت معه للسماء ثم هوت . شربت كثيرا ، غنت ، أشعرت ، بكت ، بانت تعاستها وتعاسة العالم كله حين فشلت فى فرملة دموعها وأحزانها .. لكنها تجمدت عند فقرة واحدة من أغنية غريب الدار : «أنا اللى الدهر عادانى وباعنى .. واشترى فيه» . أبدا لا تتزحزح.. تعيد وتعيد . ثم هبت واقفة وقالت : «عاوزة أنام .. تعبانة قوى .. عندك مطرح؟» . تلك الليلة ، نامت فى حضنك كقطة وديعة .. فسموت ، قمعت رغباتك الهمجية احتراما لحزنها الشفيف .. كانت تهلوس ، تتوعد ذلك الشاعر . وأنت تعلم بخبرتك أنها واحدة من الحالمات ، والشاعر مُجرد قناص عابر . قامت قبلك ، رتبت كتبك ، بوبتها ، أزالت عنها الأتربة ، صنعت إفطاراً وشكرتك على المأوى والسلوك الحضارى النادر بين القناصة . تأملتها فوجدتها جميلة رغم التشرد والهزيمة والانكسار . وتأملتك وسألتك عن مصدر سمرتك الخفيفة عن حياتك وأفكارك .. قلت لها الكثير عن أبيك الجنوبى الذى جرفه الخزان شمالا ، فجاء متعبا يبحث عن أمل فى حياة أفضل .. وأمك الشمالية الطيبة التى رحبت به ومسحت عنه آثار الغربة والمرارة ، وخرجت أنت من هذا الكوكتيل الجنوبى الشمالى لتصطدم بالجميع وتحاول إعادة تشكيل عالم جديد على أنقاض الكتب الصفراء والنصوص القديمة . فلا أنت أمك ولا أبوك .. لا أنت أبيض ولا أسمر لا عربى ولا نوبى ولا فرعونى . إنما أنت واقع جديد تشكل من طمى المكان وعذاباته وتجاوزت الماضى ، لتواجه العالم برؤية جديدة تواكب العصر . أسكتتك بإشارة وقالت : دعنى اكتشفك من خلال سلوكك وكتاباتك لأنى شبعت من المتكلمين والمنظرين والشعراء وكتاب العرائض واللافتات ، فنزلت وأحضرت كبابا وشرابا ووردتين . جهزت المائدة وأكواب الشراب وما زالت جالسة تقرأ كتاباً صعباً .. تقول لها هيا .. فترد بزهد : «بعدين .. بعدين ..» . أكلت وشربت وحدك ، استلقيت على السرير وحدك وطلبتها بإلحاح وتذلل .. فقالت .. «بعدين.. بعدين..» . مكثت معك شهرا .. فأدمنتها وتعذبت معها . كانت ضالتك

وجلادك واستعصى عليك ترويضها كغيرها . هذه الشاعرة الحالمة ، تأكل حين تجوع تنام معك عندما تشتهى وتكره أفعال الأمر بكل صيغها وتتوغل لمناطق الحرج وكأنها المشرع : أرفض رجلا يهجرنى فى المضجع ، وأرفض رجلا يؤمن بالمثنى والثلاث والرباع .. هذا كلام سلفى يلائم حريم الخيام والإبل. كانت امراة من نار ، بركان ، ثورة .. كأنها من الزمن الآتى ، جميلة راقية كمن تحلم بها مهما ثارت واحتدت كما حدث مرة وأهانتك : أنت مثقف داعر.. شأنك شأن معظم الناطقين بالعربية .. تبيعون كلاما وشعارات .. وأتعجب .. كيف تحوز كل هذه الكتب وتبدد وقتك في المقاهى والبارات والشوارع وندوات النفاق : اجلس لتقرأ أو تكتب .. أو على الأقل .. قم بدور فى هذه الأيام الهمجية . قاوموا هؤلاء المجانين ، تصدق .. أكثر من مرة يهاجمنى معتوه ويضربنى بعصاه على سيقانى وأذرعى ، وأحدهم صفعنى .. وصرخ فى وجهى : يا عدوة الله والدين.. تحجبى تنقبى ، حتى صار المشى فى الشوارع جنونا ومغامرة .. فأين دوركم مع هؤلاء؟ .. أنتم ولا حاجة .. فقاقيع وبالونات فارغة .

أغاظتك ، فرميتها بقذيفيك فى لحظة غضب : ومن أنت؟ مجرد عاهرة تتاجر بجسدها؟ .. كنت قاسيا ، همجيا .. لكنها امتصتك وردت بهدوء وأسى : كانت غلطتى الوحيدة أننى صدقت همجيا فى لحظة غيبوبة عابرة فرمانى لكم وما كنت أستحق هذا .. ولا تاجرت بجسدى .. فماذا أعطيتنى خلال ثلاثين يوماً؟ كل ما أحلم به : مأوى آمن ، قليلا من الطعام ، كتب كهذه أبحر معها لعالم أقل ضجيجا وتآمرا .. ورفيقا أتساوى معه ولا يملكنى .. وقد تعبت فى العثور على هذا الرجل المستحيل فى مدن الهمج .. هل فهمتنى؟ قلت لها فهمت . وتصورت أنك هذا الرجل . استأذنتها لساعة واحدة لتأتى بالمأذون وشاهدين وعندما عدت بهم فرحا ، وجدت مكانها رسالة قاسية: أيها الصديق .. شكرا على مبادرتك النبيلة .. لكنك لست من أريد ، منذ شهر أحاول اكتشافك ، تخرج وتعود بما يخصك : الكباب والشراب . أبدا لم تفعلها مرة واحدة .. حتى فى يوم زفافنا المفترض ، لم تفكر فى فستان أرتدية .. على الأقل أمام شهودك المزيفين ، وأظننى فهمتك ، أنت تريد أنثى مجانا وتحاول تسجيل بطولة على حسابى .. أنا أرفض مبادرتك وأرفضك .. لا تحاول ملاحقتى ، لو اقتنعت بك .. ستجدنى عندك بإرادتى .. وداعا.

وأنت معلق هنا وعلى وشك الفناء : مبروكة تخلدك ، تقتص لك منهم بطريقتها : تولول وتزعجهم ، وتسألها النسوة المحرومات : «إيش تقولى يا مبروكة على المسخوط؟» فترد بحزن وهى تمسح دموعها: «والله يابنياتى كان بدى تشوفوه .. لكن رحومة الله يجازيه طخه بالخرطوش . فيسألن مستغربات : «ورحومة إيش دخله؟ سمعوكى تقولى العبدة؟» . فتقول مؤكدة: «وكان معاهم رحومة وحتيتة الزوام .. هادا اللى صار ومقام سيدى بلال» . والبعض يصدقون، يتحايلون للاقتراب منك ، فلا يجدون شيئا.

فيسألون عسكرى الدرك الذى يؤكد لهم أن الحكومة قطعته فعلا وأرسلته للمتحف لجذب السياح ، كمصدر جديد للعملة ، أحسن من البترول والقطن وقناة السويس والأهرامات .. رزق وهبط من السماء .. ربك قادر . ومبروكة لا تهدأ ، تقوم بغارات ليلية ونهارية لاختطافك ، لكى تشيد لك مقاما وتسميك الشيخ أبو طويل .. فتدخل التاريخ من باب الهمج بعد أن سدوا أمامك منافذ العقل ، لكنها تفشل فى الوصول إليك ! فتولول متحسرة على مسخوطك الذى كان أوله فى رفح وآخره فى حلايب . لكن شادى قام بعمل فريد ومدهش وأعادك للذاكرة من جديد ، استطاع الحصول على النسخة التى هربها من روايتك قبل ترحيله ، وأصدر الطبعة الأولى فى بيروت وراسلك مرات وأنت لا ترد ، وسأل عنك عشرات الأصدقاء ولا أحد يدرى عنك شيئا . أنت تفنى هنا .. وروايتك خرجت من المطبعة للتوزيع . وهناك ، فوق مقاعد زهرة البستان ، حديقة الأتيليه ، وتجمعات الكتاب ، يتحدثون عنك ، ينمون ، يفسرون اختفاءك كما يحلو لهم ، يقولون إنك بعت قضيتك وهاجرت سعيا وراء الدنانير .. والريالات . ويخمنون ، أين تكون الآن؟ غريا لتمجد العقيد ونهره العظيم وكتابه الذى بلون البرسيم ، أم فى بلاد الجنادرية لتهتف : هذه خير أمة أخرجت للناس ، ويا رسول الله أمتنى على أعتابك . أم اخترقت الحصار ووصلت إلى بطل أم المعارك ، لتكتشف سر عبقريته وخططه العظيمة التى هزمت جيوش العالم . أم توغلت جنوبا لتحرض أهل أبيك وتزحف بهم شمالا إلى بلاد أمك الطيبة والتى عرفت نزواتك ، جموحك وتمنت قصف رقبتك فى وقت مبكر . وأحدهم عارضهم جميعا ، اختلف معهم زاعما أنك ضعفت وسلمت وذهبت لبلاد الكاوبوى الذى عاديته زمنا فجوعك ودمرك وأطلق عليك أشباحه ، وأنت الآن فى البيت الذى بلون الحليب ..

تسجل اعتذارك رسميا . بينما أشاع أخطر منافسيك وأحقدهم أن صديقاً له ، شاهدك عند معبر رفح البرى .. فى طريقك إليهم . وزعم أحد التافهين المسطحين بأنك ركبت الموجة ، أطلقت لحيتك ، باحثا عن الحل فى الحبل .. وتتدرب الآن فى إحدى معسكراتهم السرية . بينما شادى ، لا يكف عن السؤال الدائم واستمر يتصل بتليفونك طوال اليومين الفائتين .. ليلا ونهارا . ورواياتك وصلت للباعة .. على أرصفة بيروت ومكتباتها . يحدث هذا كله وأنت معلق هنا ، بين مدينتين ، تاركا ضحاياك خلفك ، والأرملة الطيبة فى حالة انتظار وترقب . والهمج ينتشرون ، وشبحك صار حقيقة ونمط حياة وسلوك ولغة عصر ، من معه يرتقى ، من عليه ينتهى نهايتك . وقد تساءلت يوما عن العلاقة بين الأشباح والهمج؟ وتساءلت عن سر وداعة هذه البقرة التى تقف مستسلمة ، فاشخة ساقيها ، تاركة ثدييها لكل حالب : لا ترفس ولا تعض؟ وتساءلت وأعياك التفكير ولم تحصل على إجابات شافية حتى وصلت إلى هنا ، وانتهيت هنا فى وضعك الدرامى المأساوى . والجندى الذى هنا والذى هناك ، ضاقا منك ومن عفونتك ورائحتك الكريهة التى تهب عليهما فيشعران بالقرف والغثيان . وينتابهما الخوف من احتمال ظهور عفريتك ومن احتمال امتداد لسانك الذى تحكى عنه مبروكة ويلتف حول عنق أحدهما كالثعبان الخرافى . ضاقا منك ومن نباح الكلاب . ورغم إيمانهما بأن إكرام الميت دفنه ، فقد تهور أحدهما : غافل زميله ، متسترا بالظلام . وفعلها . قبل الفجر تماما ، ليس قبله ولا بعده ، أصيب بلوثة عارضة ، فوضع تحتك أعشابا وحطبا وأشعل فيك النار . وقبل الفجر أيضا ، كنت تحترق . عظامك تطقطق ! تتساقط ، وجمجمتك تنفجر ، تحدث دويا . ولم يبق معلقا فوق السيخ سوى بقايا جمجمة . ودخانك يعبئ سماء المدينتين ، وينتشر .. يتصاعد .. ينتشر، يتسلل للخيام والبيوت ، والناس يختنقون ، يهبون من نومهم مذعورين ، يصرخون : حريقة .. حريقة .

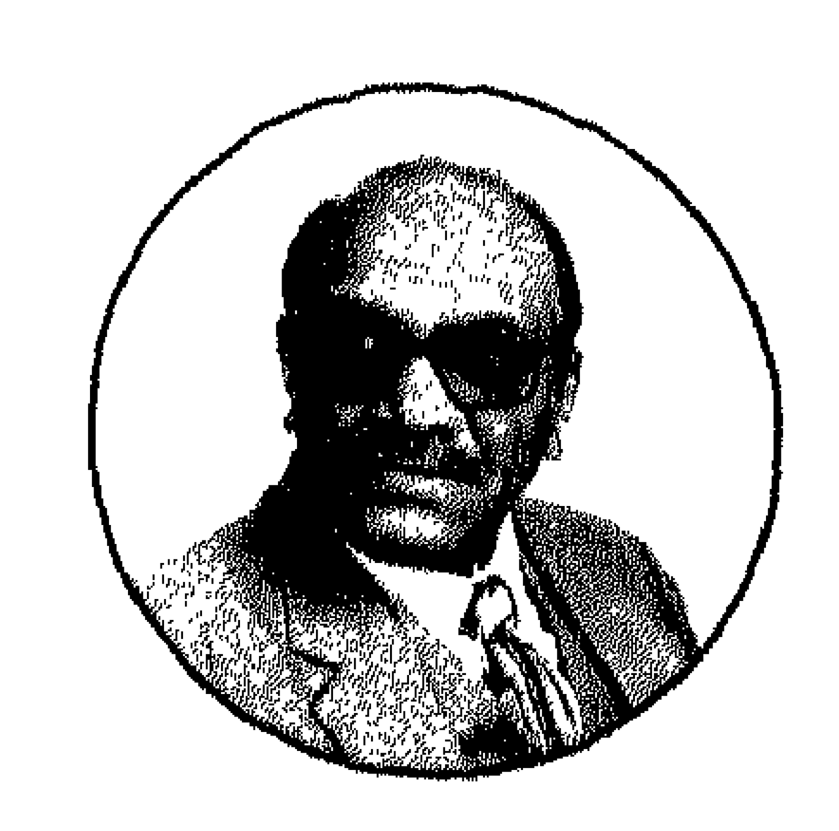
المحتوى

للمؤلف

١- المبعدون (قصص)	مطبوعات الفجر ١٩٨٥ (نفدت)
٢- واحد ضد الجميع (قصص)	كتاب المواهب ١٩٨٧
٣- دنقلة (رواية)	هيئة الكتاب ١٩٩٣
٤- وقائع غرق السفينة (قصص)	قصور الثقافة ١٩٩٤ (نفدت)
٥- انفجار جمجمة (رواية) ط١	المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨ (نفدت)
٦- النوبى (رواية)	هيئة الكتاب ، كتابات جديدة (تحت الطبع)

مطبعة المجلس الأعلى للآثار

هــذا الــكــاتــب



إدريس علــى محمــد حســن

- مواليد بلاد النوبة، أسوان، ٥/١٠/١٩٤٠.
- أول قصــة قصيرة نشرت له كانت في مجلة صباح الخير العدد ٦٨٠ يناير ١٩٦٩.
- توالـت بعـد ذلك أعمالــه فــى مجالات: القصـة، الجديد، الزهور، أكتوبر، الثقافة، الثقافة الجديدة، كلام الناس، جريدة المساء.
- عضو اتحاد الكتاب.
- عضو نادى القصة.
- عمـل في القـوات المسلحة (قوات حـرس الحـدود) فــى الفـتـرة مــن ١٠/٥/١٩٥٨ إلــى ١/١١/١٩٧١.
- أمين مكتبـة شركة المقاولون العرب.

الجوائز

- الجائزة الأولى من جامعة أركنساس عن ترجـمـة رواية «دنقلة» للإنجليزية ١٩٩٧.
- المركـز الثـانى مكـرر لروايــة «دنقلة» مسابقة نجيب محفوظ عام ١٩٩٦ المجلس الأعلى للثقافة.
- جائزة أفضل رواية صدرت عام ١٩٩٨ من معرض القاهرة للكتاب عام ١٩٩٩ لرواية «انفجار جمجمة».
- درع الثقافة الجماهيرية من مؤتمر

• هـذه روايـــة بالغـة الأهميـة، شديدة الإنسانية، رشيقة العبارة، وهى بكل تأكيد إضافة ممتازة للرواية السياسية العربية.

د. على الراعى

• هـذه الروايـة انفجـار بكل معنى الكلمة، من انفجار الدم إلى الميل عن الحق والانحراف وارتكاب الخطأ. وهى ليست «انفجار جمجمة» فحسب، بل هى أيضاً انفجار فى مجال الرواية العربية، فى جرأتها فى الحكى الذى تمتزج فيه دماء الجثة بجغرافية مصر من المدينة إلى الريف، ومن الريف إلى الصحارى.

فتحى غانم

• مـن الصعب علـى من يقرأ رواية إدريس على «انفجار جمجمة» أن يتجاهل دور القامع فى إعـادة تشكيل شخصية المقموع، فعظمة هـذه الرواية الصعبة والمثيرة أنها لا تضع حداً للانتقاد، فهى تعرى الذات بالمبضع ذاته الذى تعرى به الآخرين، وهذا موقف نادر الحدوث فى ميدان الرواية العربيـة التى مـا يزال الكثير مـن نصوصهـا يراوح فى منطقة الأبيض والأسود، والخير والشر، والظلمة والنور، وما يتفرع عن ذلك من ثنائيات مبسطة مملة.

محيى الدين اللاذقانى

